الدكتور امحمد بن عبود

# جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري

تقديم : الأستاذ محمد المنوني

تحت إشراف المعهد الجامعي للبحث العلمي

خطط وجه الكتاب : الاستاذ المنصور الهلالي

# جوانب من الواقع الأندلسي
# في القرن الخامس الهجري

الدكتـور أحمـد بن عبـود

# جوانب من الواقع الأندلسي
# في القرن الخامس الهجري

تطـوان 1408هـ - 1987م.

مطبعة النور - شارع عبد الكريم الخطابي
درب بوردان رقم 4 تطوان - المغرب

# محتوى الكتاب



## الفصل الاول

## الفصل الثاني



## الفصل الثالث

# الفصل الرابع

# شكر

إنني أدين بالشكر العميق لبعض الاصدقاء على مراجعتهم اللغوية لمختلف فصول هذا الكتاب التي أنجزت أصلا بالانجليزية ونشرت في شكل مقالات في مجلات تاريخية متخصصة (1) . لقد وزعت هذه الفصول بعد قيامي بتعريبها على الاساتذة : إبراهيم الخطيب وخديجة حركات وعبد العزيز السعود وعبد السلام الشكريوي والعياشي حدوش ، باستثناء الفصل الثاني الذي نقلته الاستاذة زبيدة بورحيل من الفرنسية إلى العربية ثم قمت بمراجعة تلك الترجمة انطلاقا من الاصل الانجليزي مع تغيير الأسلوب حتى ينسجم مع الفصول الأخرى .

ويمكن القول إنني أحببت اللغة العربية بفضل مثل هؤلاء الاصدقاء فشكراً لهم جميعاً .

---

1 ) فيما يلي إحالات المقالات المنشورة باللغات الاوربية :

M'hammd Benaboud, Asabiyya and Social Relations in Al-Andalus during the Period of the Taifa States Hespéris - Tamuda, vol. XIX, ( 1980 - 1981 ), pp. 5 - 45.

M hammad Benboud, Tendances économiques dans Al-Andalus durant la période des Etats - Taifas, Bulletin Economique et Social du Maroc, n° 150 - 151, 1984, pp. 171 - 81.

M'hammad Benaboud, The Socio - Political Role of the Andaluian 'Ulmá' during the Period of the Taifa States, Islamic Studies, ( Pakistan ), vol. XXIII, n° 2, Summer - 1984, pp 103 - 41

M'hammad Benaboud, El papei Social y politico de los 'Ulmá' en al-Andalus durante el periodo de los Taifas, Cuadernos de Historia del Islam, n° 11, 1984, pp. 1 - 46.

M'hammad Benaboud, L'Historiographie d'Al-Andalus durant la périede des Etats - Taifas Revue l'Occident Musulman et de la Méditerranée, (Aix), 1985.

M'hammad Benaboud, Historiography in Al-Andalus during The Period of the Taifas States, ( Forthcoming ), Hespéris - Tamuda ( 1986 ).

# تقديم

العلامة الاستاذ محمد المنوني

بسم الله الرحمن الرحيم

يتصاعد اهتمام المغرب بمصير الأندلس إلى ما قبل منتصف القرن الخامس الهجري . ومن أول مرة كان تحرير الأندلس من العدوان الاسباني في طليعة هموم المرابطين ، فيرسل ابن الأثير عنهم هذه القولة : «... ثم إن الصحراء ضاقت عليهم ، وأرادوا إظهار كلمة الحق ، والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار » . ويذكر نفس المصدر أبا بكر بن عمر لما خرج إلى السوس ، فيسجل خطابه لأهل المنطقة: «إفتحوا لنا الطريق لنجوز إلى الأندلس، ونجاهد أعداء الإسلام».

ومن جهة أخرى ، كان للمغرب الفضل الجزيل فى حفاظه على مجموعة من تراث الأندلس المكتوب في عهد ملوك الطوائف . ومن نماذج ذلك : ديوان ابن دراج ، وديوان ابن عمار، و«كتاب التبيان» لعبد الله بن بلكين . ولما يذكر عبد الواحد المراكشي كتاب «المظفري» للامير ابن الافطس يعقب قائلا : «وقفت على أكثره» .

وتستمر هذه الاهتمامات - عبر العصور التالية - بشكل متقطع ، لتنبعث - بالمغرب - خلال القرن العشرين . وفي أواخر السبعينات

تأخذ طريقها نحو التخصص ، فيلمع إسم باحث شاب يتخصص في التاريخ الأندلسي (القرن الخامس الهجري)، حيث يؤلف الدكتور محمد ابن عبود «التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية فى عهد دول الطوائف» ، ويكتبه بالانجليزية ليكون موضوع أطروحة الدكتوراه من إدنبرة ، ثم يعربه فيفوز بجائزة المغرب لسنة 1983 .

ويتابع الأستاذ الدكتور نشاطه ، فيساهم بالأبحاث المهمة في عدد من المنتديات الدولية بأوربا وأمريكا والبلاد العربية وتركيا ، كما ينشر فى مجلات تاريخية متخصصة : باللغات الانجليزية والفرنسية والاسبانية ، فضلا عن المجلات العربية .

ومن هذه الأبحاث تخير الاستاذ المنوه به ، أربع دراسات تتكامل مواضيعها ، فترجمها إلى العربية وأصدرها بعنوان : « جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري » .

وقد جاءت هذه المجموعة - وهي تركز أكثر على التاريخ الاجتماعي - تمثل تأليفا مرتبا ترتيبا معقولا، ومترابط الحلقات. ويمتاز المؤلف - مع هذا - بالعمق فى أبحاثه ، والجدة فى منهجيته ، وبالأصالة في اختيار أوثق المصادر الأندلسية ، وخصوصا المعاصرة للحقبة المدروسة، مع مقارنتها وتكميلها بالمراجع العربية والأجنبية المتعددة اللغات.

وبهذا فإن الكتاب يعتبر إضافة جديدة ومهمة ، لتعزز الدراسات عن عصر ملوك الطوائف ، فليهنأ الدكتور محمد ابن عبود بهذه المساهمة الطيبة ، وليهنأ البحث الأندلسي بظهور كتاب : « جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري » .

( محمد المنوني )

# تقديـــم

الاستـاذ المستشرق ولهـم مونتغومري واط

لقد درس تاريخ الاندلس إلى حين سقوط الدولة الاموية في سنة 422 هـ / 1031 م ، دراسة موسعة من طرف عـدد مـن الباحثين وعلى رأسهم إيفارست ليفي بروفنصال، غير أنه بالنسبة للفترة التي تلتها لم ينجز في العقد الاخير إلا القليل من الدراسات الملائمة . ومع ذلك ما زلنا نفتقر إلى دراسة شاملة تغطي مجـموع الفترة إلى غاية سقوط غرناطة . وزيادة على ذلك نلاحظ أن فترة الخمسين أو الستين سنة التي تلت سقوط الامويين إبـان حكم ملوك الطوائف الاندلس ، قد أهملت من طرف المؤرخين أكثر من إهمالهم غرناطة إلى عهد النصريين ، ويعود هذا دون شك إلى تعقيد مجريات الاحداث خلال تلك السنين حينما كانت السلطة موزعة بين مراكز محلية متباينة . ولهذا يسرني بـالـغ السرور أن أحث وأوصي جمهور القراء المتنورين على الاهتمام بهذه الدراسة ، فهي قائمـة على بحث مدقق للمصادر التاريخية الاساسية كما تقدم عرضا جازما ومكينا لوجه من فترة ملوك الطوائف وستكون ذات قيمة عظمى للمؤرخين المقبلين في محاولتهم صياغة نظرة تركيبية شاملة لتلك الحقبة .

ف

# FOREWORD

The history of al-Andalus (Islamic Spain) up to the fall of the Umayyad dynasty in 422/1031 has been fairly fully studied by a numbrer of scholars, and most notably by Évariaste Lévi-Provençal. For the subsequent period, however, there have been hardly any adequate studies until the last decade, and there is still no comprehensive work covering the whole period to the fall of Granada. The fifty or sity years after the fall of the Umayyads, when Islamic Spain was ruled by Mulûk-at-Tawâ'if, has been even more neglected by historians than the Granada of the Nasrids. This is doubtless due to the coplexity of what was happening during these years when power was shared between many different local centres. I have therefore great pleasure in commending the present study to a scholarly audience. It is based on careful study of the sources and gives an authoritative acount of one facet of the events of the period of Mulûk at-Tawâ'if, and will be of great value to future historians attempting to frame a synthetic and comprehensive view of this period.

*W. Montgomery Watt,*

**Edinburgh, 4th May, 1979,**

# جـوانب من الـواقـع الأندلسي
# فـي القـرن الخـامس الهجـري

# المقدمة

يتجلى الهدف الرئيسي من كتاب : « جوانب من الواقع الاندلسي في القرن الخامس الهجري » في إبراز أهم عناصر التاريخ الاجتماعي والاقتصادي الأندلسي خلال عصر ملوك الطوائف .

لسنا بحاجة للإشارة إلى ما يعانيه التاريخ الاجتماعي الأندلسي من النقص ليس في المغرب فحسب ، حيث لا يزال الجيل الجديد من المتخصصين الجامعيين فى التاريخ الاندلسي يبذل محاولاته الاولى ، بل وعلى المستوى العالمي . ويعود هذا النقص إلى عاملين أساسيين ، أولهما : اعتناء المؤرخين المتخصصين في التاريخ الأندلسي بعصوره المختلفة ، وعلى رأسها العصر الأموي ، على حساب عصر الطوائف ، وثانيهما : التركيز على التاريخ السياسي ، على حساب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي . لا نريد هنا أن نتطرق لأسباب هذا الاتجاه ،

بل سوف نكتفي بالاشارة إلى كونه بدأ يتغير مؤخراً لما يلاحظ من اهتمام المؤرخين بعصر الطوائف وبالتاريخ الاجتماعي الاندلسي بالـذات .

إن الـواقع الأندلسي الذي نبحث عنه هو الـواقع الاجتماعي بالدرجة الاولى ثم الاقتصادي الذي لا يقل أهمية لارتبـاطه بالمجتمع ؛ وهذا لا ينفي وجود العنصر السياسي وأهميته نظراً لكون الواقع التاريخي متعدد العناصر والأبعاد .

سوف نكتفي في هذا الكتاب بدراسة جوانب معينة من الواقع الأندلسي لسببين ، أولهما : وجود جوانب أخرى من هذا الواقع نرجو أن نتطرق لها نحن وغيرنا مستقبلا ، وثانيهما : أننا نعتبر ما استخلصناه من استنتاجات معينة مسألة ظرفية قابلة للتطور والتغير ، يعني للرفض أو القبول أو التعديل، مع تطور البحث في مجال التاريخ الاجتماعي في الأندلس . وأخيراً ، يعود حصرنا للزمان في القرن الخامس الهجري ، أساساً ، إلى التحام جوانب مختلفة من الواقع الأندلسي خلال تلك الحقبة التاريخية .

يشمل هذا الكتاب أربعة فصول، ألف كل فصل منها في الأصل مقالة نشرت في مجلات تاريخية متخصصة باللغات الانجليزية والفرنسية والاسبانية . وننشرها لاول مـرة بالعربية ضمن هذا الكتاب نظراً لتقاربها وللالتحام الذي يجمع بينها من حيث المواضيع التي عالجناها ونظراً لكونها تتطرق إلى جوانب مختلفة من التـاريخ الاجتماعي والاقتصـادي في الأنـدلس خـلال نفـس الحقبـة التاريخيـة ،

بعبارة أخرى ، تتطرق كل منها لجوانب مختلفة لنفس المجتمع . وهناك تشابه بين تخطيط فصول الكتاب بحيث تنقسم جميعاً إلى قسم عام يعالج الموضوع بطريقة شمولية يتبعه قسم خاص يتطرق إلى أمثلة ملموسة ومحددة تؤكد ما جاء في القسم الاول وتدعمه . مثلا ، تطرقنا في الفصل الثالث للدور السياسي والثقافي للعلماء الاندلسيين عامة خلال القرن الخامس الهجري ثم عرضنا أمثلة ملموسة في القسم الثاني تعكس التنوع في مواقف العلماء السياسية ثم تحولها إلى موقف سياسي موحد ضد ملوك الطوائف إثر ظهور يوسف بن تاشفين بصفته بديلا مقبولا لديهم .

وفيما يخص طريقة التوثيق في فصول هذا الكتاب فقد اعتمدنا أساساً على المصادر الأندلسية الأولية الأساسية ، خصوصاً المعاصرة للحقبة التي نحن بصددها ، لتدعيمها مع الإشارة إلى المراجع الثانوية ليس بالعربية فحسب بل بالاسبانية والانجليزية والفرنسية حتى يستطيع القارئ أن يوسع إطلاعه في المواضيع التي تطرقنا لها .

إن المؤرخ ، أي مؤرخ كان ، لابد أن يتأثر ببيئته اللغوية والثقافية والحضارية وبتجاربه الشخصية في تفكيره وفي تأريخه . وإننا لا ننفي مثل هذا التأثير في كتابنا هذا . إلا أننا حاولنا أن ندرس جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الهجري الخامس كما كان يفهمه الأندلسيون المعاصرون أنفسهم لأننا وإن كنا نقول بضرورة انتقاد النصوص التاريخية وأصحابها فإننا نعتبر نصوص ابن حيان وابن حزم وعبد الله بن بلقين وابن بسام

وغيرهم أعمق في التاريخ الأندلسي في عصر الطوائف من غيرها ، ذلك أننا لا نفهم الواقع الأندلسي خلال تلك الحقبة على الصورة الحالية إلا بفضل وجود تلك النصوص التاريخية الطريقة والمتميزة . ومن حسن حظ المؤرخ المهتم بالتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للأندلس فى تلك الحقبة أن المصادر الأولية الأساسية غنية جداً ، والمطبوع منها يحتوي على مادة تاريخية غزيرة كفيلة بأن تشغل الباحثين الذين يرغبون في فهم الواقع الأندلسي خلال سنين عديدة. إننا نأمل ، بطبيعة الحال ، أن يمثل كتابنا هذا مساهمة جديدة فى مجال التاريخ الاجتماعي الاندلسي ، مما دفعنا إلى نشره ، وربما يظهر هذا التجديد في العناصر التالية :

يعالج كل فصل من فصول الكتاب قضية في التاريخ الاجتماعي الأندلسي بطريقة تخالف ما كان سائداً لدى المهتمين بالدراسات الأندلسية . تطرقنا للعصبية والعلاقات الاجتماعية في الفصل الاول فحاولنا أن نثبت أن المجتمع الأندلسي لم يتميز بالعصبية في القرن الخامس للهجرة وأن هناك قوى اجتماعية واقتصادية أخرى كانت بارزة سواء في بنيته الاجتماعية أو في إطار العلاقات بين دول الطوائف . كما لاحظنا غياب العصبية في إطار مواقف أبرز المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة التاريخية . ولا يمكن أن نناقش دور العصبية في المجتمع الأندلسي إلا بعد تحديد طبيعته . هناك تصورات متعددة للمجتمع الأندلسي مثل التصور القبلي والتصور الإقطاعي ، إلا أننا اعتبرناه

مجتمعاً حضرياً بالدرجة الاولى في القرن الهجري الخامس مما يفسر موقنا بالنسبة للعصبية .

وقمنا بدراسة الانجاهات الاقتصادية في الاندلس في الفصل الثاني ، وحاولنا أن نتطرق لطبيعة العلاقات الاقتصادية بين دول الطوائف والممالك المسيحية في شمال إسبانيا مركزين على دور الجزية المالية التي كان يفرضها المسيحيون وعلى رأسهم الفونسو السادس ملك قشتالة وليون على ملوك الطوائف وأدت سياسة الفونسو فعلا إلى إضعاف ممالك الطوائف سياسياً وعسكرياً وإلى إفلاسهم الاقتصادي. لقد تطرق بعض المؤرخين الإسبان المتخصصين فى الممالك المسيحية في شمال إسبانيا لهذه العلاقات الاقتصادية اعتماداً على مصادر مسيحية وانطلاقاً من منظور الممالك المسيحية ، فحاولنا تطبيق نفس النموذج على هذه العلاقات اعتماداً على مصادر أندلسية ومن خلال منظور يركز على دول الطوائف بالدرجة الاولى .

أما الفصل الثالث ، فيتجلى الجديد فيه أساساً في كوننا حاولنا أن نحدد الموقف السياسي للعلماء الاندلسيين من ملوك الطوائف وتحوله من مواقف فردية متنوعة ومتعددة إلى موقف موحد معادي لهم بعد أن أصبح الفونسو السادس يهدد ملوك الطوائف بادماج ممالكهم في مملكته وبعد ظهور يوسف بن تاشفين بصفته عنصراً قادراً على قيادة الاندلسيين ضد المسيحيين وقادراً على توحيد صفوفهم في إطار شرعي .

ويظهر الجديد فى الفصل الخامس فى تحليلنا لأبرز عناصر الظروف التاريخية التي مكنت التأريخ الاندلسي في القرن الخامس الهجري الذي كان يتسم أساساً بالتنوع وبالابداع من اتخاذه اتجاهاً جديداً قاده إلى أوجه. وتطرقنا لمثال عبد الله بن بلقين مؤرخاً لنبرز أهم العناصر التي ميزت كتابته التاريخية مثل البعد الذاتي والشخصي والذي يظهر مثلا فى نقله للحوار المباشر الذي كان يدور بينه وبين رسل أبرز الشخصيات التاريخية المعاصرة له مثل الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد.

لقد لاحظ عدد من المؤرخين المغاربة في كتابنا: «التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف»، الصادر سنة 1983 م. أننا لم نتطرق فيه بالتفصيل للعلاقة بين الاندلس والمغرب. وبعبارة أخرى، إن المغرب مهمش في كتابنا المذكور. وتنطبق نفس الملاحظة على كتابنا هذا لاننا درسنا إشكاليات وقضايا تهم المجتمع الاندلسي وحده. ويعود ذلك إلى ثلاثة أسباب أساسية، أولها أننا اخترنا أن نتخصص في التاريخ الاندلسي خلال القرن الخامس الهجري بالدرجة الاولى وهذا اختيار مشروع لا نرى ضرورة تبريره، وثانيهما أن اهتمامنا بالتاريخ الاندلسي محصور من حيث الزمان بعصر دول الطوائف وبظهور دولة المرابطين فى الاندلس ومن المعروف أن العلاقة بين الاندلس والمغرب أخذت اتجاهاً جديداً بعد إدماج الاندلس في الدولة المرابطية، والسبب الثالث هو أن المقارنة بين الاندلس والمغرب لا يمكن أن تكون متينة إلا إذا اعتمدت دراسات

جادة فعلينا أن نتعمق في التاريخ الاجتماعي في كل من المغرب والاندلس نظراً لخلافهما الجذري خلال القرن الخامس للهجرة قبل أن نقوم بمقارنتهما وبدراسة علاقتهما. لذلك، نرجو أن يساهم هذا المؤلف في اغناء فهمنا لجوانب من الواقع الاندلسي وقد يساهم ذلك في فهمنا للعلاقة بين المغرب والاندلس على مستويات مختلفة. وهكذا فإن فهمنا لجوانب من الواقع الاندلسي قد يساهم في اقترابنا من واقعنا المغربي في الوقت ذاته.

ومن جهة أخرى، بالرغم من أهمية العلاقة الاندلسية ـ المغربية يجب ألا ننسى علاقة الاندلس بالمشرق من جهة. وبالممالك المسيحية في شمال إسبانيا من جهة أخرى. هناك تفاوت في أهمية هذه العلاقة لانها متعددة المستويات. مثلا، كانت العلاقة الاقتصادية بين الاندلس والممالك المسيحية في شمال إسبانيا أهم من علاقتها مع غيرها ويظهر ذلك بوضوح في الفصل الثاني الذي تطرقنا فيه للاتجاهات الاقتصادية في الاندلس في القرن الخامس الهجري. وتعود أهمية علاقة الاندلس بالممالك المسيحية على المستوى العسكري والسياسي إلى ارتباطهما بالبعد الاقتصادي. إلا أن علاقات المجتمع الاندلسي كانت أهم مع المشرق على المستوى الفكري والثقافي والحضاري. وينعكس ذلك في الميراث الثقافي الاندلسي الذي تطرقنا له بإيجاز ضمن الفصل الرابع، وفي محافظة الاندلس على الطابع العربي والاسلامي لثقافتها في عهد الطوائف وبعده بل نرى حضور اللغة العربية حتى

في مملكة قشتالة وليون حيث كان الفونسو السادس يخاطب المعتمد ابن عباد ويوسف بن تاشفين بالعربية في الرسائل الموجهة إليهما .

وعلاوة على علاقات الاندلس بالمغرب وبالمشرق وبالممالك المسيحية في شمال إسبانيا يجب ألا ننسى العلاقات الاندلسية -الاندلسية وهنا يجد المؤرخ نفسه أمام مجموعة من التناقضات التي يحير أمامها أحياناً في تحليل العلاقات بين دول الطوائف مع بعضها الآخر. كانت الاندلس تنقسم إلى دول طائفية تتظاهر بمظهر السيادة السياسية وتقيم علاقات سياسية مع بعضها يطبعها الصراع العسكري والاصطدامات السياسية المستمرة . أما علاقاتها الاقتصادية مع بعضها فلم تقل خطورة . ومع ذلك نلاحظ ازدهاراً فكرياً وثقافياً في الاندلس في عهد الطوائف . وبالرغم من الانقسام السياسي حافظ المجتمع الاندلسي على أبرز مميزاته كما أنه تميز بطابع الاصالة والابداع . وقد عنينا في فصول هذا الكتاب أن نتعرض لبعض جوانبه بالتحليل لنخرج بتصور لا ينفي وجود التناقضات المحيرة في الواقع الاندلسي وإنما يفهمها ويهذبها ويخضعها لقالب منطقي .

# الفصـل الاول

## العصبية والعلاقات الاجتماعية في الاندلس في عهد دول الطوائف

لقد شكلت طبيعة القوى الدينميكية العاملة على تحول المجتمع الاندلسي موضوع خلاف شديد، نظراً لتنوع عناصر هذا المجتمع الاثنية وتعقيدها من جهة، ولطبيعته المتحركة والمتطورة من جهة أخرى. لقد تطرق عدد من أبرز المتخصصين في الدراسات الاسبانية والاندلسية باسهاب لموضوع الصراع الاثني أو العرقي بصفته قوة منعشة داخل المجتمع الاندلسي ونتائجه وتأثيره على العلاقات

الاجتماعية . كما يكتسب هذا الموضوع أهمية خاصة في إطار مفهوم العصبية عند ابن خلدون وهو موضوع حي أثار اهتماماً كبيراً عند المثقفين المحدثين. لقد طبق المنهاج الاثني أو العرقي للمجتمع الاندلسي بصفة خاصة على عهد بني أمية ، ولكن بعض الباحثين ادعوا أن هذا المنهاج نفسه يصلح تطبيقه على المجتمع الاندلسي عامة . إلا أن المجتمع الاندلسي كان قد تغير من عدة نواح خلال عهد دول الطوائف ( الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي ) . ومن الاهداف الرئيسية لهذا المقال مناقشة مفهوم العصبية والعلاقات الاجتماعية ثم إثبات فكرة جديدة وهي أنه نظراً لتطورات جديدة في المجتمع الاندلسي ، لم يعد المنهاج الاثني صالحاً لتفسير عهد دول الطوائف كما يحتمل عامة .

لقد كان مفهوم العصبية كما تبلورت عند ابن خلدون في « المقدمة » موضع المناقشة في عدد من التفاسير المختلفة لفلسفة التاريخ عنده . (1)

لقد كان مفهوم العصبية في الاصل يحدد القوة الرئيسية وراء المجتمعات القبلية ثم تطور فيما بعد ليصبح قوة اجتماعية في المدن وتكمن أصالة ابن خلدون بصفته مفكراً في كونه طور هذا المفهوم ليعين به أبرز قوة اجتماعية وراء نهوض الدول والحضارات التاريخية ثم انهيارهما . (2) وهكذا فقد طور ابن خلدون هذا

المفهوم داخل إطار نظري شمولي يعتمد عليه في تحليل التاريخ الشمولي ( Macro - history ) ، إلا أن استخدامنا لهذا المفهوم أقل توسعاً .

عند ما نناقش العصبية والعلاقات الاجتماعية في عهد دول الطوائف قد ننظر إلى هـذا المفهوم خارج إطاره الخلدوني وقد نغير دلالته الكلاسيكوية الشائعة . بل إن انحرافنا عن فهم ابن خلدون لمفهوم العصبية وتطبيقه له يأتي على المستوين الزمني والمكاني .

إن عهد الطوائف شمل فترة زمنية مدتها أقل من قرن واحد . وجاء اختيارنا لفترة محددة نتيجة اتصافها بظاهرة خاصة بها ونعني نشأة وتطور دول الطوائف ثم انهيارهـا . ونتيجـة لذلك فإن مشكل تصور العصبية في فترة زمنية تتصف إما بطابع مستقيم ( liner ) أو بطابع دوري ( cyclic ) لا يطرح في إطار مناقشتنا . (3)

كما يختلف اعتبار العصبية في الاندلس من الخلفية التي اختارها ابن خلدون عند ما شرع في عمله العظيم الذي تجلى هدفه في تقديم تاريخ العالم كما عرفه . ومع هذا ، فإن تحديد دراستنا في زمن معين لا يشكل عرقلة حقيقية أمامنا ، فإذا كان تطبيق العصبية على التاريخ الشمولي ( macro history ) أمراً وارداً ، فإن تطبيقها على المجتمعات في إطار مكاني محدود ( micro - space ) مثل القرى أو المدن أمر ممكن ، بل يمتـاز بكونه يمكننا من تحديد التفاصيل الصغيرة بدقة أكثر ، وعلاوة على هذا ، نتوفر على

سابقة وهي أن موضوع الصراع العرقي في الاندلس خلال فترة دولة بني أمية قد أثار اهتمام عدد من الباحثين (4) كما يجب ان نشير الى مسألة هامة وهي أن الاندلس كانت قد أصبحت منسجمة وملتحمة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ولهذا فان اختيارنا لهذه المساحة الجغرافية بالذات خلال القرن الهجري الخامس، أمر لا يحتاج الى أي تبرير . (5)

ربما كان من الافضل لو تجنبنا استعمال مصطلح العصبيـة في مقالنا هذا، اعتباراً لارتباط هذا المفهوم بمواضيع شمولية في ميادين علم الاجتماع والتاريخ والفلسفة ولكن نظراً لعدم توفرنا على مصطلح أفضل، يمكننا أن نحدد مفهوم العصبية ونحلله في نطاق العلاقات الاجتماعية في دول الطوائف .

يجب أن نؤكد أنه خلافاً للدراسات الاخرى التي تتعلق بمفهوم العصبية بالذات والتي تهدف بلورة ومناقشة المفهوم في حد ذاته، فإننا نقبل تحديداً معيناً للعصبية مسبقاً كما نهتم على الخصوص بمناقشة حدود تطبيقه على المجتمع الاندلسي في عهد الطوائف . وبعبـارة أخرى، إذا كانت الدراسات الاخرى بابن خلدون وبفلسفته التاريخية التي يشكل مفهوم العصبية نواتها ولحمتها، فإن الهدف الرئيسي لهذا المقال ينحصر في مناقشة مكانة العصبية في المجتمع الاندلسي . صحيح إننا نعتبر العصبية مقياساً، ولكننا سنلقي الاضواء على قوى اجتماعية تفوقها أهمية . وهكذا سنركز على المجتمع الاندلسي أو على تصورنا له . ويمكن اعتبار

المنهاج الذي اتخذناه مضاداً لابن خلدون من حيث القيمة المحدودة للعصبية بصفتها آلة أو وسيلة للتحليل التاريخي للمجتمع الاندلسي خلال عهد الطوائف . إلا أن هذه النظرة ليست صائبة كل الصواب، فإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى، يصبح منهاجاً مطابقاً لتصور ابن خلدون للعصبية ولدورها في التاريخ العالمي . ألم يدع ابن خلدون بأن العصبية تضعف وتقل عند انحطاط المجتمعات الحضرية المتمدنة كما أنها تتلاشى تدريجياً وبكيفية مؤقتة مع انحطاط الدولة قبل حدوث عصبية جديدة ؟ إذا تقبلنا هذه الفرضية فإن دور العصبية المحدود في الاندلس خلال القرن الخامس الهجري يصبح أمراً طبيعياً بل ومنطقياً ، خصوصاً عند ما نعتبر أن المجتمع الاندلسي كان مشتتاً وفي انحطاط سياسي واقتصادي مستمر طوال عهد الطوائف وأن دول الطوائف شكلت نتيجة اللامركزية في الاندلس .

يدل مفهوم العصبية على شعور جماعي لدى فئات اجتماعية يربطها أصل قبلي أو جنسي مشترك أو يربطها وعي مشترك بالانتماء الى أصل قبلي مماثل ويؤثر في طبيعة علاقاتها بمجموعات أو بفئات أخرى ذات أصول مختلفة أو بباقي أفراد المجتمع . (6) ونتيجة لهذا ، فإن وجود فئة من أصل عرقي أو قبلي مماثل أو وجود فئة يجمعها الشعور الجماعي بانتماء قبلي واحد ليس شرطاً كافياً لحدوث الشعور بالعصبية، ذلك أن العصبية لا تحدث إلا عند ما يؤدي هذا الشعور الى ميدان العمل أو التطبيق إما بابتعاد الفئات الاخرى أو عبر الاصطدام

معها وذلك بحثاً عن المصالح المشتركة للفئة الاولى أو دفاعاً عن وجودها . وفي هذه المرحلة فقط ينال مفهوم العصبية دلالته الحقيقية بصفته قوة اجتماعية محركة للمجتمعات ، خصوصاً المجتمعات القبلية أو المجتمعات المنبثقة عن المجتمعات القبلية ( mes - tribal societies ) .

لا يهدف هذا الفصل الى دراسة آثار العصبية كما تعكس في الادب ، خصوصاً الشعر ، في عهد الطوائف ، بل يكمن هدفه في مناقشة وجود أو غياب العصبية على المستويين الاجتماعي والسياسي . وبعبارة أخرى ، نريد طرح التساؤل التالي : إلى أي حد تأثرت العلاقات بين مختلف الفئات العرقية بشعور الوعي أو التضامن القبلي ، والى أي درجة اعتمدت الفئات التي انعشتها قوى اجتماعية غير عرقية في حصولها على مصالح مشتركة ؟

# التركيب الاجتماعي

نجد مشاكل مختلفة أمامنا عند محاولتنا لتحديد نوع أو نمط التركيب الاجتماعي في الاندلس في عهد الطوائف . أولا ، هناك خطر تطبيق نموذج لمجتمع معين على مجتمع آخر يختلف عن الاول اختلافاً جذرياً . فعلى سبيل المثال ، اعتبر البعض أن المجتمع الاندلسي كان إقطاعياً . (7) فلقد تبنى الدكتور صلاح خالص هذه النظرية في دراسة حول الجوانب الادبية والتاريخية لاشبيلية في عهد الطوائف . (8) وهذا فعلا هو الانطباع الذي نخرج به اعتماداً على المصادر الادبية المعاصرة خصوصاً الشعر ، إلا أن خالصاً ربما اعتمد على المصادر الادبية أكثر من اللازم ودون تمحيصها اعتماداً على النقد التاريخي فتأثر بالمصادر الادبية من جهة وبمعتقداته الاديولوجية القوية من جهة ثانية . فعلى سبيل المثال ، اذا كانت الطبقة

الحاكمة قد عاشت حياة الترف والرخاء والرغد والتبذير ، فإن الصورة التي يقدمها خالص لاوضاع الفلاحين لا تعتمد برهان تاريخي قوي. وعلاوة على هذا فإن البعد الادبي يهيمن على أسلوبه وكثيراً ما يكون ذلك على حساب البعد التاريخي .

ويتجلى المشكل الثاني عند معالجة التركيب الاجتماعي في عهد الطوائف في تنوع هذا الاخير وتناقضه في مختلف أنحاء الاندلس . فإن كان التقسيم الفظيع للاندلس الى دول طائفية سياسياً في ظاهره فقد كان لذلك نتائج خطيرة على المستويين الاجتماعي والاقتصادي . بل يمكننا أن نتحدث عن التفاوت بين الدول الطائفية وبالتالي عن عدم التشابه في الاوضاع التي طبعت الحياة الاجتماعية من دولة طائفية إلى أخرى. فإذا نظرنا من الوجهة الاقتصادية إلى الحياة في إشبيلية مثلا ، وخصوصاً في المدينة التي تمتعت باستقرار وازدهار تجاري أكبر ، نجد أنها تختلف عن الحياة في المدن الاندلسية الاخرى مثل قرطبة التي شاهدت التخريب مراراً في القرن الخامس الهجري أو مالقة التي كانت أقل أهمية من الناحية الاقتصادية .

ويتضح هذا التناقض بين الدول الطائفية على مستويين . أولا ، لقد كانت الدول الطائفية مستقلة سياسياً وهذا يعني أن مواطني كل دولة طائفية خضعوا « لنظام » سياسي خاص بهم . وتتجلى أهمية هذه المسألة عند اعتبارنا للتطورات التاريخية المختلفة في الدول الطائفية في مختلف أنحاء الاندلس . فعلى سبيل المثال ،

تمتع سكان قرطبة تحت حكم بني جهور اللين بدرجة أكبر من الحرية من سكان دولة شاطب الطائفية حيث لقب الحاكم الجبار أحمد بن جراش بملك الملوك ، حتى خلعته رعيته المضطهدة (9) .
ثانياً ، اختلفت الدول الطائفية عن بعضها حيث تناقضت أحياناً بكل وضوح من حيث حجم أراضيها ومواردها الطبيعيـة وطاقتها البشرية وقوتها الاقتصادية. كما اختلفت الضغوط الخارجية على دول الطوائف في درجتها وفي شدتهـا . فعلى سبيل المثال ، بينما شكلت إشبيلية تكتلا عسكرياً مع جيش ألفونسو السادس ضد دول طائفية أخرى مثل غرناطة ، اضطرت هذه الاخيرة إلى شراء السلم حيث أدت جزية سنويـة الى الفونسو السادس وصل قدرها إلى 10.000 مثقال (10) .

ومع ذلك فالبرغم من اختلاف سكان الاندلس في القرن الخامس الهجري في مستوى حياتهم وفي تركيبهم الاثني ونظمهم السياسية الخ . . . فإنهم شكلوا مجتمعاً امتـاز بالتحام ثقافي ولغوي وتاريخي والذي كان يطبعه التكامل الاقتصادي على عدة مستويات . وكانت المواصلات بين دول الطوائف متطورة كما كانت حركة التنقل ذات أهميـة . ولم يكتف الاندلسيون بالسفر الى دول طائفية أخرى بهدف الحصول على العلم أو لممارسة تجارتهم، بل كثيراً مـا استقروا في المدن التي جلبتهم إليهـا . إلا أن المسألة التي يجب الالحاح عليهـا هي أن الاندلسيين كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً من مجتمع أندلسي واحد . ولعل ذلك من

الاسباب الرئيسية التي تفسر لماذا لم يدم تقسيم الاندلس خلال مدة أطول مما كانت عليه.

وختاماً، فبالرغم من تعدد عناصر المجتمع الاندلسي وتنوعها، فإن هذا الاخير شكل جزءاً موحداً تطبعه بنية اجتماعية شاملة.

هناك طريقتان لتصور التركيب الاجتماعي في الاندلس في عهد دول الطوائف. فيمكننا أن ندرس تصور الاندلسيين لمجتمعهم كمنطقة إنطلاق للخروج بنموذج لتركيبه الاجتماعي، أما الطريقة الثانية الاكثر واقعية فتتجلى في اعتبارنا لطبيعة المجتمع الاندلسي بعد دراسة المصادر التاريخية الاساسية قبل أن نخرج بتصور لنموذج قد يمكن تطبيقه على مجتمعات أخرى بصفة عامة إلا أن تطبيقه على المجتمع الاندلسي في عهد الطوائف خاصة أمر جائز. ثم يمكننا أن نستغل الاطار العام لهذا النموذج في تنظيم وترتيب العناصر الدقيقة الخاصة بفترة اهتمامنا. ومع هذا، فلعل الاعتماد على المنهجين هو النهج الصحيح لان كليهما يحتوي على جوانب إيجابية وأخرى سلبية، فتصور الاندلسيين لمجتمعهم يتميز بكونه يعكس درجة الوعي الاجتماعي وطبيعته في المجتمع الاندلسي حيث يمكننا أن نحلله لنخرج باستنتاجات طريفة. ومن جهة أخرى، فإن تطبيق نموذج يشكله المؤرخ يتميز بكونه يمكنه من التركيز على العناصر والعوامل الاكثر أهمية والتي قد يكون الاندلسيون أغفلوها.

كان تصور الاندلسيين للتركيب الاجتماعي في الاندلس مزدوجاً . فلقد استعملوا مصطلح الخاصة لتمييز الفئة الاجتماعية المحظوظة والتي شملت الطبقة الحاكمة والعائلات ذات النفوذ من ألاعيان والتجار والملاكين الكبار . أما باقي أفراد المجتمع من الفلاحين والعمال والعبيد والطبقة الوسطى الصغيرة فأطلق عليها إسم العامة . ومع ذلك فمن حقنا أن نتساءل عن وجود فئة اجتماعية ثالثة هي الطبقة الوسطى التي يعود تاريخ نشأتها فيما يبدو إلى ما قبل القرن الهجري الخامس . ففي دراسة ليفي بروفنصال حول المجتمع الاندلسي والتي تقف في نهاية القرن العاشر للميلاد (الرابع الهجري ) تحدث هذا المستشرق الفرنسي عن الطبقة الوسطى الاندلسية . (11) وفيما يخص عهد دول الطوائف ، هناك إشارات قوية الي عناصر الطبقة الوسطى كما يبدو أن الطبقة الوسطى الاندلسية قد وصلت الى درجة كبيرة من التطور والرشد في المراكز الحضرية حيث تميزت بدور هام في المجال الاقتصادي .

# العصبية والخاصة

كانت الطبقة المحظوظة أو الخاصة تشمل الطبقة الحاكمة التي احتكرت الحكم على المستوى السياسي والعائلات التقليدية المسيطرة ذات الثقل الكبير نظراً لثرواتها ولاعتبارها الاجتماعي الممتاز ( prestige ).

وفي إطار الطبقة الحاكمة، تمتع ملوك الطوائف دون غيرهم بدرجة كبيرة من السلطة حيث فرضوا نفوذهم بطريقة مطلقة بواسطة فئة أو طائفة سياسية صغيرة . لقد اختلفت درجة السلطة التي تمتع بها ملوك الطوائف حسب أهمية الدولة الطائفية التي ترأسوها ، ولكن هناك عدداً من العناصر المشتركة التي ميزت الطبقة الحاكمة في جميع الدول الطائفية نظراً لتشابه الاسباب أو الدوافع العامة التي أدت إلى وجودها ونظراً لتشابه العناصر التي قررت طبيعة توجيه سياستهم .

كانت الخاصة تتميز بحياة البذخ والثراء[1] . فعلى سبيل المثال ،

بني ملوك الطوائف قصوراً فخمة كما تمتعوا بحياة الرخاء في بلاطاتهم حيث ألهمتهم الحياة التي تمتع بها حكام بني أمية . ويظهر ذلك جلياً في بلاط إشبيلية حيث التحق عدد من أبرز الشعراء في الاندلس بإشبيلية، كما برز حكام بني عباد في ميدان الشعر (12) واشتهرت بلاطات إشبيلية حيث نجد عدداً كبيراً من الاشارات إليها في الابيات الشعرية المعاصرة . وكانت المنافسة شديدة بين ملوك الطوائف، خصوصاً الاقوياء منهم، لجلب أشهر الشعراء، لان المدح كان يشكل وسيلة دعائية بالغة الاهمية . ومن جهة أخرى، حاول الشعراء الحصول على القبول في أقوى الدول الطائفية، لان ذلك يعني ضمان مكافأة أعظم كما كان يعني في بعض الحالات ضمانة وسيلة للصعود الاجتماعي . كان الشعر العربي يعتبر أرقي شكل للتعبير الادبي وأكثرها اعتباراً لدى ملوك الطوائف وذلك كيفما كان أصلهم أو انتماؤهم الاثني وحتى الضعفاء من ملوك الطوائف الذين لم تتوفر لديهم الامكانيات المادية الضرورية لجلب الشعراء، دونوا الشعر وتذوقوه. ولعل أبرز مثال لذلك هو حاكم غرناطة ذو الاصل البربري، عبد الله بن بلقين الذي عبر عن تذوقه للادب العربي كما نقل أبياتاً شعرية مراراً في مذكراته التي كتبها خلال فترة منفاه في المغرب بعد احتلال يوسف بن تاشفين للاندلس (13) .

لا نجد أثر العصبية لدى طبقة الخاصة في الاندلس سواء نظرنا إلى علاقات الاعضاء المحظوظين للمجتمع في دولة طائفية معينة فيما بينهم أو مع الاعضاء المحظوظين في دول طائفية أخرى . لقد كانت

طبقة الخاصة تتكون خلال عهد الطوائف من عناصر جنسية مختلطة لان المجتمع الاندلسي أصبح ملتحماً حيث اندمجت فيه جميع العناصر العرقية من العرب والبربر والصقالبة والإسبان ، كما اختلف التركيب الاثني من دولة طائفية لاخرى ، فعلى سبيل المثال ، كانت الخاصة في إشبيلية معربة تعريباً كلياً ، كما كان معظم سكان إشبيلية من أصل عربي وإسباني (14) . أما في غرناطة ، فكانت أغلبية الطبقة المحظوظة من أصل بربري (15) ، بينما أغلبية سكان المرية من الصقالبة ، ولكن بالرغم من سيطرة مجموعة اثنية معينة في كل دولة طائفية ، لم تتكون طبقة الخاصة في دول الطوائف عموماً من مجموعة عرقية دون غيرها لان أساس وحدتها لم يقتصر على نوعية الاصل القبلي . بل كانت الخاصة تجتمع على مقياس المصلحة المشتركة ، وفي عدد من الحالات ، نجد أن الاصطدام بين أعضاء الخاصة كان في الاساس بين شخصين ذوي ارتباط دموي قريب الامر الذي يشير إلى أن مفهوم الشعور بالعصبية كان غريباً عن هذه الطبقة المحظوظة . فعلى سبيل المثال ، نجد صراعات بين الاقارب للحصول على الحكم في عدد من الدول الطائفية ، فحاول إسماعيل ، ابن المعتضد بن عباد ، في إشبيلية أن يقوم بانقلاب ضد أبيه، الامر الذي أدى إلى اغتيال المعتضد لابنه بنفسه وقد وصلتنا رسالة شرح فيها المعتضد الدوافع التي دفعته إلى القيام بهذه الجريمة الفظيعة (16) ، وفي قرطبة ، ضم الصراع من أجل الحكم خلال الفترة الاولى من عهد الطوائف كلاً من علي بن حمود وأخيه القاسم بن حمود (17) ،

وألقي القبض في نهاية المطاف على القاسم بن حمود حيث سجنه قريبه يحيى بن حمود حاكم مالقه آنذاك (18) ، ويصف عبد الله بن بلقين كيف تمرد يدير على جده باديس في غرناطة إلى أن كشف شيخ اسمه فرقان الخطة التي حاول يدير أن يرشيه ليشاركه في تنفيذها (19) ، وفي طليطلة ، كان انشغال أعضاء عائلة بني ذي النون في الصراع من أجل الحكم من أهم العوامل التي سهلت على الفونسو السادس ممارسة ضغوطه على طليطلة ثم احتلالها .

وكان تدبير المكائد من مميزات بلاطات ملوك الطوائف ، فعلى سبيل المثال ، إن العداوة بين اعتماد زوجة المعتمد وابن عمار شاعره المفضل معروفة ، كما ترك لنا عبد الله بن بلقين وصفاً دقيقاً للمكائد التي كانت تدبر في غرناطة (20) .

ونتيجة لهذا ، فإن الصراعات من أجل الحكم في دول الطوائف لم تنعشها العصبية بصفتها قوة محركة ، ولعل أمثال الأقرباء الذين اصطدم بعضهم مع البعض الآخر لاغراض سياسية أحسن مبرر لهذه الحقيقة . ومع ذلك فإن بعض الامثلة تشير إلى عكس ذلك في ظاهرها ، لنأخذ قضية حالة القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد وهو عربي حيث قاد مجموعة تضم أبرز الاهالي الاشبيليين ضد حكم القاسم ابن حمود سنة 414 هـ . ـ 1023 م . (21) ، كان القاسم قد ترك ابنه محمداً على رأس إشبيلية عندما فرض حكمه على قرطبة . وبعد الاطاحة الثانية بحكم القاسم بن حمود هرب هذا الاخير إلى إشبيلية ولكن القاضي بن عباد الذي ثار على محمد بن حمود ، منعه من

الدخول إلى المدينة . تبدو هذه القضية في ظاهرها كأنها ثورة عربية ضد حاكم بربري وقد يغرينا تفسيرها بالعصبية بصفتها قوة اجتماعية هامة وراء هذه الثورة ، إلا أن هناك عنصرين يبطلان هذا الرأي .

أولا ، لم تنجح هذه الثورة إلا بفضل المساندة التي قدمها قائد جيش محمد بن حمود . القائد محمد بن زيري بن دوناس للقاضي بن عباد وللزعماء الاشبيليين الذين ساندوا القاضي بن عباد وذلك مقابل اختيار بن دوناس كحاكم على إشبيلية بعد هزم حكام بني حمود (22) ، فالامر يتعلق بقائد عسكري بربري تحالف مع القاضي ابن عباد وهو عربي الاصل ضد حاكم بربري هو محمد بن حمود ، ولكن بمجرد انتهاء الخطر الذي شكله حكام بني حمود على القاضي ابن عباد ، ألقي هذا الأخير القبض على القائد ابن دوناس الذي لم يطلق سراحه إلا بشرط مغادرة الجيش الذي كان يترأسه لاشبيلية بكيفية نهائية (23) ، ولعل المسألة الهامة التي يجب علينا أن نسجلها في إطار مناقشتنا هذه هي أن هذا التمرد لم يكن تمرداً عربياً محضاً ذلك أن مشاركة القائد البربري كانت ضرورية لضمان نجاحه .

ثانياً ، لم تكن العصبية هي القوة السياسية المنعشة لهذا التمرد ، بل لعب الطموح الشخصي دوراً رئيسياً فيها ، فبعد نجاح مفاوضات القاضي ابن عباد بشأن إطلاق سراح محمد بن حمود بشرط أن يتنازل بن حمود على حكمه في إشبيلية وبعد طرد القاضي ابن عباد لابن دوناس وجيشه من إشبيلية ، قام بتصفية الزعماء الاشبيليين الآخرين ثم

فرض نفسه حاكماً على إشبيلية (24) .

ويعود سبب غياب العصبية في الصراعات من أجل الحكم وفي العلاقـات الداخلية لدى طبقة الخـاصة في دول الطوائف إلى هيمنة قوى أخرى ذات أهمية أكبر .

# العصبية والعامة

إن وجود العامة كطبقة اجتماعية في عهد الطوائف أمر مؤكد ولكن المصادر لا تعطينا التفاصيل اللازمة لتكوين تصور دقيق لهذه الطبقة ، ولهذا فإن تصورنا لطبقة العامة الاندلسية في عهد الطوائف يرتكز على مصادر ضعيفة كما أن استنتاجاتنا الحالية مبنية على الاستدلال غير المباشر إلى حد بعيد .

كانت العامة الاندلسية من نوعين ، الطبقة الاجتماعية الكادحة في الارياف وتلك الموجودة في المراكز الحضرية ، ولعله من الصعب تحديد أيهما كانت أكثر تشرداً ، لان كلتيهما كانت غير محظوظة ، ومع ذلك ربما كانت الحياة في الارياف أكثر قساوة نظراً لامتياز المدن باستقرار أكثر وبدرجات مختلفة من الازدهار الصناعي والتجاري ، ومن جهة أخرى . لم تكن أحوال الجماهير الشعبية

الاندلسية أسوأ من أحوال الجماهير الشعبية في المغرب أو في شمال الجزيرة الايبيرية المسيحي حيث كان أقل إنتاجاً اقتصادياً وأقل ازدهاراً تجارياً ودون طاقة فلاحية مماثلة لما كانت عليه الاندلس، ولقد كان الازدهار الاجتماعي والاقتصادي العام في الاندلس فعلا أحد العوامل الرئيسية التي دفعت الفونسو السادس إلى اتخاذه سياسة جديدة متعسفة مع دول الطوائف كما دفعت يوسف بن تاشفين إلى احتلالها بعد أن أنقذها من العدو المسيحي (25) .

كانت علاقات العامة بالطبقة الحاكمة يطبعها ميل عام إلى الاستسلام عبر جميع أنحاء الاندلس (26) وكانت العامة لا تملك أدنى درجة من الوعي السياسي، وكانت نتيجة ذلك أنها لم تشارك في عملية اتخاذ القرارات السياسية أو في تنفيذها مع أن العامة شملت الاغلبية ، وذلك من الاسباب التي أدت بالطبقة الحاكمة إلى تلبية حاجيات العامة إلى أدنى درجة ، يعني ، حتى لا تثير غضبها فيؤدي ذلك إلى هيجان جماعي ، ومع ذلك فقد صاحب الاستسلام العام لدى العامة فيما يخص تحقيق مصالحها ، انفجارات عنيفة دورية في مختلف أنحاء الاندلس ، وتدل هذه الانفجارات على درجة معينة من القلق الاجتماعي مع أنها كانت تستغل في غالب الاحيان من طرف أشخاص بهدف إنعاش وتحقيق طموحاتهم الشخصية ، ونذكر في هذا الصدد مثال قرطبة التي خربت نتيجة الصراعات المسلحة الداخلية من أجل الخلافة بعد سقوط عبد الرحمن بن أبي عامر سنة 399 هـ . ـ 1008 م . والتي بلغت أوجها عند انفجار العنف الشعبي الذي أدى

إلى فرض حكم أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور على قرطبة سنة 422 هـ - 31 - 1030 م (27)، ومن جملة الامثلة الثورة الشعبية في غرناطة خلال حكم باديس جد عبد الله بن بلقين والتي جاءت نتيجة الظلم الذي مارسه الوزير اليهودي القوي يوسف بن النغرالة ابن الوزير إسماعيل بن النغرالة حيث أدت هذه الثورة إلى اغتيال هذا الأخير من طرف عامة غرناطة (28). وفي إشبيلية، حدث نزاع بين مسلم ويهودي في السوق أدى إلى سجن المسلم وإلى ردود فعل شعبي (29).

كانت الدولة تشكل عبئاً ثقيلا على كاهل المجتمع الاندلسي الذي خضع لضرائب ثقيلة ومتزايدة وكان هذا الحمل أثقل على العامة منه على غيرها. وتعود أسباب هذه الضرائب في دول الطوائف إلى أسباب داخلية وخارجية. فمن جهة، حافظت الحكومات في دول الطوائف على إدارتها الخاصة وجيوشها ومتطلبات أخرى للدولة يفرض تسييرها والمحافظة عليها وجود دخل منتظم جاوزت قيمته دخل دول الطوائف عامة. ومن جهة أخرى، دفع النهب المستمر والهجومات العسكرية بين دول الطوائف ثم أموال الجزية التي فرضها الملوك المسيحيون في شمال الجزيرة الايبيرية على دول الطوائف بما فيها أقواها مثل إشبيلية أو طليطلة، كل ذلك دفع ملوك الطوائف إلى فرض الزيادة في الضرائب كوسيلة لمواجهة الضغوط الخارجية أو على الاقل لحصرها مؤقتا. وساهمت هذه الضرائب اللاشرعية الثقيلة في اثارة السخط لدى العامة حتى أصبح الاحتجاج على ملوك الطوائف

شائعاً في الاندلس كلها في نهاية عهد الطوائف ، اعتبر يوسف بن تاشفين الضرائب اللاشرعية الثقيلة مبرره الاساسي لاحتلال دول الطوائف كما ساندته الجماهير الاندلسية في ذلك مساندة تامة وذلك بتحريض من العلماء والفقهاء (30) ، ولكن إذا كانت هذه الضرائب الثقيلة قد أدت إلى اضطراب وقلق اجتماعي في عهد الطوائف (31) ، فإن الموقف العام في الاندلس ظل موقفاً استسلامياً حتى جاء الانفجار النهائي الذي أدى إلى احتلال يوسف بن تاشفين للاندلس .

- شكلت العامة جزءاً لا يتجزأ من النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي استفادت منه طبقة أخرى أكثر من غيرها وهي طبقة الخاصة . إذن ، لماذا تقبلت العامة مصيرها باستسلام تام وهل كان للعصبية بصفتها قوة اجتماعية تأثير في علاقات العامة الاجتماعية ؟ كما قلنا سابقاً ، إن المصادر الأولى لا تمنحنا ما نتمناه من معلومات حول المجتمع الاندلسي في عهد الطوائف ولكن هذا الفراغ أكثر حدة فيما يخص العامة إما لأن الدور القيادي للعامة كان محدوداً ، أو لأن المؤرخين المعاصرين والمتأخرين اعتبروه كذلك أو لكلا السببين، وفي إطار العصبية يشير الاستسلام المفرط للعامة إلى غياب وعي جماعي وهو شرط أساسي لوجود العصبية . إذن ، لماذا اتخذت العامة هذا الموقف السلبي والمستسلم ؟ .

- لم تتأثر أي من العلاقات الاجتماعية لدى العامة ولا علاقات الجماهير الاندلسية مع باقي المجتمع بالعصبية خلال عهد الطوائف .

- أصبحت العامة تشكل جزءاً من مجتمع ملتحم مع أنها كانت

تضم مجموعات إثنية متعددة ، ولا يمكننا أن نحدد درجة العصبية لدى العامة إلا بعد طرح السؤال التالي : هل كانت المجموعات المختلفة يتحد بعضها ضد الآخر أم أنها كانت تتعايش في سلام مع احتفاظ كل منها بخصائصه ، أم أنها ذابت في إطار مجتمع ملتحم من الناحية الاثنية ، لقد كان الزواج بين مجموعات مختلفة يمارس على نطاق واسع في الاندلس خلال القرن الهجري الخامس ، إلا أن المجموعات الاثنية المختلفة تعايشت مع محافظتها على شخصيتها ، وفي عدد من الحالات ، نجد تطابقاً دينياً وثقافياً وتربوياً مع اختلاف في اللغة .

ففي غرناطة ، كانت الاغلبية من العامة من أصل بربري ، كما كانت أغلبية السكان في المرية من الصقالبة (32) ، بينما أغلبية الاشبيليين من أصل عربي وإسباني ، وعلاوة على هذه المجموعات الاثنية المدينة بالاسلام ، ضم المجتمع الاندلسي جاليتي المسيحيين واليهود ، وفي إطار العصبية في الاندلس . فإن المسألة التي تهمنا بالدرجة الاولى ليست.. هل اصطدمت هذه المجموعات مع بعضها ؟ هل قامت بذلك بناءً على وعيها بالانتماء القبلي ، حيث إننا نجد أسباباً أخرى فيما يخص الاصطدامات التي شاركت فيها العامة .

كان سلوك العامة في الاندلس في القرن الخامس للهجرة يبدو أحياناً وكأنه محرك ومنعش بالعصبية ، إلا أن دوافع أخرى خفية أو ظاهرة كانت دائماً حاضرة ، فعلى سبيل المثال ، يبدو قتل عامة غرناطة للوزير اليهودي يوسف بن النغرالة حالة للكراهية العرقية والعنصرية ، إلا أن سبب سقوطه يعود في الحقيقة إلى احتكاره

للسلطة السياسية ولاعماله الاستبدادية ولمكائده الخبيثة (33) .

إن عامة غرناطة لم تثر ضد أبيه إسماعيل بن النغرالة الذي شغل منصب وزير مع باديس الزيري حاكم غرناطة حيث إنه فرض احترام الجميع له بفعاليته وكفاءته الادارية (34) ، لقد كانت الضرائب الثقيلة سبب ثورة ليوسنة علي الامير عبد الله بن بلقين (35) ، أما الثورة الشعبية فى قرطبة التي أدت إلى فرض يحيى بن جهور حاكماً عليها ، فقد اعتبرها البعض رد فعل القرطبيين المعربين ضد جيوش البربر. ومع ذلك فقد كانت هذه الثورة عبارة عن انفجار اجتماعي ناتج عن النهب المستمر الذي خضعت له قرطبة نتيجة الصراعات من أجل السلطة التي تعود بدايتها إلى سقوط عبد الرحمن بن أبي عامر .

يبدو أن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للعامة فى عهد الطوائف هي التي حددت طبيعة وجودها وسلوكها ومواقفها ثم علاقاتها الاجتماعية إلى درجة أنها غطت على أي وعي جماعي محتمل بشعور الانتماء القبلي أو العرقي بصفته قوة اجتماعية . وكانت العامة من الناحية العرقية ، تنتسب في أغلبيتها إلى أصل إسباني لان السكان الاوائل فى شبه الجزيرة الايبيرية اعتنقوا الاسلام فى أغلبيتهم فاندمجوا في مجتمع إسلامي تطبعه اللغة العربية ، وإذا كانت العصبية تطبع العلاقات بين العرب والبربر المنتمين إلى الخاصة والذين حافظوا على سلوكهم وعقليتهم القبلية خلال القرون الثلاثة من الوجود الاسلامي في الاندلس ـ مثلا في الجيش أو في الطبقة الحاكمة ـ فإنه حقاً من الصعب أن ندرى كيف تمكن هذا الوعي بالانتماء

القبلي من أن يدخل بنجاح وفعالية في المجتمع الاسباني الحديث العهد بالاسلام ، خصوصاً وأن هذا المجتمع تطور إلى ذلك الوقت في خط المجتمع الاقطاعي في عهد الويز قوت ، هناك احتمالان يشيران إلى غياب العصبية لدى العامة الاندلسية .

أولا ، هناك تأثير النظام الاقطاعي السابق من عهد الويز قوت الامر الذي يشير تاريخياً إلى أنه لم يكن من طبيعة عقلية العامة الاندلسية أن تتقبل العصبية .

ثانياً ، لقد ساهم التصور المثالي للامة الاسلامية في تدعيم وتشجيع الالتحام الاجتماعي بدلا من الصراع ، أو على الاقل ، لقد أعطى للصراع طابعاً ومبرراً دينياً وليس قبلياً .

ثالثاً ، لدينا ملامح العامة الاجتماعية والاقتصادية التي أنعشت نموذج علاقاتها الاجتماعية .

# العصبية والطبقة الوسطى

لقد كان للطبقة الوسطى المتمدنة في الاندلس نشاط هام ودور منتج في المجتمع، كما قامت بدور المحافظة على التوازن بين الخاصة والعامة حيث ساهمت في تقليص التناقضات بينهما. لقـد ملأت الطبقـة الوسطى الفـراغ الموجـود بين الطبقتين الاجتماعيتين المتطرفتين الاخريين بحيث خففت التناقضات بين الفئتين الاجتماعيتين الاكثر والاقل امتيازاً، فأصبح اصطدامهما أقل خطورة لكونه غير مباشر. وساهم ذلك في حصر الضغوط الاجتماعية والتقليل منها مع أنه لم يقض عليها نهائياً. وقبل تطرقنا للطبقة الوسطى مباشرة ربما كان من المستحسن أن نقدم نظرة عامة للخلفية الحضرية في الاندلس خلال عهد الطوائف حتى نبرز نموها الحضري وسوف نستطيع آنذاك أن نكون فكرة واضحة عن الطبقة الوسطى وأن نقيم دورها الحقيقي.

لقد تميز المجتمع الاندلسي بطابع حضري وريفي معاً حيث إن الطابع الاول أكمل الثاني. إلا أن المدن التي ضمت الاراضي المجاورة لها لتتحول الى دول طائفية، كانت تشكل الارضية التي انطلق منها النشاط الاجتماعي. فقامت المدن بأدوار متعددة كضمانة المأوى والامن وحماية السكان من العنف والسلب والنهب الشائع آنذاك.

ولكن إذا كانت الحياة صعبة وغير قارة في المدن الاندلسية في عهد الطوائف فإنها كانت أكثر خطورة في البوادي حيث أصبحت الحياة فيها في بعض الحالات مستحيلة، لذلك جلبت المدن الاندلسية سكان البوادي لاسباب متعددة وعلى رأسها الأمن، كانت المدن عادة محمية بالاسوار بحيث يستحيل على العدو أن يتجاوزها إلا إذا خدع خصومه فيدخل المدينة عنوة أو بعد المفاوضة. ونجد أمثلة لعدد من مثل هذه الحالات خلال عهد الطوائف، فبهذه الكيفية سقطت قرمونة في يدي القاضي بن عباد ومحمد البرزالي عند احتلالها من طرف يحيى بن حمود. (36) كما خدع المعتمد بن عباد ابن جهور فدخل الجيش الاشبيلي الى قرطبة واحتلها سنة 463 هـ. ـ 1070 م. بعد قيامه بالدفاع عنها ضد المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة. (37) وفشلت جيوش قشتالة في خرق أسوار طليطلة ولم تسقط هذه الاخيرة إلا بعد استسلام القادر بن ذي النون وتخليه عن المدينة مقابل أمنه وأمن عائلته. (38) وحصل نفس الشيء عند استسلام بلنسية للسيد القمبياطور كودريغو

دييات . (39) وأمثلة المدن التي دافعت عن نفسها بسبب قوة مقدرتها الدفاعية كثيرة ، فعلى سبيل المثال ، لم يستطع القاسم بن حمود أن يدخل إشبيلية عند طرده من قرطبة سنة 414 هـ . ـ 1025م . بالرغم من وجود ابنه محمد داخل أسوار المدينة . (40) ولم ينجح المعتمد بن عباد في احتلال مالقة بحيث طرد جيشه من طرف جيش باديس الزيري الذي أتى ليستنجد به أهل مالقة . (41) كما تخلت جيوش يوسف وبعض ملوك الطوائف عن حصارها لحصن ليبط سنة 481 هـ . ـ 1088 م . بعد أربعة أشهر خصوصاً بعد أن توصلت بأخبار مفادها أن الفونسو السادس كان في طريقه لانجاد هذا الحصن المسيحي المحاصر (42) ومع ذلك فهذا لا يدل على أن الاستيلاء على المدن الاندلسية كان مستحيلا . بل هناك عدد من الامثلة التي تثبت عكس ذلك . وما تاريخ دول الطوائف إلا تاريخ الكفاح المسلح المستمر إذ كثيراً ما تغير الحكام على رأس الدول الطائفية . ومع ذلك ، كانت المناطق الريفية أكثر خضوعاً وتعرضاً للتخريب خاصة نتيجة الحملات العسكرية التي نظمتها دول الطوائف بعضها ضد البعض وحملات الحكام المسيحيين من الشمال .

وعلاوة على الأمن ، فإن التجارة والصناعة والتعليم من أهم الخصائص التي ميزت المدن الاندلسية ومع ذلك لا يمكن فصل الازدهار الاقتصادي للمدن عن البادية نظراً لاهمية الأنشطة الفلاحية . وكانت مختلف وسائل المواصلات تربط بين المدن الاندلسية . فعلى سبيل المثال ، لم يستغرق التنقل الى جميع أطراف دولة

إشبيلية الطائفية إلا بضعة أيام ، (43) والانهار ، علاوة على دورها في الري ، كانت ذات أهمية بالغة كوسيلة للنقل . (44) وزيادة على ذلك كان عدد القرى في المناطق الريفية كبيراً حيث نجد ما يقرب من إثني عشرة ألف قرية . (45) ومن منتوجات الاندلس الفلاحية الزيتون واللوز والرمان والبرقوق والموز والتين في أنواع مختلفة . (46) وإلى جانب ذلك ازدهرت منتوجات كانت تستخرج من النبات كالعطور وأخرى كالتوابل مثل الزعفران. (47) واعتبرت المعادن من أهم الثروات الطبيعية التي جادت بها أرض الاندلس، فمنها الفضة في منطقة قرطبة بينما كان يتم تحويل الرمال في مدينة لبلة الى زجاج . (48) وبالنسبة للرخام فكان يستخرج من عدة مناطق ، فمثلا في قرطبة وجد الرخام الابيض والاحمر ، أما الرخام الاسود وهو أقل قيمة من سابقيه فتعددت نواحيه . (49) وزيادة على ما ذكر اشتهرت مواد ومنتوجات أخرى كالخشب والصباغة التي غلب عليها اللون الاحمر خاصة . ومن منتوجات النسيج ثوب حريري ملون عرف باسم المبلد كما كان يصدر الى المشرق زليج ملون ولامع عرف باسم الزليجي . (50) وفي إشبيلية عرفت المنتوجات المعدنية شهرة واسعة ضاهت الشمال المسيحي ومن جملتها صناعة الاقواس والرماح والسهام بالاضافة الى صناعة السرج المزينة . (51)

وساهمت هذه المنتوجات وغيرها في إنعاش الحركة التجارية في المدن الاندلسية من جهة وبين الاندلس وكل من المغرب

والمشرق ثم الشمال المسيحي من جهة ثانية. وكان التعليم من بين أهم الاسباب التي جعلت المدن تجلب الناس إليها فبينما حافظت قرطبة على مركزها الثقافي القيادي ساهمت مدن أخرى مثل إشبيلية في تكوين الفقهاء والادباء، الخ... (52)

لقد شكلت الطبقة الوسطى جزءاً هاماً من المجتمع الاندلسي، إلا أن خصائصها اختلفت في مختلف أنحاء الاندلس باختلاف الاوضاع الجغرافية والطاقة الاقتصادية وازدهار المدن الاندلسية، ثم مستوى الحياة وأساليبها، فعلى سبيل المثال، يجب التفريق بين المدن الكبيرة في الدول الطائفية مثل إشبيلية وبطليوس وطليطلة وبين المدن الصغيرة مثل رندة وأركوش وشلب وقرمونة، وازدهرت الطبقة الوسطى ازدهاراً كبيراً في المدن الكبرى نظراً لكونها كانت أكثر حركة كما كانت تتوفر على فرص أكثر لتحسين مستوى العيش وللصعود الاجتماعي كما كانت المدن الكبرى أكثر استقراراً وأمناً وهذا هام جداً خصوصاً خلال فترة تتصف بالصراع والاصطدام المستمر بين الدول الطائفية على مستوى وبين الاندلس بأكملها ومملكة ليون وقشتالة ثم المغرب فيما بعد، على مستوى ثان.

وكانت الطبقة الوسطى متنوعة التركيب من الناحية الاثنية شأنها في ذلك شأن باقي المجتمع الاندلسي الذي اختلفت عناصره الاثنية كما اختلفت نسبة توزيعها عبر مختلف أنحاء الاندلس، وبعبارة أخرى، كانت الطبقة الوسطى طبقاً للنمط العام للمجتمع

الاندلسي تتكون من عدة عناصر إثنية مع أنها كانت ملتحمة .
وأهم من ذلك، لقد كان تناقض الطبقة الوسطى الاندلسية في مختلف المدن كبيراً فيما يخص حركتها وقدرتها على الانتاج ونوعية انتاجها وطبيعة نشاطها الاقتصادي ومستوى حياتها وتأثير العناصر الاقتصادية في أسلوب حياة الطبقة الوسطى ومطامحها، فعلى سبيل المثال، لقد أدى الاستقلال السياسي لدول الطوائف الى اتخاذ كل منها حكومته وإدارته الخاصة. وحاول ملوك الطوائف توسيع هذه الادارة حتى يتخذوا لانفسهم مظهر حكام حقيقيين فجندوا عدداً كبيراً من الاطر من الطبقة الوسطى لتحقيق هذا الهدف. كان للادارة دور هام في إطار النظام السياسي في الدول الطائفية الكبرى مثل إشبيلية ويتضح هذا جلياً في العدد الكبير من الموظفين السامين خصوصاً الوزراء والقضاة والكتاب، وقد قام مؤلفون معاصرون بدراسة هؤلاء الموظفين حيث ركزوا على أبعادهم الادبية والدينية كما يعثر المؤرخ الحديث على إشارات الى هؤلاء الموظفين مع افتقار الى المعلومات المفصلة حول أرضيتهم الاجتماعية ومهامهم الادارية. ومع هذا، فإن العدد الكبير للموظفين السامين في النظام السياسي في الدول الطائفية الكبيرة والقوية يشير الى وجود عدد أكبر من الموظفين الصغار الذين نفذوا قرارات الموظفين السامين وبرامجهم ولابد أن يكون أعضاء الطبقة الوسطى قد شكلوا عنصراً لا يستغنى عنه للقيام بهذه الوظيفة. ومن جهة أخرى، لقد كان لمواقع الدول الطائفية الجغرافية تأثير

عظيم على الطبقة الوسطى وأنماط حياتها. فلم تحقق أية دولة طائفية الازدهار الذي حققته إشبيلية نتيجة عدة عوامل منها الاراضي الخصبة في غرب الاندلس وارتباطها التجاري بأنحاء أندلسية أخرى وبغيرها ثم الثروات التي تراكمت بوسائل مختلفة كالغنائم. وعلاوة على ذالك، لم تساعد الاراضي الصغيرة والاوضاع الجغرافية القاسية بعض دول الطوائف على النمو ومنها غرناطة الواقعة في منطقة جبلية. أما الطبقة الوسطى في المدن المزدهرة فقد كانت أكثر نجاحاً لان المدن كانت تجلب الموهوبين من جميع أطراف الاندلس وذلك لأسباب تجارية وتعليمية وسياسية.

لم يصلنا أي أثر لدور العصبية في تقرير طبيعة العلاقات الاجتماعية لدى الطبقة الوسطى خلال عهد الطوائف ويمكننا أن نذكر عدة عناصر لتفسير غياب العصبية هذا. فخلافاً للخاصة، لم تأخذ الطبقة الوسطى زمام السلطة والحكم وخلافاً للعامة، لم تشكل الطبقة الوسطى الاندلسية طبقة مسحوقة في القرن الهجري الخامس. لذلك كانت آمالها وطموحاتها للصعود الاجتماعي موضع المصداقية. ومن جهة أخرى، كانت الطبقة الوسطى نشيطة جداً في القطاع التجاري والاداري بحيث لم تؤثر التقلبات السياسية خلال القرن الخامس الهجري مباشرة فيها كما كان شأن الخاصة والعامة، كما كانت العلاقات بين الطبقة الوسطى وكل من الخاصة والعامة أقل اصطداماً الامر الذي نقص أو حصر تشجيع إنعاش العصبية نحو

المجموعات الاثنية الاخرى سواء كانت أقل مركزاً أو أعلى مركزاً اجتماعياً.

ومع ذلك، فبالرغم من تناقضاتها، كانت الطبقة الوسطى تتصف بدرجة معينة من الانسجام الناتج عن الاسس الاقتصادية المشتركة للمجتمع الاندلسي. لذا يحق لنا أن نتصور التنوع الاثني للطبقة الوسطى الاندلسية في نطاق الوحدة الاجتماعية الشمولية، الأمر الذي يدفعنا الى طرح مسألة العصبية والعلاقات الاجتماعية لدى الطبقة الوسطى.

ربما كان الشرح الرئيسي لتفسير مكانة العصبية في العلاقات الاجتماعية لدى الطبقة الوسطى هو أن المجموعات الاثنية التي تعتبر ضمن هذا الصنف بسبب نشاطها الاقتصادي ومستوى معيشتها أو مركزها الاجتماعي كانت منكبة على نشاط منافس بحيث كان هدفها الاساسي تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، ولكن طبيعة أنشطتها في إطار الطبقة الوسطى كان تكميلياً وليس صراعـاً، فعلى سبيل المثال، كانت الانشطة التجارية تتطلب ممارسة علاقات طيبة مع كل من من شأنه أن يقدم أعظم المنافع وأدنى الاثمان وأعلى الارباح ويلبي مطالب السوق إلخ . . . ويعني هذا أن التجار كان مفروضاً عليهم أن يتعاملوا مع تجار آخرين من أصول إثنية مختلفة من مدينتهم أو دولتهم الطائفية أو أنحاء أندلسية أخرى أو المغرب. وفي الادارة، كانت المنـافسة لاحتكار أو لتحسين وضعية الافراد والمجموعات كثيراً ما تتطلب التعاون

بين أشخاص مختلفين من أصول إثنية مختلفة . وهذا لا يعني أن المجموعات من أصل إثني معين لم تتعامل بهدف تحقيق أهداف وأغراض معينة ، ولكن السؤال الذي يجب طرحه في إطار مناقشتنا: هو هل كان محركها الاساسي هو الوعي الاثني الجماعي ؟ وهل كان ذلك موقفاً معادياً للمجموعات الاخرى من أصل عرقي مختلف؟ بل لعل مجرد قبولنا لفكرة الطبقة الوسطى يؤكد حقيقة هامة وهي أننا نتوفر على مقاييس لتمييزها ولتحديد طبيعتها مثل الاوضاع الاجتماعية المشتركة ومستوى المعيشة والمركز الاجتماعي والانشطة الاقتصادية . وتختلف كل هذه المقاييس عن المقاييس الاثنية ؛ ومع ذلك ، فإن وجود الطبقة الوسطى ليس معبراً عنه على مستوى الوعي الجماعي بالانتماء الى طبقة خاصة ولهذا فإن تطور الوعي الطبقي كقوة اجتماعية لتحقيق مطامح مشتركة أمر لم يحدث حسب المفهوم العصري .

شكلت النخبة الثقافية والدينية المنتمية في أغلبيتها الى الطبقة الوسطى مجموعة ضغط هامة في المجتمع الاندلسي . ونظراً لتنوع الاصول الاثنية للفقهاء حيث إنهم شكلوا جزءاً من مجتمع ذي عناصر متنوعة فيهمنا أن نبحث عن وجود أو غياب الشعور بالعصبية عند هذه الفئة . لا يمكننا اتخاذ أية مناقشة حول العلماء دون اعتبار الارضية الاديولوجية التي عاشوا فيها والمذهب الفقهي المسيطر نظراً لهيمنة المذهب المالكي الذي أصبح مذهباً رسمياً في الاندلس منذ سنة 170 هـ . ـ 783 م (53) ، طبق معظم الفقهاء مذهب مالك مهما

كانت انتماءاتهم الاثنية ، ولم يشكل وجود الحركات المذهبية الانفصالية في الاندلس في عهد الطوائف مثل المذهب الظاهري الذي أحياه علي بن حزم خطراً على مذهب مالك . (54) كما أن العصبية لم تكن سبب معارضة ابن حزم لملوك الطوائف وانحرافه عن مذهب مالك . لذلك فإنه من العبث أن نبحث عن العصبية بصفتها أساس مذهب ابن حزم الظاهري كما أنه من العبث أن نبحث عنها لدى النخبة الدينية لان اتحاد هذه الاخيرة كان مبنياً على أساس عقدي وليس على مبادىء عرقية . وبامكاننا مناقشة أصول الفقهاء حسب أسمائهم ولكن ذلك سوف يواجه صعوبتين :

أولا ، إن مجرد أسمائهم ليست كافية لاثبات انتمائهم العرقي.

ثانياً ، إن أصلهم وانتماءهم الاثني لا يثبت بالضرورة وعيهم بهذا الانتماء كما أنه لا يثبت عملهم الجماعي على أساس وعي عرقي جماعي .

لقد بالغ عدد من المستشرقين في أهمية الحركات المعارضة في الاندلس ولم نشاهد التركيز على المذهب المالكي وآثاره الاجتماعية في الاندلس ثم معالجته بطريقة موضوعية إلا حديثاً . (55) وفيما يخص القرن الهجري الخامس فلقد عولج حديثاً الدور الاجتماعي للعلماء وتأثيرهم في المجتمع وذلك انطلاقاً من زاوية غير زاوية الصراع العرقي (56) فلا يمكن لنا أن نوضح الارضية الحقيقية للعلماء ونعتبر الحركات المعارضة في مكانة ثانوية إلا بعد رفض اعتبار

المذهب المالكي مذهباً رجعياً وقوة تعسفية. ونطرح بعد ذلك سؤالا، هو : هل ساند الفقهاء الاندلسيون ملوك الطوائف أم عارضوهم؟ وعلى أي أساس ؟ إن الجواب عن هذا السؤال ليس واضحاً كل الوضوح ، فمن جهة ، نجد أن العدالة في دول الطوائف كانت مبنية على المذهب المالكي رغم أنها كانت تتمتع باستقلال نسبي ولذلك ساند معظم الفقهاء ملوك الطوائف . فعلى سبيل المثال ، كثيراً ما كان ملوك الطوائف يبررون أعمالهم وأنشطتهم السياسية بمساندة قانونية من طرف الفقهاء . ومن جهة أخرى ، نجد بعض الفقهاء الساخطين على الاوضاع والذين عبروا عن هموم ومطالب الشعب ، ومن بين هؤلاء نذكر أبا الوليد الباجي الذي زار مختلف ملوك الطوائف فحاول أن يقنعهم بضرورة توحيد الاندلس سياسياً (57) ، وعلي بن حزم الذي استنكر سلوك ملوك الطوائف علانية وتهجم عليهم (58)، وأبا ابراهيم إسحاق البيري الذي حرض عامة قرطبة على الثورة ضد الوزير اليهودي يوسف بن النغرالة . وعلاوة على هـذا ، أصبح الفقهاء عامة في نهاية عهد دول الطوائف مناهضين لنظام دول الطوائف نفسه ولم ينحصر دورهم في ممارسة ضغوط قوية على ملوك الطوائف بهدف الاستنجاد بيوسف بن تاشفين عسكرياً ضد الفونسو السادس ، بل كان لهم دور هام في إقناع يوسف باحتلال الاندلس وضمها للمغرب بعد معركة الزلاقة . بل مما هو أهم من هذا أنهم أعطوا لتدخل يوسف بن تاشفين تبريراً قانونيا عند ما

أدانوا سياسة ملوك الطوائف في مجال الضرائب بحيث اتهموهم بالتعامل مع النصارى وبالفشل في حماية رعاياهم. (59)

وهكذا نلاحظ أن الدين شكل قوة هامة لدى مسلمي الاندلس ولدى المسيحيين في شمال الجزيرة الايبيرية خلال القرن الخامس الهجري ومع ذلك كثيراً ما حاول كل من المسيحيين والنصارى تحقيق مصالحهم الاقتصادية والسياسية على حساب مبادئهم الدينية. إن الامثلة للتعاون بين الاشخاص المتدينين بأديان مختلفة كثيرة كما أن لدينا أمثلة للاصطدامات بين أشخاص من نفس الدين. في الختام، ربما لم يكن الوعي الديني أهم قوة اجتماعية في الاندلس، إلا أنه ساهم في كبت وتجميد العصبية وحصر آثارها خصوصاً لدى الطبقة الوسطى.

# العصبية والعلاقات بين ملوك الطوائف

لقد نظر جل المتخصصين في الدراسات الاسبانية إلى العلاقات بين ملوك الطوائف في إطار العصبية كما افترض هؤلاء أن البعد العرقي كان يشكل جزءاً لا يتجزء من تركيب دول الطوائف البشري ، لهذا لم يتبن أو يرفض أحد الاساس العرقي لدول الطوائف بصفته قوة اجتماعية متحركة ، بل لم تطرح هذه المسألة قط ، وكان أبرز مؤرخي القرن التاسع عشر مثل راينهارت دوزي وأشهر المستشرقين في القرن العشرين مثل ليفي برفنصال قد بلوروا موضوع الوعي العرقي الجماعي بصفته قوة اجتماعية هائلة كما نجد صداه عند المؤرخين العرب العصريين المهتمين بعهد الطوائف (60) .

إن المنهج الشائع لدراسة العلاقات بين دول الطوائف يرتكز على التقسيم العرقي إلى ثلاث مجموعات رئيسية يسيطر العرب أو

البربر أو الصقالبة على كل واحدة منها ، ومن الآراء المقبولة، الرأي القائل بأن دول الطوائف كانت تشكل تحالفات تسيطر هذه المجموعات عليها بهدف الدفاع أو الهجوم على دول طائفية فردية أو على تحالفات أخرى ، ولعل نظـرة سريعة إلى خريطة الاندلس في القرن الهجري الخامس تثبت هذا الرأي .

كانت الدول الطائفية العربية مثل إشبيلية، مركزة في الغرب وكانت الدول الطائفية البربرية مثل الجزيرة الخضراء ومالقة مركزة في الجنوب في غالب الاحيان، أما الدول الطائفية التي سيطر عليها الصقالبة مثل دانية فكانت توجد في الشرق ، يبدو أن بعض الدول الطائفية مثل طليطلة وبطليوس تلبي شروط الدولة الطائفية العربية والبربرية معاً، حيث إن انتماء حكامها إلى البربر ينعكس في أسماء بني ذي النون وبني الافطس مع أن هؤلاء كانوا معربين ثقافياً ، ونتيجة لذلك ، قبلت هذه الدول بصفتها دولا طائفية عربية إلا أن درجة عروبتها كانت أقل من درجة عروبة دول طائفية أخرى مثل إشبيلية في عهد بني عباد . وبعبارة أخرى ، حصل اتفاق جميع المؤرخين بشأن الاطار العام للدول الطائفية العربية والبربرية والصقلبية أما الخلافات فدارت حول إمكانية اعتبار دولة طائفية معينة ضمن مجموعة معينة أو غيرها ، واعتباراً لتركيز مجموعات مختلفة من الدول الطائفية الملتحمة إثنيا في مناطق خاصة فيترتب على ذلك أنها اصطدمت بعضها مع بعض وأن هذه الاصطدامات كانت مبنية على أسباب تحركها، وتنعشها قوى اجتماعية أطلق عليها أحياناً عبارة

العصبية ، لهذا نجد أن فكرة مجموعات متطاحنة من الدول الطائفية الملتحمة إثنيا قد جاء تصورها في إطار نظري يعتبر الصراع العرقي فيه أهم قوة اجتماعية يمكن استخدامها لتفسير التطور الاقتصادي والاجتماعي في الاندلس خلال عهد الطوائف ، ومن الغريب حقاً أنه لا توجد أية إشارة إلى الدول الطائفية الاسبانية التي يطغى عليها وعي جماعي إسباني ، ولكن إذا كانت العصبية تكتسي الاهمية التي أعطيت لها في تحديد العلاقات بين دول الطوائف عامة فلابد أن تكون للسكان الاصليين للاندلس الذين شكلوا الاغلبية خلال القرن الهجري الخامس ، ردود فعل قوية من شأنها أن تؤدي إلى تأسيس دول طائفية خاصة بهم على أساس تضامن عرقي ، وحتى تتجنب التعقيدات الناتجة عن هذه المسألة بالنسبة للمنهج العرقي في دراسة دول الطوائف فقد أهمل الدور السياسي للاندلسيين من أصل إسباني بحيث أعتبر هؤلاء جزءاً من المجموعة العربية في غالب الاحيان .

لم يتساءل أحد عن قضية استعمال مصطلحات معينة مثل الدولة الطائفية العربية أو البربرية ، فماذا نعني بالدولة الطائفية العربية ؟ وماذا نعني بالدولة الطائفية البربرية ؟ هل يجب على الحاكم أن يكون عربياً حتى نعتبر دولة طائفية عربية. أم يجب على الرعية أن تكون عربية ؟ أم يجب تحقيق الشرطين ؟ فإذا كان ملك طائفي عربياً ولم تكن رعيته من العرب، فيستخلص من ذلك غياب عصبية عربية بحيث انها تفرض وجود شعور جماعي بالانتماء إلى أصل عرقي مشترك، ومن جهة أخرى، لا يعقل تصور حاكم عربي يحركه تضامنه مع

مجموعة من أصل عرقي يختلف عن أصله ، ومع هذا ، يمكننا أن نتجنب الكثير من التدقيق فنعتبر كل دولة سيطر عليها العرب خصوصاً على المستوى السياسي دولة عربية ، ويمكن القول انه اعتباراً للسلطة السياسية المطلقة لملوك الطوائف فإن الوعي العرقي عند الحاكم وعند الطبقة الحاكمة هو ما كان يقرر السياسة مع الدول الطائفية الأخرى ، إلا أن هذا الموقف يصعب الدفاع عنه لاننا نجد سياسيين وإداريين من أصول عرقية مختلفة في بلاطات ملوك الطوائف العرب والبربر معاً كما نجد يهوداً في مناصب وزارية في غرناطة في عهد بني زيري ونجد بعض النصارى في بلاط بني عباد بإشبيلية (61) .

هل تعكس الفرضية المبنية على هيمنة العرب والصقالبة والبربر والتي انتشرت على نطاق واسع لدى المثقفين العصريين فى كتابات المؤرخين المعاصرين لعهد الطوائف ؟ من الافضل أن نناقش مواقف المؤرخين المعاصرين ونظرتهم إلى ملوك الطوائف وعلاقاتهم في ضوء العصبة فى إطار الاشكالية التي نطرحها ، ولكننا سوف نكتفي باختيار مؤرخين بارزين هما : خلف بن حيان وعبد الله بن بلقين أولهما عربي . وثانيهما بربري الاصل ، لقد عاصر كلاهما عهد دول الطوائف وارتفع مستوى رواياتهما التاريخية على غيرها ، ويكتسي موقف ابن حيان تجاه المجموعات الاثنية المختلفة أهمية بالغة نظراً لتأثير تاريخه في كتابات المؤرخين الذين عاشوا بعده بحيث نقلوا عنه كثيراً فعكسوا نظرته إلى ملوك الطوائف ، كما يكتسي ابن

حيان أهمية خاصة نظراً لاقتراب تكوينه وأرضية الثقافية العربية من تكوين أغلب المؤرخين الذين اهتموا بعهد دول الطوائف بحيث يمكن اعتباره رمزاً لهم كما يمكن اعتبار شعوره نحو المجموعات الاثنية الأخرى مماثلا لشعورهم ، ولا نحتاج إلى تبرير هذه الحقيقة إلا من خلال نصوص أعمال ابن حيان التي نقلها المؤرخون اللاحقون على نطاق واسع .

ومن جهة أخرى ، يكتسي البحث عن احتمال وجود الشعور بالعصبية عند عبد الله بن بلقين قيمة تمثيلية لأنه أحد الاندلسيين البرابر الذين وصلتنا كتاباتهم ، وعلاوة على هذا ، تعتبر مذكرات عبد الله خارقة للعادة، ليس فقط لكونها تمدنا بمعلومات دقيقة وهامة حول العلاقات الاجتماعية في غرناطة وحول علاقات الامير عبد الله مع بعض ملوك الطوائف مثل المعتمد بن عباد ثم مع الفونسو السادس ولكن لكون الامر يتعلق بحاكم يصف هذه العلاقات ويحللها بنفسه وهذا أمر لم يعرف قبل ذلك في حوليات تاريخ أوربا . لقد اعتبر عدد من المؤرخين الغربيين ابن حيان أعظم مؤرخ أندلسي (62) ، كما اجتمعوا على اعتبار وصوله إلى قمة نضجه كمؤرخ رائع في كتابه : « المتين » ، يبرز هذا الأخير كعمل منفرد وكمصدر تاريخي معاصر متين لدراسة عهد دول الطوائف ، وفعلا ، وصل المؤرخ البارز سانشيس البورنوث إلى الاستنتاج التالي بشأن « المتين » : « في الواقع ، لقد عبر ابن حيان بحرية تامة عما شهد عصره من أحداث مؤلمة في كتاب : « المتين » بعبقريته بصفته مؤرخاً وتجاوز حدود

التأريخ في عهده ليقترب إلى التصورات العصرية للتاريخ » (63) .

يبدو أن أصل هذا الكتاب قد ضاع نهائياً (64) ، إلا أن بعض الاقتباسات منه منقولة في عدد من الكتب ، فعلى سبيل المثال ، رغم تركيز ابن بسام على التقديم والتعليق الادبي في كتابه : « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » فكثيراً ما استشهد بابن حيان فيما يخص المعلومات التاريخية كما نقل معظم المؤرخين المسلمين المتأخرين الذين درسوا الاندلس اقتباسات عن كتاب : « المتين » (65) .

لم يكن منهاج ابن حيان في دراسة دول الطوائف وعلاقاتها مبنياً على العصبية لأنه كان مؤرخاً منهجياً له نظرة واضحة إلى عهد الطوائف .

إن المؤرخ الذي تهيمن العصبية على مواقفه ونظرته وتفسيراته ينظر إلى التاريخ بالعاطفة ، ولكن ابن حيان كان مؤرخاً عقلانياً ، لم يكتف ابن حيان باعتبار العلاقات بين ملوك الطوائف بكيفية نقدية بل كانت نظرته إلى ملوك الطوائف وإلى علاقاتهم مبنية على تأمل عقلاني عميق للاسباب الظاهرة والخفية المحركة لها ، ونتيجة لذلك ، ليس هناك مكانة للعصبية في فكر ابن حيان التاريخي ومنهجه ، لو اعتبر الدول الطائفية من زاوية عرقية لما أصبح المؤرخ الموضوعي والمحايد الذي تعترف به الاغلبية الساحقة من المتخصصين في الدراسات الاندلسية ، لذا قد يكون مفيداً لو فحصنا منهجه التاريخي كما عبر عنه في كتاباته ، ورغم غياب البعد الاجتماعي والعمق الفلسفي لمقدمة ابن خلدون من مقدمة ابن حيان لتاريخه

3 ) نجح ابن حيان بصفته مؤرخاً غير متحيز وموضوعياً، وتتضح هذه الحقيقة خاصة في تقييمه وتحليله لملامح الشخصيات التاريخية البارزة التي درسها . ونظراً لتركيز مؤرخي القرون الوسطى على أولئك الذين شغلوا مناصب النفوذ والسلطة، فقد يكون من المستحسن لو فحصنا مقدرة ابن حيان على تقييم ملوك الطوائف . يمكن الرجوع إلى موقفه من المعتضد بن عباد لتوضيح روحه الانتقادية الحادة وفهمها . إذا كانت بعض الاقتباسات من كتب ابن حيان تعكس موقفه الايجابي من المعتضد ، فان اقتباسات أخرى تعكس انتقادات شديدة له ، بحيث لابد من دراسة المادة التاريخية بطريقة شمولية حتى ندرك أن هدف ابن حيان الأخير كان يتجلي في الوصول إلى وصف موضوعي لشخصية المعتضد دون أفكار مسبقة ، ففي رسالة بعثها للمعتضد بمناسبة انتصاره على أبن ذي النون ، لجأ فيها إلى الاطناب في المدح واستخدام الالقاب الشرفية مثل الحاجب سراج الدولة (70) ، فماذا نفهم من هذه الرسالة ؟ هل كان صادقاً عندما عبر عن إعجابه بالمعتضد، أم أن استعماله أسلوباً رسمياً كان ضرورياً لضمان وجوده ولحماية نفسه من حاكم مستبد وطاغية ؟ يبدو الاحتمال الثاني أكثر اقتراباً من الحقيقة خصوصاً إذا اعتبرنا التقييم التالي للمعتضد بقلم ابن حيان : « . . . وأطمع ما كان في الاحتوا على الجزيرة، محتفزاً لها عند تشميره الذيل بفتنة لا كفا لها... » (71) ولم يتردد ابن حيان في التطرق إلى أدق الجوانب في حياة المعتضد وأكثرها حساسية ومنها اغتياله إبنه إسماعيل (72) ، ومع ذلك فقد

للاندلس في عهد الطوائف التي وصلتنا محفوظة فى « الذخيرة »، فانها تشمل العناصر التالية المعبرة عن خصاله الرائعة كمؤرخ :

1 ) لقد هيأ ابن حيان نفسه بدقة قبل كتابة تاريخه لدول الطوائف، يعني كتاب : « المتين »، فبعد أن عاش خلال فترة تميزت بعدم استقرار تام ومستمر، انتظر ابن حيان حتى هدأ الاهتياج العظيم بين دول الطوائف الامر الذي مكنه من الكتابة في جو أكثر هدوءاً ومن اتخاذ منهاج أكثر موضوعية (66)، وعلاوة على ذلك، درس جميع المصادر التاريخية الموجودة وانتقد المعلومات الضعيفة لعدد من معاصريه (67) .

2 ) حاول ابن حيان أن يكون مؤرخاً صادقاً وغير متحيز وذلك نتيجة محاولة واعية، وربما كانت عقيدته الاسلامية دافعاً هاماً وراء رغبته الاكيدة في البحث عن الحقيقة التاريخية (68)، ورغم قيوده ومهما كانت الدوافع بذل ابن حيان أقصى جهوده عن وعي ليصبح مؤرخاً صادقاً، غير متحيز، وموضوعياً . وتتضح هذه النية فى بوضوح في الاقتباس التالي من مقدمة كتاب : « المتين » :

« ووصلت القول فيما فاتني قبل من ذكر انبعاث تلك الفتنة، وأخبار ملوكها، ومشهور حروبها . مما أصبت به عندي تذكرة، أو أخذته عن ثقة، أو وصلتني به مشاهدة، أو حاشته إلي مذاكرة، حتى نظمت أخبارها إلى وقتي مكملة، وجئت بها على وجوهها، وأوردتها على سبوغها، ناشراً مطاويها، ومعلناً بخوافيها . غير محاب ولا خائف فى الصدق عليها، سالكاً سبيل من ائتسيت به من مستأخري أصحاب التاريخ بالمشرق » (69) . . .

3 ) نجح ابن حيان بصفته مؤرخاً غير متحيز وموضوعياً، وتتضح هذه الحقيقة خاصة في تقييمه وتحليله لملامح الشخصيات التاريخية البارزة التي درسها . ونظراً لتركيز مؤرخي القرون الوسطى على أولئك الذين شغلوا مناصب النفوذ والسلطة، فقد يكون من المستحسن لو فحصنا مقدرة ابن حيان على تقييم ملوك الطوائف . يمكن الرجوع إلى موقفه من المعتضد بن عباد لتوضيح روحه الانتقادية الحادة وفهمها . إذا كانت بعض الاقتباسات من كتب ابن حيان تعكس موقفه الايجابي من المعتضد ، فان اقتباسات أخرى تعكس انتقادات شديدة له ، بحيث لابد من دراسة المادة التاريخية بطريقة شمولية حتى ندرك أن هدف ابن حيان الأخير كان يتجلى في الوصول إلى وصف موضوعي لشخصية المعتضد دون أفكار مسبقة ، ففي رسالة بعثها للمعتضد بمناسبة انتصاره على ابن ذي النون ، لجأ فيها إلى الاطناب في المدح واستخدام الالقاب الشرفية مثل الحاجب سراج الدولة (70) ، فماذا نفهم من هذه الرسالة ؟ هل كان صادقاً عندما عبر عن إعجابه بالمعتضد، أم أن استعماله أسلوباً رسمياً كان ضرورياً لضمان وجوده ولحماية نفسه من حاكم مستبد وطاغية ؟ يبدو الاحتمال الثاني أكثر اقتراباً من الحقيقة خصوصاً إذا اعتبرنا التقييم التالي للمعتضد بقلم ابن حيان : « . . . وأطمع ما كان في الاحتواء على الجزيرة، محتفزاً لها عند تشميره الذيل بفتنة لا كفاء لها... » (71) ولم يتردد ابن حيان في التطرق إلى أدق الجوانب في حياة المعتضد وأكثرها حساسية ومنها اغتياله إبنه إسماعيل (72) ، ومع ذلك فقد

كان رأي ابن حيان فى المعتضد متنوعاً كما نرى فى الاقتباس التالي :

« . . . المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الاندلس في وقته ، أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الاوتار ، وذو الانباء البديعة ، والحوادث الشنيعة ، والوقائع المبيرة ، والهمم العلية ، والسطوة الأبية . . . » (73) .

وأخيراً إن استنتاج ابن حيان بشأن المعتضد واضح ونقدي مع رفضه أو تساؤله عن مدى صحة بعض الآراء المبالغ فيها والتي لم تبن على أسس متينة :

« . . . فلقد حمل عليه على مر الايام ، في باب فرض القسوة وتجاوز الحدود ، والابلاغ فى المثلة ، والأخذ بالضنة ، والاخفار للذمة ، حكايات شنيعة لم يبد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ، فالقول ينساغ في ذكرها ، ومهما بريء من مغبتها فلم يبرأ من فضاعة السطوة وشدة القسوة ، وسوء الاتهام على الطاعة ، سجايا من جبلة لم يحاش فيها ذوي رحم واشجة » (74) .

4 ) رغم حدوده في مجال التحليل العميق ، فإن تاريخ ابن حيان لعهد الطوائف غني بالتعاليق ، كما أنه احتفظ بقيمته كشهادة تاريخية معاصرة . فمع استمراره فى الاطار العام للمؤرخين المسلمين ، كان يهتم بالتاريخ السياسي لدول الطوائف بالدرجة الاولى . ومع ذلك ، لم يحصر جهوده في وصف الاحداث وجردها بل صنف معلوماته وتساءل في الدوافع المحركة للزعماء ، وفي الاسباب العامة لانحطاط الدول الطائفية ويظهر ذلك بوضوح في الاقتباس التالي :

« فركبت سنن من تقدمني فيما جمعته من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ، ونظمته وكشفت عنه وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياستهم المنفرة ، وأسباب كبار الامراء المنتزين في البلاد عليهم ، وسبب انتقاض دولهم ، حال فحال بأيديهم ، ومشهور سيرتهم وأخبارهم ، وما جرى في مددهم وأعصارهم ، من الحروب والطوائل ، والوقائع والملاحم ، إلى ذكر مقاتل الاعلام والفرسان ، ووفاة العلماء والاشراف ، حسب ما انتهت إليه معرفتي ، ونالته طاقتي » (75) .

وبعد اثباتنا لمكانة ابن حيان كمؤرخ (76) ، يمكننا الآن أن نحلل موقفه من العرب والبربر وتقييم درجة تأثير التقسيم الازدواجي العربية ـ البربرية، في نظرته إلى الاندلس خلال القرن الهجري الخامس. كيف كان موقفه تجاه البربر؟ إننا نجد في مقدمته تهجمات عنيفة على العناصر البربرية بصفتها فتنة ومخربة ومسؤولة بالدرجة الاولى عن انهيار خلافة بني أمية في قرطبة . فعلى سبيل المثال ، يشير ابن حيان إلى « . . . هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للمملكة المؤثلة . . . » (77) . وعلاوة على ذلك ، إنه يعتبر البربر مسؤولين قبل غيرهم على استمرار تقسيم الاندلس إلى دول طائفية طوال القرن الهجري الخامس . ومع ذلك ، فإنه كان للملوك الطائفيين الذين هم من أصل بربري دور رئيسي في تعجيل انحطاط خلافة قرطبة فلم نعد مسؤولية بدئه إليهم وإنما شاركوا غيرهم في هذا الانهيار. كما أن ابن حيان لم يدع أن مسؤولية

تخريب خلافة قرطبة تعود إليهم دون غيرهم ، وهكذا فاعتماداً على مصادر نقلت عن ابن حيان بالتفصيل يمكننا أن نثبت أن البربر لم يتحملوا وحدهم اللوم لاشعال الفتنة .

لقد كانت « الفتنة البربرية » التي أصابت قرطبة بعد أن فرض علي بن حمود حكمه عليها سنة 407 هـ ـ 1016 م في جوهرها نتيجة منطقية لدكتاتورية بني أبي عامر غير البربرية التي قضي خلالها على دولة بني أمية بطريقة تدريجية وفعالة ، وعلاوة على ذلك ، فإن محمد بن عبد الجبار المعروف بالمهدي وهو ليس بربرياً هو الذي وضع نهاية لآخر حاكم من بني أبي عامر وعزل هشاما الثاني الخليفة الاموي الرمزي ، كما اشتهر بعنف مفرط تمثل في تخريبه لمدينة الزهراء التي عرفت بالمدينة الزاهرة في عهد بني أبي عامر (78) ، وكان ابن حيان واعياً بمساهمة المهدي في القضاء على خلافة قرطبة عندما قال : « محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر، ( لقبه ) المهدي ، ( كنيتة ) أبو الوليد ، ولقب نفسه المهدي ولقبته العامة المنقس لهشاشته (79) ، وطيشه وخفته وهو كان باب الفتنة وسبب الشقاق والنفاق . . . » ، ولم يكن الناصر سليمان بن الحكم الذي جاء بعد المهدي ففرض حكمه على قرطبة سنة 403 هـ . ـ 1012 م . أقل عنفاً كما يظهر ذلك بكل وضوح في التخريب الذي قام به جيشه بين سنة 400 هـ . ـ 1009 م . وسنة 403 هـ . ـ 1012 م . عندما حاصر قرطبة التي حكمها هشام الثاني المغلوب على أمره (80) ، ولم يظهر بربري على ساحة قرطبة إلا

في سنة 407 هـ ـ 1016 م . وهو علي بن حمود ، بل لم يصبح علي بن حمود حاكماً جباراً وطاغية إلا بعد تهديد حكمه بحيث كانت الشهور الثمانية الاولى من حكمه مثالية يطبعها السلام والامن . (81)

بعد أن قمنا بمناقشة بعض مصادر ابن حيان أصبحنا أكثر تأهلا للحكم على منهج ابن حيان التاريخي ثم تقرير وجود أو غياب البعد العنصري في فكره وبالتالي في منهجه . اعتبر ابن حيان العنصر البربري عنصراً أساسياً ولكن غير منفرد للانحلال الذي أصاب الاندلس خلال القرن الهجري الخامس . ومع ذلك ، لا يمكننا أن نفسر ظاهرة الانحلال هذه بطريقة مبسطة بوضعنا كل المسؤولية على عاتق البربر والعرب ، بل يجب علينا أن نضع القضية في إطار أندلسي واسع لأن التناقضات والصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت تميز الاندلس عامة دون أدنى ميز عنصري . ولو كان التخريب الذي قامت به العناصر البربرية أعظم من التخريب الذي سببته العناصر الاثنية الاخرى فسوف يصعب على ابن حيان ـ وعلى غيره من المؤرخين ـ تحديد أسبابها في إطار عنصري ضيق . وعلاوة على ذلك ، لقد كان لملوك الطوائف من أصل بربري ارتباط متين بغيرهم من ملوك الطوائف على المستوى الثقافي حيث اعتنقوا الاسلام في الباطن أو في الظاهر وتعلموا اللغة العربية . فكانت لهم جميعاً عوامل ثقافية مشتركة . لهذا ، عند ما انتقد ابن حيان البرابرة كان يقصد ملوك الطوائف من أصل بربري بحيث إننا لا نجد أدنى إشارة للميز العنصري بمفهومه

العصري . ويبدو واضحاً من خلال انتقاداته الشديدة لملوك الطوائف من أصل غير بربري أنه كان واعياً كل الوعي بأن لومة الزعماء البربر كانت تعود الى نقصهم كزعماء وليس بصفتهم بربر . لذلك يمكننا أن نستنتج بأن منهج ابن حيان لعهد الطوائف كان شاملا بحيث انتقد جميع العناصر الاثنية المسؤولة عن اندلاع الفتنة وتشجيع انفجار الاوضاع العامة في الاندلس وتقسيم الاندلس الى دول طائفية متعددة شبه مستقلة ، لقد كان النموذج المثالي للوحدة عنده عبارة عن رد فعل للصراعات المنتشرة والتقسيم الذي أصاب الاندلس خلال القرن الخامس الهجري . كما أن ابن حيان عبر عن إعجابه وحنينه للدولة الاموية المنقرضة في إطار مفهوم الوحدة . وأخيراً يعتبر تاريخه عبارة عن محاولة لفهم عصره ، ومحاولة لشرحه للاجيال اللاحقة بأسلوب تاريخي ممتاز .

يلقي « كتاب التبيان » وهو عبارة عن مذكرات الامير عبد الله بن بلقين أضواء كثيرة على العلاقات بين ملوك الطوائف وذلك بكيفية مباشرة وواضحة . (82) وفي هذا الاطار ، يمتاز هذا العمل بقيمة خاصة وفريدة حيث يقدم لنا حاكم شارك في الاحداث مباشرة علاقاته مع ملوك الطوائف ثم العلاقات بين حكام آخرين .

تختلف القيمة التاريخية « لكتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين عن قيمة « المتين » لابن حيان من عدة نواح ، إلا أن هذا لا يقلل في شيء من أهميته . فعلى سبيل المثال ، لا نجد في « المتين » مثل روايات عبد الله بن بلقين لاحداث بارزة في القرن الخامس

الهجري مثل معركة الزلاقة في سنة 479 هـ . 1086 م . أو احتلال يوسف بن تاشفين للاندلس نظراً لوفاة ابن حيان سنة 469 هـ . 1076 م . أي قبل حدوثها . ومع افتقار عبد الله لخصائص ابن حيان كمؤرخ وعلى رأسها منهجه التاريخي القويم امتاز حاكم غرناطة بصدق كبير في روايته للعلاقات بين ملوك الطوائف . ونظراً لكتابة مذكرات عبد الله وهو في المنفى في المغرب إثر احتلال يوسف بن تاشفين الاندلس ، فقد وصف علاقاته بملوك الطوائف بحرية مطلقة ، مع أنه كان حذراً يزن كل كلمة تتعلق بيوسف ابن تاشفين . وعلاوة على ذلك ، تمتاز المعلومات الواردة في كتاب « التبيان » بدقة كبيرة حيث إنها تشمل تفاصيل متعددة غير موجودة في المصادر الاخرى . إن أسماء الشخصيات التي يذكرها عبد الله متعددة وتعكس إدراكه العميق للتطورات السياسية في القرن الهجري الخامس . مثلا ، لم يكتف بمنحنا دون غيره أدنى التفاصيل المتعلقة بأنشطة الثوار مثل كباب بن تميت أو مؤمل ، بل يصف لنا مفاوضاته مع مبعوثي الفونسو السادس المسيحيين مثل بيدرو أنسوريث ( Pedro Ansúrez ) وألفار هانيث ( Alvar Hañez ) وسيسناندو دافيديث ( Sisnando Davidiz ) الذين تذكرهم المصادر المسيحية . (88) وفي الختام ، لا يمكن أن نشك في القيمة التوثيقية العظمى لمذكرات عبد الله لانه كان شخصية معاصرة للعهد الذي أرخ له ولانه لم يتأثر بمعظم الاحداث التي تطرق لها عند ما كتب عنها في مذكراته ولان معظم الحقائق التاريخية والتعاليق والتحاليل

الموجودة في مذكراته يمكن مقارنتها بمصادر أخرى من المصادر التاريخية المتينة . وعلاوة على ذلك ، يمتاز « كتاب التبيان » بمهمة تكميلية حيث إنه يحلل التطورات التي أدت الى أبرز أحداث القرن الخامس الهجري بعمق عظيم (84) .

يعتبر تحليل عبد الله لطبيعة العلاقات بين ملوك الطوائف فريداً كما أنه يخص مستويين . فمن جهة ، يحلل البعد السياسي والاديولوجي ومن جهة ثانية ، يحلل البعد النفسي . يتطرق عبد الله للعلاقات بين ملوك الطوائف في إطار سياسة القوة حيث يصبح الضعفاء ضحية للاقويا٫ . (85) كما اعتبر خلافات ملوك الطوائف وتقسيمهم أمراً لا يمكن إصلاحه ، (86) حيث ساهم ذلك في تشجيع هيمنة الفونسو السادس على الاندلس لتأخذ تدريجياً شكل سياسة تعسفية تهدف الى إخضاع ملوك الطوائف .

يعتبر « كتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين فريداً حيث إنه يحلل البعد النفسي عند ملوك الطوائف مكشفاً دوافع قراراتهم وأعمالهم . ومما هو أهم من كل هذا ، ان عبد الله يعبر عن أفكاره ودوافعه الداخلية من خلال عدد من القرارات الهامة التي اتخذها ، (87) كما تطرق لدوافع الشخصيات التي اصطدم أو تفاوض معها مثل المعتمد بن عباد . (88) بل ذهب الى أن نقل لنا اقتباسات من بعض الشخصيات البارزة التي كان له بها صلة ، (89) فيعكس لنا عقلية الفئات الاندلسية المختلفة الأمر الذي لـم يفعل أي كاتب غيره .

ولا يمكن لنا من خلال رواية عبد الله أن نعتبر العصبية قوة اجتماعية بارزة وراء الاصطدامات الداخلية في غرناطة أو العلاقات بين ملوك الطوائف . فعلى سبيل المثال ، كان حكم جد عبد الله ، باديس بن زيري ، قد عرف عدداً من مكائد البربر وحيلهم ، الذين حاولوا الاطاحة به الامر الذي دفعه الى الاعتماد على اليهود حيث استوزر بعضهم ، بل لم يشعر عبد الله نفسه بأمن مع رعيته البربرية وقد نظمت عدة محاولات للاطاحة بحكمه . (90) وقد وصل شكه في وزرائه وعدم ثقته بهم الى درجة أنه جعل كلا منهم مسؤولا أمامه مباشرة . (91) وهكذا كانت الدوافع الشخصية وليس العصبية المحرك الاساسي للصراعات الداخلية من أجل الحصول على الحكم في غرناطة .

وعلى النطاق الخارجي ، أقام عبد الله علاقاته بملوك الطوائف الآخرين على أساس المصلحة بدلا من الجنس أو العرق . فعلى سبيل المثال ، لم يعتبر خلافاته مع المعتمد بن عباد ناتجة من الفوارق العرقية بل عبر عن اندهاشه عند ما هجم عليه هذا الاخير بالرغم من انتمائهما لنفس الدين . (92) بل أكثر من ذلك ، مدح عبد الله المعتمد شخصياً ثم اعتبر سياسته التعسفية ناتجة من أطماع ابن عمار وهيمنته المفرطة داخل البلاط الاشبيلي . (93) إن الامثلة متعددة سواء لاصطدامات عبد الله مع ملوك الطوائف من أصول إثنية مختلفة أو لعلاقاته الطيبة معهم .

إن النظرة الايجابية لمؤرخين نحو مجموعات إثنية غير مجموعتهم لا تعتبر كافية في حد ذاتها لاثبات دور العصبية المحدود كقوة اجتماعية محركة ، إلا أن العلاقات بين ملوك الطوائف من أصول إثنية مختلفة كانت عدائية أحياناً وسلمية في أحيان أخرى ، لقد كانت هذه العلاقات مبنية على عوامل متنوعـة ولذلك يستحيل بعد فحص دقيق ، قبول نمط واضح للتحالفات العرقية للدول الطائفية التي امتاز سكانها بالتحام إثني وذلك بالرغم من انتشار هذا النمط لدى عدد من المؤرخين العصريين . وعلاوة على ذلك ، هناك أمثلة للتحالفات بين بعض ملوك الطوائف ، الذين تحالفوا مع ملوك طوائف من أصل عرقي مخالف ضد آخرين من نفس أصلهم العرقي .

ولعل أقوى دليل ضد المنهج المبني على العرقية في معالجة علاقات ملوك الطوائف يكمن في كون الامثلة المأخوذة من الواقع التاريخي للاندلس في عهد الطوائف تثبت عكس ذلك ، إن حقيقة واحدة تفسر صراع ملوك الطوائف من أصول إثنية مماثلة والعلاقات السلمية بين آخرين من أصول إثنية متناقضة وهي أن قوى أخرى غير العصبية هي التي أنعشت علاقات ملوك الطوائف . فعلى سبيل المثال ، ساند القاضي ابن عباد وهو عربي حاكم قرمونة البربري محمد البرزالي عند ما أطاح بربري آخر هو يحيى بن حمود بحكمه سنـة 427 هـ . ـ 1035 م . (94) إن الصراع العربي ـ العربي لدى ملوك الطوائف واضح في احتلال المعتمد بن عباد لقرطبة التي

حكمها بني جهور الى استيلاء بني عباد عليها سنة 463 ـ 1070 م .(95) وبعد مدافعة الجيش الاشبيلي على قرطبة ضد هجومات المأمون بن ذي النون دخل العاصمة الاموية ثم قرر المعتمد بن عباد أن يقضي على حكم بني جهور فوضع له نهايته . ومن بين الامثلة البارزة للصراع البربري ـ البربري ، الاصطدام بين عبد الله بن بلقين وأخيه تميم حاكم مالقة . لقد أخذ نزاعهما شكل المواجهة العسكرية واستمر خلافهما حتى بعد وقوع معركة الزلاقة سنة 479 هـ ـ 1086م . عند ما اشتكى كل منهما بالآخر ليوسف . (96)

إن أمثلة الصراع بين ملوك الطوائف من أصل عرقي مماثل لا يثبت في حد ذاته غياب العصبية كقوة محركة للعلاقات بين ملوك الطوائف، إلا أنها تشير الى أن هذه العلاقات لم تكن مبنية على نمط عرقي واضح لمجموعات متحالفة من ملوك الطوائف العرب والبربر والصقالبة . هناك أمثلة للصراع بين دول طائفية من أصول عرقية مختلفة . فعلى سبيل المثال ، كان كل من المعتضد وابنه المعتمد ابن عباد معادياً لجيرانهما البربر الذين حكموا دول طائفية صغيرة مثل رندة أو قرمونة . ومع ذلك، لم يكن احتلال إشبيلية للدول الطائفية الضعيفة المجاورة لها راجعاً الى العصبية بقدر ما كان يعود الى تناقض إشبيلية وهذه الدول الطائفية في حجمها وقوتها، والى سياسة إشبيلية الخارجية التعسفية والتوسعية .

وكانت المصلحة الشخصية تفرض نفسها على المقاييس الاخرى عند ما لجأ ملوك الطوائف في عدد من الاحيان الى مساندة

الفونسو السادس أو يوسف بن تاشفين ضد ملوك طوائف آخرين.
وبعد معركة الزلاقة شعر يوسف بن تاشفين بان دول الطوائف غير قادرة على تشكيل وحدات سياسية واقتصادية قائمة بنفسها. ومن جهة أخرى، فإن هزيمة الفونسو السادس في معركة الزلاقة لم تمنعه من القيام بحملات عسكرية تخريبية في أراضي عدد من الدول الطائفية مباشرة بعد عودة يوسف الى المغرب. لقد أصبح هناك سؤال يطرح نفسه بالحاح في تلك الظروف وهو هل سيحتل الفونسو السادس أو يوسف بن تاشفين دول الطوائف التي فشلت إطلاقاً في توحيد صفوفها؟ وساعدت الظروف والاوضاع الداخلية يوسف فأخذ المبادرة وفي ظرف سنوات قليلة احتل جميع دول الطوائف باستثناء سرقسطة التي قامت بدور الحد الفاصل بين الاندلس وبعض الممالك المسيحية في شمال الجزيرة الايبيرية. وفي إطار العصبية، نلاحظ أن يوسف قام باحتلال دول الطوائف دون أدنى تمييز فيما يخص أصول ملوك الطوائف العرقية. فعلى سبيل المثال، جاء انهزام بعض ملوك الطوائف البربر قبل ملوك طوائف آخرين من العرب والصقالبة. مثلا، بينما استسلم عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة سنة 483 هـ. ـ 1090 م. انهزمت إشبيلية وسقطت في أيدي المرابطين سنة 484 هـ. ـ 1091 م.

# الخـاتمـة

بعد مناقشتنا للعلاقات الاجتماعية في الاندلس في القرن الهجري الخامس على ثلاثة مستويات من فئاتها الاجتماعية وبعد تحليل العلاقات بين ملوك الطوائف ، نـرى بأن عوامل أخرى غير العصبية كانت تحرك العلاقات والمعاملات بين المجموعات والافراد على السواء. إن احتمال التقسيم إلى الخاصة والطبقة الوسطى والعامة قد يواجه اعتراضاً على أساس أن مفهوم الطبقة الاجتماعية يفترض وجود الاستغلال والوعي الطبقي مع أن الوعي الطبقي لم يكن موجوداً في الاندلس . ومع ذلك ، كانت الطبقـات الاجتماعية في الاندلس تتصف بامتزاج ثقافي وحضاري بحيث أصبحت الطبقات الاجتماعية في الاندلس متفاعلة ومتجانسة ومرتبطة بعضها مع البعض .

لقد وحد الطبقات الاجتماعية وعي ثقافي من جهة كما وحد

المجتمع الاندلسي ككل من جهة ثانية . إن الاسلام هو الذي كان وراء سير الحياة في المجتمع الاندلسي مع احترام الجاليتين المسيحية واليهودية في الاندلس وهذا ما لم نشاهده لدى المسيحيين في شمال إسبانيا . بل إن حركة الاسترجاع المسيحي ( reconguista ) كانت مبنية في مراحلها الاولى على اديولوجية ترتكز على الذات بحيث اعتبرت مصالح الغزاة المسيحيين دون غيرهم وذلك قبل تأسيس هيئة المحاكم الدينية ( inguisition ) بقرون .

لقد كان المجتمع الاندلسي رغم فوارقه الطبقية والاجتماعية يشكل مجتمعاً يتركب من عناصر إثنية متنوعة إلا أنه كان يتصف بالتحام اجتماعي . كانت الحركية الاجتماعية العمودية التصاعدية والتنازلية من بين العناصر الرئيسية بحيث نجد من وصل إلى منصب سام كالوزارة عن طريق التعليم كما كان حال ابن عمار في بلاط المعتمد كما نجد لدى آخرين من ضاعت له ثروات عظيمة ونفوذ قوي .

ومن جهة أخرى ، يمتاز مفهوم العصبية بمرونة كبيرة بحيث يمكن لبعض القراء أن يرفضوا التحديد الذي أعطيناه فى هذا الفصل ، بل قد يمكن إعادة تحديده ثم إظهار أهميته كقوة اجتماعية محركة هامة في الاندلس في القرن الخامس الهجري إلا أن أي تحديد جديد لمفهوم العصبية يجب أن يعتمد فيه على المصادر التاريخية ثم استعمالها وتفسيرها الصحيح ، يشير تمحيصنا في المقالة الحالية لنصوص بقلم أبرز مؤرخ عربي وأبرز مؤرخ بربري عاصرا عهد الطوائف إلى غياب العصبية كقوة اجتماعية محركة في عهد الطوائف ولن يغير هذا

الموقف إلا اكتشاف برهان جديد . وعلاوة على هذا ، لقد كانت أعمال هذين المؤرخين وغيرهما في الماضي موضع التفسير من طرف مؤرخين غير متخصصين في عهد دول الطوائف لتدعيم بعض الفرضيات التي انتشرت على نطاق واسع مع أنها لا تنطبق على القرن الهجري الخامس . وأخيراً ، ربما نكون قد طلبنا كثيراً إذا اعتبرنا هدف هذا الفصل الوحيد هو تغيير نظرة للقرن الخامس الهجري دافع عنها أبرز المؤرخين الاوربيين والعرب خلال قرن بأكمله . ومع ذلك ، فإننا لا نرغب إلا في رأينا مع غيرنا عندما طرحنا إشكالية قديمة في ضوء برهان جديد وتفكير جدي ، لذا نرجو أن ينظر إلى قضية العصبية في الاندلس في عهد دول الطوائف بحذر أكثر وألا تعتبر حقيقة مسبقا ، وبنظرة قبلية .

# الـهـــوامـــش

1 ) هناك نظرتان مختلفتان في الموضوع . أنظر كتاب « فكر ابن خلدون الواقعي » لناصف ناصر :

Nassif Nassar, La pensée réaliste d'Ibn Khaldun, Paris, 1967, pp. 173 - 175.

وكتاب « فلسفة التاريخ عند ابن خلدون » لمحسن المهدي :

Muhsin Mahdi, Ibn Khaldun's Philosophy of History. Chicago, 1964 pp. 193 - 204.

بينما ناقش ناصر العصبية في إطار السياسة والقوة عالجها المهدي في إطار الثقافات البدائية والثقافات المتحضرة . ومن جهة أخرى ، يجب التأكيد على أن مفهوم العصبية مأخوذ من كتاب « المقدمة » بدلا من كتاب « العبر » أو تاريخ ابن خلدون . ولقد حاول ناصر دون نجاح أن يبرر الفرق الشاسع بين « المقدمة » و « كتاب العبر » . ( ناصف ناصر ، المصدر السابق ، صفحات 84 ـ 97 ) . لقد درس ناصر العناصر المتعددة التي كان لها تأثير في « المقدمة »

وذلك بلجوئه الى سيرة ابن خلدون الذاتية ثم تحديد عناصر هامة في حياته مثل بيئته الاجتماعية وتكوينه وتجاربه وتعليمه وشيوخه والظواهر الاجتماعية الخارقة التي عايشها والانهيار الاجتماعي العام ثم أزمة الحضارة الاسلامية في عهده ( محسن المهدي ، المصدر السابق ، صفحات 8 ـ 34 و 128 ـ 131 ) .

2 ) ركز الجابري أساساً على دور الدولة في فلسفة ابن خلدون التاريخية ( أنظر محمد عابد الجابري ، « فكر ابن خلدون : العصبية والدولة ، معالم خلدونية في التاريخ الاسلامي » ، الرباط ، 1979 ، صفحات 209 ـ 360 ) .

3 ) لقد انتقد الخطيبي نظرية ابن خلدون اللولبية ( cyclic ) للزمان بشدة عند ما وصفها بالعبارات التالية « . . . تلك الاسطورة » و « . . . نمط منحط للتاريخ » :

Abdel kebir Khatibi, <u>Hiérarchies pré-coloniales les théories— Bulletin Economigne et social du Maroc</u>. numbers 120 - 121, ( 1971 ). p. 32 ).

وخلافاً للخطيبي لقد بنى أرنولد توينبي كتابه الشهير « دراسة في التاريخ » على النموذج اللولبي للزمان فكان مدحه « للمقدمة » مطلقاً عند ما وصف هذا العمل كـ « . . . أعظم عمل من نوعه . . . »

. . . the greatest work of its kind . . )

( أرنولد توينبي ، « دراسة في التاريخ » :

Arnold Toynbee, <u>A Study of History</u>. vol. 3, London, 1935, p. 322 ).

4 ) لقد خصص المستشرق راينهارت دوزي مكانة بارزة لهذا الموضوع في القرن التاسع عشر في كتابه « تاريخ مسلمي إسبانيا » :

Reinhart P. A. Dory, <u>Histoire des musulmanes d'Espagne</u>.

كما أخذ ليفي بروفنصال نفس الموضوع بعده في كتابه « تاريخ إسبانيا الاسلامية » :

E. Lévi - Provincal, Histoire de l'Esagne musulmane )
vol, 3. Paris 1953, pp. 167 -- 188.

وتناول بيير كيشار في أحدث دراسة أنتربلوجية حـول الاندلس الارا' السائدة للعصبية في الاندلس بطريقة جديدة . ومع ذلك ، فإنه لم ينف وجود العصبية في الاندلس في عهد دول الطوائف إذ جا' في حد تعبيره :

« لا يمكن القول بأن الشعور بالانفراد ، بل بالمعارضة بين العرب وغيـر العرب كان قد انقرض في عهد الطوائف » .

( " On ne peut pas dire que le sentiment d'une différence, et même d'une opposition, entre Arabes et non Asabes ait disparu á l'épagne des Taifas. " ( Pierre Guichard, Structures sociales ' orientales ' et ' occidentales ' dans l'Espagne musulmane, Paris, 1977, pl 315 ) .

وهنـاك تمحيص للادوار التي قامت بهـا مختلف المجموعات الاثنيـة في الحياة السياسية والاجتماعية في عهد الطوائف . ( نفس المصدر ، صفحات 314 ـ 324 ) .

5 ) لقد اندهش عدد من المهتمين بالدراسات الاندلسية أمـام الوحدة الثقافية في الاندلس والتحامها ومن بينهم هنري بيرس الذي قال :

« إنها حقيقة مدهشة : في الاندلس هذه ، العناصر الاثنية متنوعة ولكن الثقافة واحدة » .

( " Fait remarguable : dans cette Espagne musulmane . . Les eléménts. éthinigues, sont héterogénes. mais la culture est une" )
( Hecri Pérés,
Le éléments de l'Espagne musulmane et la langne arabe au V e ) x l e siécle; in Etudes d Orientalisme dèdiées á la mémoire de Lévi - Provinçal. Vol. 2, Paris; 1962. p. 718).

6 ) طبقاً لمثال ناصر ، ترجم الخطيبي مفهوم العصبيـة الى الفرنسية كـ (( solidarité socio-agnatigue )) ( عبـد الكبير الخطيبي ، المصدر السابق ، ص . 32 ) . أما محسن المهدي فقد اكتفى بنقل هـذا المفهوم الى

الانجليزية بعبارة (( solidarity )) ثم قام بمناقشة مختلف التراجم التي خصصت لهذا المصطلح من طرف أبرز المتخصصين في ابن خلدون ( محسن المهدي ، المصدر السابق ، ص . 196 ، هامش رقم 1 ) .

7 ) ناقش بيدرو شالميطا إشكالية الاقطاعية في الاندلس وذلك في مقالة تمتاز بالطرافة . وبعد تحديده للمقاييس ومناقشته للجوانب الايجابية والسلبية للقضية توصل الى الاستنتاج التالي : « رغماً عن كل شيء وبشكل مؤقت ، يبدو أن هذا الاستنتاج يفرض نفسه : لم توجد الاقطاعية في الاندلس . . . »

( Malgré tout et momentanément, une conclusion parait s'imposer: dans l'Espagne musulmane il n'y aurait pas en de féodalisme . . . )
( Pedro Chalmeta Le probléme de la Feodalitè hors de l'Europe chrétianne: le cas de l'Espagnemusulmane in Actas del II Cologiu Hispano Tunecino de estudios historicos ( Madrid - Barcelona Mayo 1972 ) Madrid 1973 p 115).

8 ) صلاح خالص ، إشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لدولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الادبية فيها ( 414 هـ - 461 هـ . ) ، بيروت ، 1965 ، صفحتا 39 ـ 40 . ومحمود سعيد ، « الشعر في ظل بني عباد » . بغداد ، 1972 ، صفحات 50 ـ 52 .

كما يخرج القارئ بانطباع وجود مجتمع إقطاعي في الاندلس من خلال دراسة هائلة للمجتمع الاندلسي في القرن الخامس الهجري اعتماداً على الشعر ( أنظر هينري بيريس ، « الشعر الاندلسي باللغة العربية الفصحى في القرن الحادي عشر للميلاد » :

Henri Pérés la poesie andalouse en arabe classigne au XIe siecle: ses aspects généraux et sa valeur documentaire
2 nd ed Paris 1953

لقد ركز جميع المؤلفين الذين ذكرنا أسماءهم أعلاه على الثراء والبذخ في أسلوب حياة الخاصة الا أن مقياسهم الوحيد في الحكم على الطبقة

المحفوظة الاشبيلية في عهد الطوائف بصفتها أرسطقراطية ينحصر في ثرواتها المفرطة وتناقض هذه الثروة مع فقر الجماهير . ومع ذلك يجب أن نؤكد أن المقاييس التي تنطبق على النظام الاقطاعي لم توجد في الاندلس لان الادلة والبراهين التاريخية الموجودة لا تشير الى وجود نظام إقطاعي فيه طبقة من النبلاء الذين امتازوا عن غيرهم بوراثة مركزهم وبثروة مفرطة حصلوا عليها من خلال استغلالهم عرق غيرهم في مزارع ضخمة مقابل منحهم أدنى وسائل العيش والحماية . وعلاوة على ذلك ، فإن وجود طبقة وسطى في إطار حضري في الاندلس خلال القرن الهجري الخامس يشير الى نمط إجتماعي مخالف للنموذج الاوربي الذي انتشر في القرون الوسطى .

9 ) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي ، « البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب » ، تحقيق إ . ليفي بروفنصال ، ج . 3 ، باريس ، 1930 ، صفحتا 215 _ 216 .

10 ) عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، تحقيق إ . ليفي بروفنصال ، القاهرة ، 1955 ، ص . 77 .

11 ) إ . ليفي بروفنصال ، « تاريخ إسبانيا الاسلامية » :

E. Lévi-Provencal Histoire de l'Espagne musulmane vol 3 Paris 1953 p p 196-197

وبالرغم من وجود مستوى محدود للحياة في الممالك المسيحية بشمال إسبانيا وهيمنة اقتصاد فلاحي مبني على الاكتفاء الذاتي ، رأت هذه الممالك نمو طبقة وسطى في مدنها . ومع ذلك ، فإن تحالف ملك ليون وقشتالة الذي ازدادت مكانته قوة مع الكنيسة الكاثوليكية حين فرضت مذهبها على حساب مذهب المعربين ، وضع حداً بطريقة تدريجية لتطور الطبقة الوسطى وذلك نتيجة القطع الارضية الشاسعة التي حصلت عليها الكنيسة بحيث عرقل ذلك نمو المدن . وظهرت نتيجة هذا الصراع في إسبانيا المسيحية في القرن الهجري الخامس . ولدراسة أصول الطبقة الوسطى في إسبانيا المسيحية أنظر كتاب « أصول البرجوازية في إسبانيا خلال القرون الوسطى » لغارثيا دي فالديافيا :

Garcia de Valdeavellano, Origines de la burguesia en la Espana medieval, Madrid, 1969.

12 ) هنـاك دراسة حديثة حـول الشعر الاشبيلي في إطـاره الاجتماعي ( محمد ماجد السعيد ، المصدر السابق ) ، ومن جهـة أخرى ، شكلت الوحدة في شعر المعتمد بن عباد موضوع أطروحة لنيل الدكتوراه وبرزت هذه الدراسة كعمل مركز وأصيل « الشكل والتركيب في شعر المعتمد بن عباد » لرايموند شايندلين :

Raymond Scheindlin, Form and Struveture in the Poetry of al - Muctamid Ibn - ( Abbad, Leiden, 1974 ).

كما قام الدكتور رضى السويسي بدراسة المواضيع الواردة في شعر المعتمد :

Ridha Souissi, Al Muctamid Ibn Abbad et son oeuvrs poetigue, étude des thémes, Tunis, 1977.

13 ) عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق، صفحات 175 ، 177 ، 191 .

14 ) تعكس درجة تعريب الخاصة مثلا في روعة الشعر المعـاصر إلا أن هذا الامر لا يلغي احتمال استعمال اغات أو لهجات أخرى في الاندلس ، خصوصاً عند اعتبار ضالة المصادر التي وصلتنـا حول الدارجات المستعملة في الاندلس إذ يصعب علينـا حالياً الوصول إلى استنتاجات نهائية في الموضوع .

15 ) أسس بنو زيـري دولتهم في غرنـاطة واستمر حكمهم طوال عهد الطوائف حتى استسلم عبد الله بن بلقين للمرابطين سنة 443 هـ ـ 1090 م . « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحات 151 ـ 154 .

16 ) أبو الحسن علي بن بسـام الشنتريني ، « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، القسم الثالث ، ج 1 ، تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيـا ـ تونس ، ص 136 ـ 143 .

17 ) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، القسم الاول ، ج 1 ، تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيا ـ تونس ، ص 481 .

وابن عذاري ، « البيان المغرب » ، ج 3 ، المصدر السابق ، صفحات 124 ـ 125 ـ 135 .

18 ) عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص 32 .

19 ) نفس المصدر .

20 ) هناك أوصاف مختلفة لهذه المجموعة من الوزراء في عدة مصادر منها : ابن عذاري ، « البيان المغرب » ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص 195 و « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص 15 . وأبو محمد عبد الواحد المراكشي ، « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » تحقيق محمد العربي العلمي ، القاهرة 1949 ، ص 37 .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الابار ، « الحلة السيراء » ، ج 1 ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة 1963 ، ص 37 .

21 ) « الذخيرة » القسم الثاني ج 1 المصدر السابق ، ص 15 .

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، « كتاب العبر . . » ج 4 ، القاهرة 1284 هـ ، ص 156 .

22 ) نفس المصدر .

23 ) ابن عذاري ، ج 3 المصدر السابق ص 195 . والمراكشي « المعجب » ، المصدر السابق ص 51 . وأبو عبد الله محمد بن عبد الله لسان الدين ابن الخطيب ، « أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما ينجر لذلك من شجون الكلام » ، تحقيق إ . ليفي بروفنصال ، الرباط 1934 ص 178 . وابن الابار « الحلة . . » ج 2 المصدر السابق ، ص 37 و « الذخيرة » القسم الاول ج 2 ص 485 .

24 ) ومن جهة أخرى ، كانت كل من مملكة ليون وقشتالة تحت حكم الفونسو السادس والمغرب تحت حكم يوسف بن تاشفين أرقى من مجموعة دول الطوائف عسكرياً ، وقد أبرز إ . لوري ( E.Lourie ) أهمية البعد العسكري في إسبانيا المسيحية في مقالة تحمل عنوان « مجتمع منظم للحرب : إسبانيا في القرون الوسطى » :

E. Lourie, A Society Organised For War: Spain in the Middle Ages, Past and Present, n° 5. ( 1966 ) pp. 54-79.

وذهب د . أنجوس ماكاي في نفس الاتجاه في كتابه : « إسبانيا في القرون الوسطى ، من منطقة حدود إلى إمبراطورية ، 1000 ـ 1500 » :

Angus Mackay, Spain in the Middle Ages, From Frontier to Empire: 1000 — 1500
London and Basingstoke 1977 p p : 15 — 35 .

25 ) ومع ذلك، هناك عوامل أخرى إضافة إلى المستوى الاقتصادي والثقافي المتطور دفعت يوسف بن تاشفين إلى احتلال دول الطوائف ومن أهمها العامل الاديولوجي ، ومن جهة أخرى ، يصعب تحديد الدافع الحقيقي لاتخاذه قرار احتلال دول الطوائف لانه كان قليل الكلام . فعلى سبيل المثال ، انظر جوابه المختصر لرسالة الفونسو السادس تحداه فيها لمواجهة عسكرية قبل معركة الزلاقة سنة 478 هـ . ـ 1085 م . ( مؤلف مجهول ، « الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية » ، تحقيق إ . س . علوش الرباط 1936 ، صفحتا 29 ـ 30 وشهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي ، « كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ، القاهرة 1298 هـ . ص 4 ) .

26 ) يصف الامير عبد الله بن بلقين رفض الاندلسيين للمشاركة في الشؤون السياسية وترددهم للانضمام الى الجيش . وكمثال لذلك ، يذكر المعاهدة بين المنصور بن أبي عامر والفلاحين الاندلسيين بحيث أعفاهم المنصور من الخدمة العسكرية مقابل ضرائب سنوية ساهمت في مساندة الجيش ( عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص . 17 ) .

27 ) « الذخيرة . . . » ، القسم الاول ، ج 2 ، ص . 602 .

28 ) نظم يوسف بن النغرالة مخططاً للاستيلاء على غرناطة إلا أنه فشل في تنفيذه ، الامر الذي أدى الى ثورة العامة ومجزرة ذهب اليهود في غرناطة ضحية لها ، وذلك في يوم 10 من شهر صفر 459 هـ . ـ 1069 م . ( عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحتا 54 ـ 55 ) .

29 ) وكانت النتيجة أن عبد الله بن سلامة الذي شغل منصب صاحب المدينة عند وقوع هذه الحادثة في 13 من شهر ذي الحجة 462 هـ . ـ 1072 م . باشبيلية ، استنجد بالمعتضد بن عباد الذي كان يوجد في قرطبة فكلف هذا الاخير وفداً هاماً بحل هذا النزاع ووضع نهاية للاضطرابات الاجتماعية الناتجة عنه ( « الذخيرة . . . » القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص . 418 ) .

30 ) مثلا ، وجهت اتهامات ضد المعتمد بن عباد بشأن فرضه ضرائب غير شرعية على رعيته وتعامله مع الملك المسيحي الفونسو السادس مما دفع العلماء بتحريض يوسف بن تاشفين وأمره باحتلال إشبيلية ( عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحتا 169 ـ 170 ) .

31 ) كانت ثورة ليوسنة في دولة غرناطة الطائفية في عمقها عبارة عن احتجاج على الضرائب الثقيلة التي فرضها عبد الله بن بلقين على سكانها . وبمجرد انتباه عبد الله الى الاسباب العميقة لهذه الثورة ، فضل مفاوضة زعمائها بحيث وافق على تحديد قيمة الضرائب ( نفس المصدر ، ص . 131 ) .

32) إن مصطلح الصقالبة يعني العبيد البيض الذين عملوا في بلاطات حكام بني أمية بحيث تمتعوا بنفوذ سياسي كبير . وحكم الصقالبة في عهد دول الطوائف بعض الدول الطائفية في شرق الاندلس مثل المرية ودانية . وهناك دراسة حول هذه المجموعة للدكتور العبادي ( أحمد مختار العبادي ، « الصقالبة في إسبانيا » ، مدريد ، 1953 ) .

33 ) تطرق الامير عبد الله بن بلقين لاستبداد يوسف بن النغرالة بالحكم في عهد باديس بن زيري ولاغتياله بلقين بن باديس ( وهو والد عبد الله ) نظراً للعداء الذي أظهر بلقين نحو ابن النغرالة ( عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص . 40 ) .

34 ) يتناقض الشتم الذي لجأ اليه عبد الله كلما ذكر يوسف بن النغرالة ( مثلا يصفه بالخنزير ، نفس المصدر ، ص . 50 ) مع إعجابه بأبي إبراهيم إسماعيل بن النغرالة والد يوسف ( نفس المصدر ، صفحتا 31 ـ 32 ) .

35 ) نفس المصدر ، ص . 131 .

36 ) ابن عذاري المراكشي ، « البيان المغرب . . . » ، ج . 3 ، المصدر السابق ، ص . 312 . وعبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحات 90 ـ 95 .

37 ) « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص . 610 . والقسم الثاني ، ج . 1 ، ص . 268 ـ 269 . وابن الخطيب ، « أعمال الاعلام » ، المصدر السابق ، صفحتا 173 ـ 174 .

38 ) هناك احالات لاحتلال الفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ . ـ 1085 م . في عدد كبير من المصادر ( أنظر مثلا ألفونسو العاشر وسانشو الرابع ، « أول تاريخ هام لاسبانيا » :

Alfonso X and Sancho IV, Primera cronica general de España, ed, by Ramon Menéndez Pidal, vol. 2, Madrid, 1955, pp. 530 - 31

و « الذخيرة » ، القسم الرابع ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص . 163 ـ 169 . وعبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدو السابق ، صفحتا 76 ـ 77 . وابن الكردبوس ، « كتاب الاكتفاء . . . » المنشور في كتاب « تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط » ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، مدريد ، 1971 ، ص . 78 ـ 87 . وأبو العباس أحمد بن خلكان ، « وفيات الاعيان في أنباء الزمان » ، تحقيق د . إحسان عباس ، ج . 5 ، بيروت ،

1968 ـ 1972 ، صفحتا 27 ـ 28 . وأبو الحسن علي بن محمد بن الاثير ، « الكامل في التاريخ » ، ج . 5 ، بيروت ، 1967 ، ص . 138 ) .

39 ) عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحتا 175 ـ 176 .

40 ) « الذخيرة » القسم الرابع ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص . 94 . وابن عذاري ، « البيان المغرب » ، ج . 3 ، المصدر السابق ، صفحتا 133 ـ 134 . والمراكشي ، « المعجب » ، المصدر السابق ، ص . 51 . ومؤلف مجهول ، « الحلل الموشية » ، المصدر السابق ، ص . 36 .

41 ) عبد الله بن بلقين « كتاب التبيان » المصدر السابق ص 43 .

42 ) نفس المصدر صفحتا 112 ـ 113 و « تاريخ رودريكي » لمؤلف مجهول الاسم :

Anonymous, Historia Roderici, ed, by Ramón Menéndez Pidal in La España del Cid, vol. 2, Madrid, 1929, pp. 930—31.

43 ) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي « صبح الاعشى في صناعة الانشا » ج 5 ( مصور عن طبعة العامرية ) القاهرة 1963 ص 185 .

44 ) نفس المصدر .

45 ) أبو العباس أحمد بن محمد المقري « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » ج 1 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة 1949 ص 210 .

46 ) نفس المصدر ص 186 .

47 ) نفس المصدر ص 185 .

48 ) نفس المصدر صفحتا 186 ـ 187 .

49 ) نفس المصدر ص 187 .

50 ) نفس المصدر صفحتا 187 ـ 188 .

51 ) نفس المصدر ص 188 .

52 ) يتحفنا ابن بشكوال في « كتاب الصلة » بسيرة مئات الاشخاص من الطبقة المثقفة الحضرية الاندلسية من مختلف المدن في عهد الطوائف ، فعلى سبيل المثال ، ذكر أكثر من سبعين فقيهاً من إشبيلية .

53 ) القاضي عياض بن موسى السبتي ، « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » ج 1 تحقيق محمد بن تاويت الطنجي الرباط 1965 ص 27 .

54 ) ما تزال دراسة ميكيل اسين بلاثيوس حول ابن حزم التي تركز على فكره السياسي ومذهبه الشرعي أهم دراسة من نوعها ( ميكيل اسين بلاثيوس ، « ابن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للافكار الدينية » ) :

Miguel Asin Palacios, Abenhàzam de Cordoba y su Historia critica de la ideas religiosas, vol 1, Madrid, 1927 )

55 ) انظر في موضوع الدور السياسي للفقهاء في الاندلس إلى نهاية خلافة قرطبة « دور الفقهاء في الاندلس إلى نهاية الخلافة » :

Hussain Mones, Les hommes de religios dans l'Espagne musulmane jusqu'á la fix du Califat, Studia Islamica. vol. XX ( 1946 ), p p 47 - 88.

ونلاحظ أن حسين مؤنس بالغ في محاولته لاثبات فضل المذهب الشافعي على الاندلس واحتمال تأثيره في المذهب المالكي بالاندلس. كما أن هناك دراسة هائلة حول دخول المذهب المالكي ورسوخه في الاندلس والمغرب للدكتور محمد العروسي عبد القادر تحمل عنوان :

Muhammad al-Aroosi Abdul - Qadir, The Reception and Development of Malikite Legal Doctrine in the Western Islamic World, unpublished Ph. D. thesis, Edinburjh, 1973 .

57 ) « الذخيرة » القسم الثاني ج 1 المصدر السابق ص 96 .

58 ) فعلى سبيل المثال ، أحرقت كتب ابن حزم علانية بإشبيلية

( « الذخيرة » القسم الاول ج 1 المصدر السابق ص 169 ـ 171 ) كما عبر عن غضبه إثر ذلك الحادث في أبيات شعرية ( نفس المصدر ص 171 ) .

59 ) مثلا ، اشتكى عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة من الفقيه ابن سهل ، ومن آخرين عندما شوه هذا الأخير صورته أمام يوسف بن تاشفين ورسم صورة سوداء للطريقة التي مارس بها عبد الله حكمه وللاوضاع في غرناطة عامة ( عبد الله بن بلقين « كتاب التبيان » المصدر السابق صفحتا 169 ـ 170 ) .

60 ) « واستطاع البربر بزعامة بني حمود ، أن يسيطروا زهاء ثلث قرن ، على المثلث الجنوبي في شبه الجزيرة الاسبانية ، وأن يقيموا لهم ملكاً وخلافة...

وأسفر النضال بين هذه القوى الخصيمة ، بعد فوز البربر برئاسة المناطق التي سبق ذكرها ، عن فوز الأسر العربية بمعظم القواعد الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية والمرية . واستطاع الفتيان العامريون أن يبسطوا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى المرية لفترة قصيرة » (60) .

( محمد عبد الله عنان ، « دول الطوائف » الطبعة الثانية القاهرة 1969 ص 14 ) إلا أن بعض المؤرخين العرب انتقدوا المنهج العرقي لدراسة دول الطوائف منهم حسين مؤنس الذي قال : « هل يمكن تصنيف الممالك حسب انتماءاتهم الاثني : طوائف عربية وطوائف بربرية وطوائف صقلبية ؟... لا يمكن اعتبار أي منهج من المناهج التي اتخذت إلى يومنا مقبولا أو ملائما... » :

« Se pueder clasificar los reyezuelos según su filiación étnica : Taifas árabes, Taifas beréberes y Taifas eslavos ? . . .
Ninguno de los métodos seguidos hasta ahora es ceptable ni resulta adecuado » ( Hussayn Monés,
Sobre la época de los Reyes de Taifas, Al - Andalus, vol, XXXI (1969) p. 320 ).

61 ) لقد عمل سيسنندو دافيديث في البداية في بلاط المعتضد بن عباد ثم التحق فيما بعد ببلاط فرناندو الاول ثم الفونسو السادس . حول سيسنندو انظر « الكنت المستعرب سيسنندو دافيث وسياسة الفونسو السادس مع الطوائف »

لغرسيا غومز ومنتديث بيدال :

Ramón Menéndez Pidal and E García Gómez, El conde mozárabe Sisnando Davidiz y la politica de Alfonso VI con los Taifas, Al—Andalus, vol. X II, ( 1947 ), p p. 27 — 41.

62 ) وصف بونس بويكس ابن حيان كالتالي :

« بتصويت أغلبية المهتمين بدراسة التأريخ العربي - الاسباني ، يحتل هذا الكاتب الغزير الانتاج منزلة مفضلة بين مؤرخينا المسلمين » :

" Por voto unanime de los que se han occupado en el estudio de la historia grafia arabigo - españole, ete Fecundo escritor . . . occupa el puesto de preferencia entre nuestros historiadores musulmanes » ( Francisco Pons Boigues, Los historiadores y geóg.afos arábige - españoles, repr. Amsterdam, 1972, p 152 ).

وحتى نؤكد هذه القضية نشير إلى اقتباسات أبـرز المؤرخين الاوربيين في الدراسات الاندلسية منها ما يلي :

« ابن حيان ، المؤرخ الحكيم للاندلس » :

« Abenhayán el juicioso historiador de la España musulmana » ( Miguel Asir y Palacios, Abenházam de Cordoba y su historia critica de la ideas religiosas vol. 1. Mardrid, 1927 p. 208 ).

و « يظهر المؤلف - ابن حيان - روحا متطورة وصدراً رحبا وحرية ورشداً حتى انني أذهب إلى القول إنها تقريباً مأخوذة من الروح العلمية الاوربية » :

« L'auteur ( Ibn Hayyán ) montre un esprit dévoloppé et étendu. libre et male. je dirai presqu'il est emprunė de l'espéer » (R. P. A. Dozy Bayano. I Mogreb. p. 73. cited by Claudio Sanchez - Albornoz En torno al Feudalismo. op cit. p 257 )

63 ) كلاوديو سانشيس البورنوث : « حول أصول الاقطاع » :

Claudio Sanchez -Albonoz En torno a los origines del Feudalismo, opicit, p.p. 260 — 61.

64 ) ذكر كارل بروكلمان أن نسخة من كتاب « المتين » في ستين جزء كانت موجودة في مكتبة تونس ولكنها ضاعت ولم يعثر عليها بعد :

( Carl Brockelman, Geschichte Der Arabicher Litteratur. G I p. 338)

65 ) نجد ذكر كتاب « المتين » ونقل اقتباسات منه في عدد من الكتب ومنها الكتب التالية : « الذخيرة » و « الحلة السيراء » و « المغرب في تلخيص أخبار المغرب » و « أعمال الاعلام » و « المغرب في حلى المغرب » و « نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب... » وان هذه العناوين التي اخترناها تعكس التأثير العميق لكتاب « المتين » على مؤلفين في مجالات مختلفة عبر مدة تفوق خمسة قرون .

66 ) « الذخيرة » القسم الاول ج 2 المصدر السابق ص 87 .

67 ) نفس المصدر .

68 ) افتتح ابن حيان مقدمته بأسلوب يطغى عليه الشعور بالتقوى والتدين بحيث عبر عن علاقة الانسان بربه وما إلى ذلك .

( نفس المصدر ص 85 ـ 86 ) .

69 ) نفس المصدر ص 87 .

70 ) نفس المصدر ص 90 .

71 ) « الذخيرة » القسم الثاني ج 1 نفس المصدر ص 25 .

72 ) « الذخيرة » القسم الثالث ج 1 المصدر السابق ص 136 ـ 143 .

73 ) « الذخيرة » القسم الثاني ج 1 المصدر السابق ص 24 .

74 ) نفس المصدر ص 25 .

75 ) « الذخيرة » القسم الاول ج 2 المصدر السابق ص 578 .

76 ) ما زال المرحوم ملشور انطونيا يعتبر من أبرز المتخصصين في ابن حيان ، راجع مثلا مقالة « ابن حيان القرطبي وتاريخه للاندلس » :

Melchor Antuña Ibn Hayyan de Cordoba y su historia de la España musulmana, Cuadernos de Historia de España, vol IV (1945) pp. 5—71

77 ) « الذخيرة » القسم الاول ج 2 المصدر السابق ص 576 .

78 ) أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي ، « البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب » ، ج 3 تحقيق إ . ليفي بروفنصال باريس 1930 ص 59 ـ 62

79 ) نفس المصدر ص 60 .

80 ) نفس المصدر ص 112 .

81 ) « الذخيرة » القسم الاول ج 1 ص 481 ـ 482 .

82 ) أشار إفرست ليفي بروفنصال محقق « كتاب التبيان » إلى أهمية مذكرات عبد الله بن بلقين بالعبارات التالية : « يتعلق الامر في الوقت ذاته بوثيقة سيكولوجية من الدرجة الاولى بحيث تمكننا أكثر من غيرها من التواريخ المتأخرة وأن نحكم على حالة التفكك الاجتماعي والسياسي لاسبانيا الاسلامية قبل معركة الزلاقة وعلى التطور الذي حققه خلال تلك الفترة ابطال حركة الاسترجاع المسيحي . وتعتبر رواية الاحداث التي سبقت حكم الامير عبد الله نفسه جديدة للغاية وكثيرة الاهمية . ويجب اعتبـار مذكرات عبد الله امير غرناطة منذ الفترة التي ينتهي فيها تاريخ ابن حيان صلة وصل عبر التاريخ المرتبك لملوك الطوائف ... » :

« C'est en même temps un decument psychologique de premier ordre, qui permet beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et polititque de l'Espagne musulmane avant la bataille d'al-Zallaga et des progés accompits á cette épaque par les champions de la Reconguête chretienne. Le récit. des évenements antérieurs au propre régne de l'émier « Abd Allah est également Fort nouvean et Fort important, Les Mémoires du prince de Grenade doivent être considerées à partir de l'épogne ou ou prend Fin la chronique d'Ibn Hayyan, comme un filconducteur á travers l'histoire confure

( « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ص 5 ) :

des Tawaif» ( Abd-Allah b. Buluggin, Kitab at - tibyan, op cit p.5

83 ) نفس المصدر ص 69 ـ 73 ـ 95 ـ 100 ـ 136 ـ 138 .

84 ) نفس المصدر ص 76 ـ 77 ـ 104 ـ 106 .

85 ) وكان عبد الله واعياً بخطورة السلطة التي يتمتع بها الفونسو السادس وباستغلاله الخلافات بين ملوك الطوائف اصالحه .
( نفس المصدر ص 69 ) .

86 ) اصبحت الخلافات بين ملوك الطوائف واضحة وضوحاً تاماً عندما استمرت بعد انتصارهم على الفونسو السادس في معركة الزلاقة بالرغم من المحاولات التي قام بها يوسف بن تاشفين بهدف توحيد صفوفهم .
( نفس المصدر ص 106 ـ 107 ) .

87 ) ولا نستغرب في خوض عبد الله كان يعبر عن شكوكه ودوافعه الخ . . . على المستوى الشخصي في كتابه اعتباراً لكونه كان يشكل مذكراته .

88 ) نجد اقتباسات مباشرة توضح نوايا الفونسو السادس في إطار تطرق عبد الله لمفاوضته المباشرة مع الفونسو . ( نفس المصدر ، ص . 72 ـ 73 ) .

89 ) مثلا ، نقل لنا اقتباساً مباشراً نسبه الى سسناندو دافيديث الذي أخبره بنوايا الفونسو لاحتلال الاندلس ، « وكنا نحن نعلم هذا من مذهبه ، على ما كان يخبر به وزراؤه . ولقد قال ذلك ششلاند في حال هذه السفرة ، وشافهنا بذلك ، وقال : إنما كانت الاندلس للروم في أول الامر ، حتى غلبهم العرب ، وألحقوهم بأنحس البقاع : جليقية ؛ فهم الآن عند التمكن ، طامعين بأخذ ظلاماتهم ! فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف ! » ( نفس المصدر ، ص . 73 ) .

90 ) نفس المصدر ، ص . 136 ـ 138 .

91 ) نفس المصدر ، ص . 86 .

92 ) « ومتى كان المعتمد يسعى في تعدين الامر ، وتروم معه الصلح ، أو تنشأ معادنة ، لا ينام ( ابن عمار ) في نقضها وإشعال نار الفتنة » . ( نفس المصدر : ص . 72 ) .

93 ) نفس المصدر ، ص . 82 ) .

94 ) ابن عذاري ، « البيان المغرب » ، ج . 3 ، المصدر السابق ، ص . 199 . وعبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص . 90 ـ 95 .

95 ) « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص . 610 . وابن الخطيب ، « أعمال الاعلام » ، المصدر السابق ، ص . 106 ـ 107 .

96 ) عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص . 106 ـ 107 .

# الفصل الثـاني

## الاتجـاهـات الاقتصاديـة في الاندلس خـلال فتـرة دول الطوائف

إن المعرفة المتوفرة لدينا عن العوامل الاقتصادية ، والتحولات ، والاضطرابات التي أثرت في تاريخ الاندلس أثنـاء القرن الخامس للهجرة محدودة ، ومثل هذا يصح أن يقال أيضاً بالنسبة لتاريخ الاندلس بوجه عام ، ومن المسلم به أن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً أساسياً في تطور تاريخ الاندلس خلال فتـرة الطوائف ؛ غيـر أن الـدراسات المتمحورة حول المعطيات الاقتصادية والمالية ومساهمتها في الوضع

العام نادرة . إلا أن أهم الاتجاهات الاقتصادية لتلك الفترة تتضح لنا أكثر كلما ازداد فهمنا للتاريخ السياسي وأكتمل مفهومنا عن المجتمع الاندلسي فى ذلك العصر خاصة من خلال الدراسات التاريخية والادبية المتأخرة . ونلاحظ أن المؤرخين الاسبان قد أولوا اهتماماً ملحوظاً للتاريخ الاقتصادي للاندلس حديثاً . ونشير إلى أن هذا الفصل سيحاول أن يبرز الاتجاهات الاقتصادية الاساسية التي ظهرت فى القرن الخامس للهجرة وذلك على ضوء الخطوط العامة التي رسمها هؤلاء المؤرخون .

كثير من مؤرخي القرون الوسطى أغفلوا الواقع العام للعوامل الاقتصادية وتأثير هذا الواقع في تطـور التاريخ الاندلسي خلال عصر دول الطوائف وذلك لعدة أسباب يمكن تحديدها ، لذلك فالمؤرخ الذي يحاول أن يحلل الجوانب الاقتصادية لتلك الفترة لابد وأن تعترضه عدة صعوبات ، أهمها ندرة المصادر على الرغم من أنها إذا قيست بمصادرنا عن فترة بني أمية كانت أوفر عدداً . ولا يمكن الحصول على المعلومات حول المعطيات الاقتصادية إلا بشكل غير مباشر. إن نقص المعلومات فى المصادر التاريخية الاولية إنما هو ناتج أساساً عن شكل المعالجة التي تبناها مؤرخو العصر الوسيط ، سيما وأنهم قد أهملوا البعد الاقتصادي لاعتبارهم أنه لا صلة له بالموضوع ، مركزين اهتمامهم ـ في مقابل ذلك ـ على الجوانب السياسية والدينية للحياة الاجتماعية .

إلا أنه لا يصح لنا اعتبار مؤرخي العصر الوسيط مسؤولين كلية عن جهلنا النسبي في هذا الشأن ، ذلك أن المختصين الغربيين فى

الدراسات الاسبانية كانوا غالباً عاجزين عن تخطي صعوبة مهمة هي تناولهم المباشر للمصادر الاولية . ويعود ذلك إلى معرفتهم المحدودة للغة العربية أو جهلهم لها ، وبعكس ذلك فالمؤرخون العرب الذين كان في متناولهم الوصول إلى المصادر الامهات لم يظهروا قدرة كبرى على الافادة من تلك المصادر في كتاباتهم . أضف إلى ذلك أن مؤرخي العصر الوسيط المحدثين ينقصهم التكوين في المجال الاقتصادي وذلك ما يجعلهم يغفلون أهمية هذا البعد في البحث. ونجد في ذات الوقت أن الاقتصاديين وقد تسلحوا بشكل أفضل لدراسة التطورات الاقتصادية المعاصرة يتجهون إلى دراسة التطورات الحديثة لأنها أمتع من دراسة تلك التطورات التي حدثت في القرون الماضية . ونحن نولي الاهتمام - عادة - للتطورات والمشاكل الاقتصادية المعاصرة أكثر من نوليه للتطورات الاقتصادية التي حدثت في الماضي ، وذلك لأنها تمس بشكل مباشر حياتنا وذلك ينتفي بالنسبة للماضي . ونستطيع نظرياً أن نباشر دراسة العمليات الاقتصادية للعصر الوسيط بصفة أكثر موضوعية لاننا نمتاز بخصيصة التفات إلى الخلف : ( Hind Sight ) فالاحكام المسبقة وأحكام القيمة . والافكار الجاهزة التي تطبع حتما كل تناول للاحداث المعاصرة ، لا تنطبق هنا على المسارات الاقتصادية الماضية . وحين يتعلق الامر في النهاية بالماضي فإن المتخصص في التاريخ الاجتماعي يمتاز بالقدرة على دراسة الاتجاهات الاقتصادية في شكلها الاعم ، أي حين تصل إلى مرحلتها النهائية أو على الاقل مرحلة يسهل تصورها بصفة شمولية .

وبما أن الاتجاهات الاقتصادية قد كونت بعداً بالغ الاهمية في مجال التطورات التاريخية العامة خلال حقبة دول الطوائف فإنه يجب دراستها بصفتها عنصراً مكملا للابعاد الاجتماعية والسياسية لا ينبغي الاستغناء عنه . فكل هذه الابعاد تحدد العوامل الاقتصادية تطوره الداخلي الخاص بكل دولة - طائفية كما أنها تحدد العلاقات بين الاندلس - باعتبارها كياناً - وإسبانيا المسيحية من جهة ، والمغرب الكبير من جهة أخرى . كانت دول الطوائف دولا هشة ومنقسمة داخليا لافتقادها قاعدة تضمن لها تكوين كيان سياسي صلب له وجود اجتماعي مستقل ، وبذلك كانت معرضة للهجوم سيما وأنها كانت غالباً ما تتبادل العداء . وإنها برغم استقلالها الذاتي سياسياً فقد كان وجودها السياسي مهدداً باستمرار سواء على الصعيد المحلي أو الخارجي ، وكان تكوينها ذاته ضعيفاً ، إذ تعوزها الشروط الاساسية لدولة ذات سيادة دون أن تكون مرتبطة بسلطة مركزية بصفتها مناطق شبه مستقلة أو مرتبطة في شكل اتحادات . يعتبر سكان دول الطوائف - اجتماعياً - جزء من المجتمع الاندلسي مرتبطين به بموجب الإرث اللغوي والثقافي المشترك وبفعل تكوين بنيوي مشترك أيضاً . بالاضافة إلى ذلك وبغض النظر عن الحدود الترابية التي تفصل مختلف دول الطوائف ، فقد كان يوحدها شعور بهوية جماعية واحدة فأعضاء بلاط بني عباد في إشبيلية مثلا وهيئة الفقهاء الذين كانوا يقيمون بهذه المدينة طيلة تلك الفترة ، كل ذلك يعكس ، عند التمحيص ، التنوع الكبير لاصول الشخصيات المرموقة

التي كانت تقيم بالمدينة والتي وفدت من مناطق مختلفة من الاندلس. وكذلك الامر بالنسبة لباقي دول الطوائف. وقد كانت الهجرات داخل الاندلس ظاهرة عامة، وانتشار الحركية الاجتماعية العمودية ذاتها جد واسع في عهد ملوك الطوائف. وإذا كانت التناقضات العديدة التي تتجاذب تلك الدول قد أعطت المجال لظهور وضعية عامة من عدم الاستقرار، فإن ذلك لم يؤثر كثيراً على الاندماج الاجتماعي، غير أن ذلك اللا استقرار العام ساهم بطريقة لها دلالتها في الاسراع في الانحطاط الاقتصادي.

وتتجلى الاتجاهات السياسية والاجتماعية العامة (1) بوضوح في السياق الشامل للعلاقات بين دول الطوائف والدول المسحية في الشمال الايبيري. لقد كان المجتمع المسيحي قرويا في حين أن المجتمع الاندلسي كان - حضرياً - إلى حد بعيد، ويبدو التعارض بين المجتمعين أوضح فيما يتعلق بالثروات ومستويات العيش إذ كان المجتمع الاندلسي يعد من أكثر المجتمعات تمدناً ورفاهية في العالم الاسلامي. غيرأن التعارض فى المجال العسكري كان لصالح المسيحيين إذ كانوا أفضل تجهيزاً واستعداداً للمعارك بفعل وحدة قوية تحققت على الخصوص، حول عرش ليون وقشتالة في حين أن القدرة العسكرية لدى دول الطوائف، وقد كانت محدودة إذ ذاك، قد تناقصت تدريجياً طيلة القرن الخامس نتيجة تفككها. وقد استنفذت سياسة ابتزاز الجزية التي كانت تمارسها الدول المسيحية على دول الطوائف طيلة الجزء الاكبر من ذلك القرن كل قوة تلك الدول

على الصعيد المالي (2) .

وكانت النتائج السياسية والاقتصادية أخطر من ذلك إذ أدت بدول الطوائف إلى تفككها تمهيداً لغزوها ، إلا أنه إن كانت الجوانب الاقتصادية لهذه السياسة أوضح فإن للجوانب السياسية والعسكرية أهمية قصوى أيضاً. فنتيجة للقوة العسكرية المتصاعدة لألفونسو السادس وللسيد رودريكو دياث ( Rodrigo V. Diaz ) وكونث برشلونة برنكر الثاني ( Beangeur ) تمكنوا من الضغط على دول الطوائف لترضخ فتدفع جزية تتزايد شروطها قساوة وكذلك نتيجة للمناورات السياسية الذكية التي قامت بها الدول المسيحية وسلسلة المساومات التي كان ملوك الطوائف يستسلمون لها فيقبلون شروطاً غير معقولة بتاتا .

إلى جانب ذلك كانت سياسة فرض الجزية مبرمجة بدقة ومنفذة وذلك بقصد الوصول إلى أهداف قصيرة المدى هي الحصول على أقصى ما يمكن من النقود من دول الطوائف بشكل انفرادي بدل أن يكون جماعياً ، وإما بغرض الوصول إلى أهداف بعيدة المدى تتمثل في إضعافها إلى درجة يصبح معها غزوها ضرورة مفروضة .

ولم يستطع الفونسو السادس أن يغزو دول الطوائف بسبب التدخل الخارجي الذي قام به يوسف بن تاشفين ( موقعة الزلاقة سنة 479 هـ . ـ 1086 م . وغزو الاندلس الذي تلاها ) . غير أن ميزان القوى مال في تلك الاثناء لصالح إسبانيا المسيحية انطلاقاً من يوم احتلال طليطلة سنة 478 هـ . ـ 1085 م . بحيث انطلقت منها الحرب البعيدة المدى لاستعادة الاندلس .

وفي ختام هذه المقدمة يجدر بنا أن نشير إلى تحديد غاية هذه الدراسة . وهي تتمثل فى مناقشتنا العوامل الاقتصادية وتحليلها غير أننا لا ننوي اعتماد منهج « نقدي » أو « مالي » يفسرمصيردول الطوائف .

من الصعب تقنياً أن نقوم ثقل العوامل النقدية بالنسبة لثقل العوامل غير النقدية . فتناول مثل هذا يفترض أنه باستطاعتنا تحديد عملة المحاسبة التي تقدمها دولة طائفية ما حتى نستطيع حساب مجموع انخفاض القيمة ، ومبدئياً كان يمكن أن نفعل ذلك لو أن عملة المحاسبة لم توجد بصفتها عملة جارية ، وذلك باستخدام المعطيات المتعلقة بوزن القطع النقدية المتداولة وطبيعة معدنها ، وبعبارة أخرى فإن تزييف العملة يمكن أن يبرز لنا بداهة انخفاض القيمة ، وفي هذه الحالة نستطيع أن نكون فكرة عن حصيلة التضخم فى الاندلس مع اعتبار المتغيرات السكانية من وجهة أخرى .

غير أن مصادرنا الحالية لا تسمح لنا بالقيام بهذه المعالجة ، التي تتضمن خطر تحريف الحقيقة التاريخية ، وذلك بإخضاع التاريخ الوسيطي للتحليلات الاقتصادية الكلاسيكية . وكذلك لن نستند إلى العوامل النقدية إلا لكي نلقي الضوء على الاتجاهات الاقتصادية في السياق الشامل للخلفية الاجتماعية والسياسية .

## 1 ـ الخصائص الاقتصادية الاساسية :

### أ ـ اليد العاملة والثروات المادية .

لقد كانت اليد العاملة والثروات المادية طيلة القرن الخامس الهجري قادرة على توفير اقتصاد مزدهر ومتطور وكان المستوى

الرفيع من التعليم الادبي والعلمي في الاندلس سـواء في الاوسـاط الـدينية أو غيرها يساير المستوى الرفيع أيضاً في الحرف المختصة وتقنيـات السقي ودنـامية النشاط التجاري . وكان الرصيد القيـم للاندلس إذن هو الامكانات البشرية التي كانت تسمح باستغـلال فعال للثروات المـادية . وربما كان السر في الرخـاء النسبي الذي عرفه الاندلسيون يعـود بدرجة أولى إلى مهـاراتهم أكثر ممـا يعود إلى وفرة المـوارد . وفيما يتعلق بالمـوارد البشرية والمادية كان الاندلس يمثل تناقضا مثيراً للدهشة مع المناطق المسيحية الجبلية غير الآهلة في الجـزء الشمالي من شبه الجزيرة الايبرية ـ التي كانت مواردهـا الطبيعية نـادرة ـ من جهة ، ومع المنـاطق الشحيحة من المغرب الكبير من جهة أخرى .

غير أنـه بالرغم من أن المجتمع الاندلسي كان مندمجاً غير أن وضعيته الاقتصادية كانت مضطربة مما كان يؤثر حتماً على الانتاج في الاندلس . وأسبـاب هذا الاضطراب تعزى إلى مختلف العـوامل البشرية ولكن هذه المسألة نادراً ما نوقشت في إطار لغة اقتصادية . وهكذا فطيلة القرن الخامس الهجري وبعكس ما أدعي غـالباً فإن السبب الرئيسي لالوان الصراع والانقسامات داخل المجتمع الاندلسي لم يكن هو الصراع العرقي (3) . فالعرب والبربر والصقالبة والعناصر الاسبانية تمـازجت بصفة شاملة في مجتمع متجانس ثقافياً رغم انعدام التجانس العرقي فيه . والصراع الديني والايديولوجي كان مهماً ف المواجهة بين ملوك الطوائف والملوك المسيحيين فى الشمال ، ولكن

على المستوى الداخلي لم يسمح لليهود والمسيحيين الموجودين فى الاندلس بممارسة شعائرهم الدينية فقط بل كانوا محترمين ومحميين شرعياً ، ومن وجهة نظر اقتصادية كانت مساهمتهم إيجابية خاصة في القطاع التجاري والادارة المالية (4) .

ويمكن أن نفهم بشكل أفضل الاهمية الاقتصادية للطاقة البشرية في المجتمع الاندلسي إذا وضعنا فى الاعتبار مختلف الشرائح الاجتماعية واعتمدنا مستويات الحياة ومصادر الدخل والوضعية الاجتماعية معايير لدراسة هذه الشرائح . كان كل من الطبقة المحظوظة ( الخاصة ) ، والطبقة المتوسطة وطبقة الدهماء المحرومة ( العامة ) ، تسهم فى نظام اقتصادي مزدوج يرتكز على الزراعة والتجارة الحضرية .

وكانت مختلف الشرائح الاجتماعية تنعش مصالحها الخاصة وتدافع عنها ولكن رغم الطابع التناقضي لهذه المصالح فإنها لم تكن تتصادم بصفحتها جماعات مصلحية ربما لغياب وعي جماعي . وبالاضافة إلى ذلك فإن الصراع الاجتماعي كان يحد منه الطابع المرن للمجتمع الاندلسي نظراً لكون الحركية الاجتماعية العمودية كانت جد مهمة طيلة فترة اضطرابات دول الطوائف . وفى النهاية كانت الاتصالات بين سكان مختلف أجزاء الاندلس جد متطورة وكذلك الهجرة خاصة إلى المدن الكبرى المتميزة بالاستقرار والازدهار . ويشهد على ذلك عدد كبير من الشخصيات الادبية والسياسية والقانونية المرموقة والتي يدل ما نجده مقروناً بأسمائها من نسبة لهذا البلد أو ذاك من بلاد الاندلس على مواطنها

الاصلية وهو ما أثر في تطور مجتمع أندلسي أكثر تفتحا وتجانسا .

وكانت العلاقات بين سكان المدن والمناطق القروية قوية ومتطورة أيضاً ، فرغم وجود مزارع مترامية الاطراف في بعض دول الطوائف مثل غرناطة ، فإن عدد القرى المزدهرة والحصون في دول أخرى مثل إشبيلية ، يكشف عن أن المجتمع الاندلسي لم يكن مجتمعاً إقطاعيا . فالبنيات الاقتصادية لدول الطوائف كانت متنوعة ولكنها كانت دائما تؤلف اقتصاداً زراعيا وحضريا حيث كان القطاع الزاعي والتجاري متكاملين . وكانت المناطق القروية توفر المواد الاولية الاساسية التي تجد سوقها في المدن، والتعاون والتبادل بين المناطق القروية والحضرية كان يؤلف حافزاً إيجابيا في الازدهار الاقتصادي ، ويتعلق الامر هنا مع ذلك بصورة عامة تختلف جزئياتها حسب تنوع مناطق الاندلس : وهكذا ففي حين أن بعض المناطق مثل دولة إشبيلية الطائفية كانت جد متمدنة نجد أن مناطق أخرى مثل غرناطة كان يطغى عليها الطابع القروي ، بالاضافة إلى ذلك كان التعاون والتواصل غالباً محدودين ليس فقط بفعل حالة الحرب المستمرة بين دول الطوائف ولكن أيضاً بفعل العزلة السياسية والجغرافية التي كانت تعيش فيها تلك الدول ، وبعبارة أخرى إن الاستقلال الذاتي السياسي لكل دولة طائفية يعني إلا حد ما كون نظامها الاقتصادي بالرغم من علاقاتها التجارية ، نظاما اقتصاديا يضمن الاكتفاء الذاتي . فالاستقلال الذاتي السياسي لدول الطوائف كان يواكب بالتالي، انعزالا اقتصاديا نسبيا مثلما كان الصراع العسكري

بينها ملازما لصراعها الاقتصادي . وتعتبر الموارد المادية في الاندلس وفيرة نسبيـا . ولم يعد ذلك إلى كون المنـاطق الاندلسية كانت محظوظة جغرافياً بالمقارنة مع مناطق المغرب العربي وشمال إسبانيا ، بل لانها كانت تستغل بطريقة أفضل نظـراً للمؤهلات الهـائلة التي امتـاز بها أهل الاندلس . وإذا استثنينـا السهول الخصبـة في جنوب غرب الاندلس المعروفة بمنطقة الغرب ( Algarve ) والمناطق المحيطة بضفتي الـوادي الكبير ونهـر الابرو ( Ebro ) علاوة على الحزام المكون من الجزء الجنوبي والشمالي من شواطيء البحـر الابيض المتوسط والجـزء الغربي والجنوبي من شواطيء المحيـط الاطلسي ، فإن إسبانيا تغطيها الجبال في الغالب إذ يصل علو بعضها إلى أكثر من ألف متر كما تغطيها أراضي جبلية وعرة يتراوح علوها ما بين أربعمائة وألف متر .

لقد نتجت الثروة المتراكمة في الاندلس طيلة القرن الخامس الهجري إلى حد بعيد عن الازدهـار الذي كانت تعرفـه الاندلس عندما كانت موحدة في ظل سلطة الخليفة الاموي ، وهكذا كان نظام الري المتطور في القرن الخامس الهجري مـأثوراً عن القرون السابقة . وممـا زاد في تشجيع الاستغـلال الفعـال للارض وللمواد الطبيعية تسهيلات وسـائل النقل البـري علاوة على وسـائل الاتصال النهرية ، خاصة عن طريق الوادي الكبير . وكانت التجارة بين دول الطوائف من جهة وبين الاندلس والمغـرب الكبير وإسبانيا الشمالية من جهة أخـرى ، تنعش النشاط الاقتصادي إلا أنـه بالرغم

من استمرار الانتاج خلال القرن الخامس للهجرة فإن الموارد الاندلسية لم تكن مستغلة بطريقة مثلى ، ويعود ذلك إلى سببين أساسيين : أولهما غياب بنية اقتصادية شاملة تتيح فرصة التنسيق والتكامل بين مختلف المناطق حتى يطبعها سير ملتحم ، وكان ذلك ناتجاً عن التجزئة السياسية للدول الطائفية. والسبب الثاني للحد من الامكانات الاقتصادية للاندلس هو النهب والتخريب وتحويل الموارد إلى الخارج بواسطة الضغوط السياسية والعسكرية التي كان يمارسها الملوك المسيحيون ، خاصة الملك الفونسو السادس والمغامرون الاقوياء مثل السيد القمبيطور رودريغو دييات أو الكومت برنغير الثاني حاكم برشلونة .

## ( ب ) النشاط الزراعي .

كان أهم قطاع في دول الطوائف هو القطاع الزراعي . وكان النشاط الزراعي قوياً في الاندلس ، غير أن الانتاج الزراعي كان يختلف كما وكيفا من دولة طائفية إلى أخرى ، تبعاً لاختلاف الظروف الجغرافية ودرجة الاستغلال ونمطه .

والاوصاف التي يمدنا بها الجغرافيون والرحالة والأدباء تعكس المستوى الرفيع للانتاج في الاندلس . وهذه الاوصاف المفصلة والدقيقة تشكل في غالب الاحيان المصدر الاساسي لمعلوماتنا . فبفضلها نستطيع أن نخرج بتصور لحالة النشاط الزراعي وطبيعتها وأهميتها على مر تاريخ الاندلس ، وإذا استطاع ليفي بروفنسال

وصف النشاط الزراعي في حقبة بني أمية (5) ، وإذا وجدت راشيل آربي مادة كافية لكي تذكر وفرة أشجار الزيتون والكروم في الفترة النصرية (6) ، فإن المؤرخ المهتم بدول الطوائف يجد هو الآخر مادة وفيرة عن ذلك النشاط .

إن غزارة الانتاج الزراعي طيلة القرن الخامس كان مردها جزئياً إلى نظام الري المتطور والذي كان يوفر استعمال العديد من مجاري المياه مثل الوادي الكبير ، وقد كان هذا النظام موضوعاً لعدة دراسات (7) ، غير أن دور اليد العاملة الماهرة التي كانت تقوم على تشغيله لم تدرس بشكل كاف ، لقد كانت الروح السائدة لدى الفلاحين والملاك العقاريين الاندلسيين تلعب دوراً مهماً في دوام الانتاج الزراعي وتزايده . وهناك عدة أمثلة تشهد على تلك الروح الدينامية الاندلسيين : فقد كتب الامير عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة أنه طيلة فترة حكم المنصور بن أبي عامر كان الفلاحون يرفضون الانضمام إلى الجيش بحجة عدم إمكانهم مغادرة أراضيهم ، وكانوا يتنازلون له عن حصة من محصولهم السنوي في المقابل (8) ، وفي نفس المصدر نجد باديس ، جد عبد الله بن بلقين ، يزيد مدخول حصن وادي آش ، ثاني حصن في غرناطة من حيث الاهمية ، وذلك بإبدال متصرفه على بن القروي بالوزير اليهودي يوسف بن نغرالة . (9) .

وفي القرن الخامس للهجرة وضعت هذه الروح موضع التشكك ، لقد اضطرب النشاط الزراعي في الاندلس قبل ذلك إثر هجمات

البعثات العسكرية ، غير أن نهب المحاصيل الناضجة من طرف الملوك النصارى مثل الفونسو السادس ومن طرف ملوك الطوائف أنفسهم وصل في القرن الخامس الهجري إلى درجة لم تعرف من قبل ، إن تكرار هذا النهب ودوامه طيلة فترة ملوك الطوائف قد أدى إلى خسائر جسيمة ؛ ومن المدهش حقاً أن نلاحظ أنه رغم تخريب الاراضي المزروعة فإن الاندلسيين لم يفقدوا أبداً الروح الدينامية التي كانوا يعملون بها في الانتاج الزراعي ، من المؤكد أن هذه الروح التي ظلت سائدة طيلة تاريخ الاندلس إلى فترة النصريين في غرناطة قد انتقلت بدورها إلى الموريسكين بعد أن استولى المسيحيون على الاندلس ، وقد عبر دييغو هورتادو دي ميندوثا ( Diego Hurtado de Mendeza ) ، الذي كان يحارب في صفوف المسيحيين ، عن إعجابه بالعمل الزراعي الذي كان الموريسكيون يواظبون عليه في فلاحة أراضيهم (10) .

وإذا نظرنا إلى الموضوع نظرة أوسع نجد أن نهب المحاصيل الزاعية كان نصيب اقتصاد دول الطوائف بضربة قاسية ولكنها لم تكن عائقا لا يتجاوز ، ذلك لان المحصول الزراعي يمكن تعويضه بعكس الاحتياطات المعدنية .

**( ج ) النشاط الصناعي .**

كان دور القطاع الصناعي في نظم دول الطوائف الاقتصادية مكملا لدور قطاعي الزراعة والتجارة . وكان الحرفيون يصنعون

منتجات تامة باستعمال المواد الاولية المتوفرة وبذلك يمدون الاسواق الداخلية المحلية بالعديد من تلك المنتجات وكذلك الاسواق الخارجية ولكن بنسبة أقل .

وليس لدينا تفاصيل عن تنظيم النشاط الصناعي في الاندلس سواء بالنسبة للقرن الخامس للهجرة أم بالنسبة للفترات الأخرى ، غير أن طبيعة ذلك النشاط وتنوعه ينعكس بشكل واسع في الانتاج الصناعي والذي نتوفر على معلومات أكثر بخصوصه فهذا القطاع - ولا ينبغي لنا أن نضخم أو نقلل من أهميته - كان موجهاً في في البداية لتلبية طلب الاسواق الداخلية ، وقد كانت المنتوجات الصناعية متنوعة في الكم والكيف : صناعة النسيج ( صوف ، حرير ) الخزف ( الأواني الطينية والقرمود ) وصناعة الجلود ( السروج ) صناعة التعدين ( من التسليح إلى صناعة القطع النقدية خاصة الذهبية والفضية ، التي كانت ترمز في الوقت ذاته إلى قوة الحاكمين ) البناء والهندسة المعمارية ( من إقامة نظم الري إلى بناء المساجد أو القصور التي اعترف الكل بعظمتها ) فن المخطوطات ( وتعكس وفرتها النشاط المهم للناسخين ) ، وقد بدع حرفيو بعض الدول في ميادين معينة : تشييد القصور البهية والعمارات العمومية بإشبيلية وبناء السفن الذي تطور كثيراً في دانية ( التي بعث ملكها مجاهد ابن يوسف العامري أسطولا لغزو سردينيا ( ربيع الثاني 406 هـ . - غشت - شتمبر 1015 م . ) (11) ، لقد كانت إذن صناعة كل دولة طائفية موجهة لتلبية حاجات تلك الدولة أساساً : أما التبادل بين

مختلف الدول فقد استمر في الازدهار غير أن النشاط الزراعي يجب اعتباره جزءاً من اقتصاد مبني على الاكتفاء الذاتي والذي كان غالباً في كل دولة من تلك الدول المتمركزة حول ذاتها .

(هـ) النشاط التجاري :

كان هناك تبادل دائم بين سكان المناطق القروية وسكان المناطق الحضرية ، وبالاضافة إلى النشاط السلعي المحلي في المدن والمناطق القروية المحيطية كانت التجارة أيضاً نشيطة بين مختلف المدن الاندلسية وقد أدى ذلك إلى تخصص مختلف المناطق بإنتاجات خاصة : إشبيلية كانت مشهورة بزيت الزيتون وصناعة الحديد (42) ولبلة بصناعة الزجاج (13) ، وقرطبة بالرخام الاحمر (14) ، إلا أن التبادل بين دول الطوائف لم يكن ليتم إلا بصفة تكميلية وذلك نتيجة العداء الذي كان سائداً بينها وكانت كل دولة تسعى لتكفي نفسها بنفسها ، وبالتالي كانت التجارة المحلية مكثفة ، إذ كل دولة تهدف إلى إشباع حاجاتها الخاصة قبل أن تفكر فى التبادل مقابل منتوجاتها الفائضة . وبالاضافة إلى ذلك فإن هم كل ملك من ملوك الطوائف أن يزيد ثروة تلك الدولة كان يثير حالة الحرب بين الدول مما أدى إلى إبطاء سير التجارة فيما بينها ، إلا أن تلك العوائق لم تكن كافية لايقاف التجارة نهائياً ، وكثافة النشاط التجاري سواء في خارج دول الطوائف أو فيما بينهما فى إطار المحيط التجاري المحكم تنظيمه كانت تعود أساساً إلى ازدهار المدن الكبرى مثل إشبيلية .

إن تعقيد النشاط التجاري بالاندلس قد أدى إلى تطوير قانون يحدد التنظيم وتوجد وسائل في الحسبة بالنسبة لمختلف الفتـرات التاريخية (15) ، ورغم أن وجود المحتسب وهو الموظف المكلف بمراقبة انتظام النشاط التجاري في أسـواق الاندلس هو أمر واقع فإننا نفتقد التفاصيل التي تسمح لنـا بدراسة سلطـاته ومسؤولياته ، بكل عمق والقيام بمقارنات بين مختلف المدن في فتـرات مختلفة بهذا الصدد (16) ، وقد رسمت كثير من الدراسات الخصائص العامة لهذه الوظيفة (17) ، في حين أن الدراسات المتعلقة بالتنظيم الحضري في الانـدلس قد ساهمت في إطلاعنـا على الخلفية والسمات الغالبة للسوق (18) .

وفي نهاية الامر نستطيع القول إن التجارة الدولية بين الاندلس والمغرب الكبير والمشرق وأوربـا كانت تكمل التجـارة المحلية داخل المناطق الحضرية بالاندلس . غير أن تلك التجارة وطيلة القرن الخامس الهجري تعرضت لصدمات خطيرة ، ولكي نقيس أهميتها الحقة يجب علينا تصورها في إطار موسع للتجارة فى العالم الاسلامي . لقد كانت الاندلس تشكل ملتقى طرق بين أوربـا والمشرق فيمـا يخص تجارة العبيد . وكانت تستورد كذلك الذهب من السودان ، المنطقة التي تمتد من السنغال إلى التشاد مروراً بالمراكز المغربية مثل سجلماسة . والمنتوجات الاخرى مثل الغراء وخشب أوربا وعلك إفريقيا الغربية كان أيضاً يأخذ مكانة مهمة . وفي المقابل كانت الاندلس تصدر المنتوجات الزراعية مثل زيت الزيتون ، ومنتوجات

الرفاهية مثل الملبد ( نوع من القماش الحريري الملون ) والقرمود (19) وكانت العلاقات الدينية والثقافية مكملة للتجارة مع المشرق ، إلا أن تدهور التجارة في العالم الاسلامي برز خلال القرن الخامس الهجري . ونظراً لهيمنة التجارة الاندلسية على غيرها ، فقد كانت الاندلس أكثر المناطق تضرراً من ذلك التدهور وقد استفحل ذلك التدهور بل زاد في خطورة المشاكل الاقتصادية الداخلية في دول الطوائف .

وإن تقوية الممالك المسيحية في شمال إسبانيا وازدهار مملكة ليون وقشتالة خلال القرن الخامس يجب أن نضيفهما أيضاً إلى بروز قوى اقتصادية هائلة على الصعيد الاوربي وإلى الوحدة الروحية التي كانت تقودها روما والتي ساهمت في تطوير تلك القوى . وكذلك تأثرت العلاقات التجارية الاندلسية مع إفريقيا خلال تلك الفترة من من جراء ازدهار دولة المرابطين في المغرب . إن تغير مراكز القوى الذي حدث في العالم الاسلامي مع توسع الفاطميين في مصر وتنافسهم مع العباسيين في بغداد قد أثر في المسارات التجارية سواء في المشرق أو بين إفريقيا الشمالية والاندلس (20) ، ومع ذلك إذا كانت طبيعة التجارة بين الاندلس وأوربا وإفريقيا والمشرق . قد تغيرت جوهرياً فإن التجارة في مجموعها ظلت قائمة ولم تتوقف .

## ( 3 ) الانحطاط الاقتصادي الداخلي

إن عصر دول الطوائف الذي تلا فترة رخاء حكم بني أمية والفترة الوسيطة لبني أبي عامر ، قد طبعها انحاط اقتصادي مستمر

وتدريجي ، وإن نحن أخذنا في إطار منظور أوسع فإن الاطار العام لنظام دول الطوائف كان هو ذاته مطبوعاً بالهشاشة اقتصادياً وسياسياً. لقد كان يحتوي ذلك النظام إذن في ذاته على بذور انهياره الذاتي. فغياب سياسة اقتصادية عقلانية في الدول الطائفية كان أيضاً يشكل داهماً على كل منها، وساهمت الصراعات السياسية الداخلية وحالة الحرب المستمرة بين الدول الطائفية التي كانت الغنيمة هي الحافز الاقتصادي الاهم بالنسبة إليها ، في تفاقم الضعف المالي والاسراع في الانحطاط الاقتصادي الداخلي . وبما أن نظام دول الطوائف كان اقتصادياً وسياسياً ، فلم يستطع أن يكون كياناً صلباً ولم يستطع الحفاظ على البقاء إلا بصفة مؤقتة ، فعدم الاستقرار كان يجعل تحديد سياسة اقتصادية على مدى بعيد أمراً مستحيلا . وكان طبيعياً إذن أن يبلغ تزايده النهاية القصوى بما فيها استحالة الحفاظ على تطور اقتصادي .

ورغم أن نظام دول الطوائف كان يتوفر على العناصر الاساسية الخاصة بتحديد دولة ذات سيادة ، فإنه كان يحمل في ذات الوقت عناصر خفية كانت تجعله عاجزاً عن التوسع وعن إقامة كيان قوي يستطيع الصمود إلى مدى طويل أمام الضغوط الداخلية والخارجية . فأولا ، إن كانت الحدود بين دول الطوائف محددة فإن مساحة كل منها كانت صغيرة . وأكبرها مثل دولة إشبيلية وبطليوس وسرقسطة وطليطلة لم تكن واسعة بالقدر الذي تستطيع به أن تكون دولة قوية. وكان على تلك الدول بالاضافة إلى ذلك أن تواجه قوة

توسعية ونعني بها مملكة ليون وقشتالة والدولة المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين فيما بعد، وثانياً، كان لكل دولة طائفية على حدة عدد محدود من السكان . فكانت الاندلس في مجموعها كثيفة نسبياً، ولكن إذا نظرنا إلى الدول الطائفية الصغيرة مثل : شلب وقرمونة ورندة وأركوش، أو الجزيرة الخضراء، سوف ينكشف لنا أن عدد سكانها محدود جداً . والدول الطائفية التي كانت تعتبر دولا كبرى طبقاً لمعيار الدولة الاندلسية النموذجية خلال تلك الحقبة كانت تنقصها الماهية الضرورية إلتي يمكن أن تجعل منها كياناً اقتصادياً صلباً ودائماً .

وثالثاً، إن حكومات دول الطوائف كانت غالباً دولا أوتوقراطية ( حكم الاقلية )، باستثناء بني جهور في قرطبة ( 422 ـ 463 هـ ـ 1031 ـ 1070 م . )، فملوك الطوائف كانوا يكونون صميم نظم دولهم الطائفية إذ كانوا يسيطرون على جميع سلط التقرير علاوة على وضعهم للقوانين وإشرافهم على تنفيذها، وكان الجهاز العسكري والسياسي يوجد رهن إشارتهم كما كان الهدف الرئيسي منه يتجلى في حمايتهم، وكانت النظم الحكومية الاكثر تعقيداً في دول الطوائف القوية مبنية على نماذج أخرى خاصة نموذج نظام دولة بني أمية . لكن تلك النماذج لم تكن تطابق الحاجات الحقيقية للسكان : بل كانت تخدم قضية الزيادة من هيئة الحاكم، والمبالغة في سلطاته الحقيقية . وانتشرت هذه الصورة في الاندلس على نطاق واسع .

ورابعاً . كانت الحكومة عاجزة عن فرض سلطتها كاملة على

السكان داخل حدود الدولة الطائفية . وكان على ملوك الطوائف أن يواجهوا التمردات الداخلية علاوة على مجابهة التهديد الخطير للتدخل العسكري الخارجي ، فسيادتها كانت إذن معرضة للانقطاع والتجزئة وبالتالي إلى الاندثار النهائي . ولم تكن خطورة النتائج الاقتصادية لهذه الدولة تساوي خطورة أبعادها السياسية ، فالانحطاط الاقتصادي إذن كان يمثل تطوراً عادياً لتلك الدول ذلك أن الشرط الاساسي لبقاء أي نظام اقتصادي كان هو الاستقرار في كل أشكاله . وقد كان الاقتصاد الهش لدول الطوائف مهيئاً للفشل .

ومما كان ينقص ملوك الطوائف سياسة اقتصادية شاملة مرتكزة على حاجات السكان ومصالح الدول في المدى البعيد ، وقد شكل ذلك بالفعل أخطر ضعف عانت منه دول الطوائف . ومع ذلك ظل السير الاقتصادي عادياً على المستوى الداخلي . ومن بين الخصائص الاقتصادية الاساسية في دول الطوائف يمكن ذكر وجود أسواق حضرية ، محلية وعلاقات تجارية بين المناطق القروية والمناطق الحضرية ، وأخيراً نذكر نظاماً نقدياً خاصاً بها . لكن بعد فترة حكم بني أبي عامر ( 370 ـ 399 هـ . ـ 380 ـ 1069 م . ) حين بدأت تجزئة الاندلس ، لم تعد تلك المراكز الاقتصادية المحلية مدرجة في البنية الفوقية الاقتصادية العامة للاندلس التي تحطمت فلم يهتز الجهاز الاقتصادي الشامل فحسب بل اهتز المناخ السلمي الذي كان سائداً في فترة بني أمية إذ تلاه عدم استقرار واختلال الامن دائمين من جراء التقسيم السياسي والاقتصادي لدول الطوائف .

ويمكننا - في إطار جوهر السياسة التي اتبعها ملوك الطوائف والتي تعكس فشلهم الذريع في حفاظهم على الحكم - أن نلتمس عجزهم عن استيعاب الاوضاع الاقتصادية الشمولية في الاندلس وعن تحديد اتجاهاتها المختلفة إلى جانب ذلك كان النظام الاقتصادي يعاني من إدارة ضعيفة ، وكان يخضع للضغوط الخارجية الساحقة . إن تمركز ملوك الطوائف حول ذاتهم أدى فعلا إلى سقوط اقتصادهم وجعل من دويلاتهم لقمة سائغة تسيل لعاب ملك ليون وقشتالة ، وغيره مثل : كونت برشلونة ، بل حتى المغامرين المسيحيين المستقلين ، خاصة السيد ( le Cid ) ردريغو دياث وكانت ميزانية دول الطوائف توجه إما إلى نفقات غير منتجة وإما إلى استثمارات قصيرة المدى وليس فيها مغامرة كبيرة وبهدف الحصول على ربح أكيد سريع . ونرى ملوك الطوائف يبذرون أموالهم في بلاطاتهم وقصورهم وفى الترفيه وغير ذلك مما يشبع رغباتهم وشهواتهم الخاصة . والانتاج الادبي الرائع لهذه الفترة يعكس مستوى الحياة الرغدة المترفة للطبقة الحاكمة وأسلوب حياتها الرفيع . وكان العديد من الشعراء البارزين فى خدمة بلاطات ملوك الطوائف فى القرن الخامس ويعكس شعرهم الحياة في البلاط . تلك الحياة التي كانت تفوق في بعض الحالات ترف بلاطات الخلفاء الامويين . ولا مجال هنا لاعطاء وصف مفصل عن قصور أقوى ملوك الطوائف وتنافسهم فى هذا المجال ، ولكن تجدر الاشارة في إطار هذه الدراسة ، إلى أن نفقاتهم كانت تشكل عبئاً ثقيلا على الخزينة غالباً ما تتجاوز إمكاناتها .

وكانت الادارة - خاصة في دول الطوائف الكبرى - تشكل أيضاً عبئاً ثقيلا على الميزانية . بالاضافة إلى ذلك كان العديد من الموظفين يعينون لاهداف غير وظيفية وهكذا كان عدد كبير من الوزراء في بلاط بعض الحكام من دولة بني عباد بإشبيلية مثل المعتضد ابن عباد أو المعتمد بن عباد يعينون اعتباراً لمؤهلاتهم الادبية وشعرتهم . وكانت العواقب السياسية والاقتصادية لهذه الاتجاهات وخيمة في الغالب ويتمثل ذلك في حالة ابن عمار الذي استغل نفوذه في إشبيلية بطريقة علنية لتوجيه السياسة الخارجية نحو تحالفات غير مجدية ومكلفة مع الفونسو السادس عاهل مملكة قشتالة وليون (21) ، وقد كان لهذه السياسة دور في إضعاف بعض الدول الطائفية مثل غرناطة من جهة ، وتقوية مملكة قشتالة من جهة أخرى ، وقررت هذه الأخيرة محاولة إلحاق كل دول الطوائف بها بما فيها إشبيلية ، وإثر استيلاء الفونسو السادس على طليطلة سنة 478 هـ ـ 1085 م. (22) ، ولكن رغم نقصان فعالية البنية الادارية فإنها كانت تلعب دوراً مهماً ، وهذا يصدق بالنسبة للادارة الاشبيلية التي كانت معقدة ومتدرجة هرمياً والتي تشتمل العديد من الموظفين الوسطاء والوزراء والمتصرفين والكتاب إلخ ... وتنطبق هذه الملاحظة على الادارات في دول طائفية أخرى كانت تميزها البساطة بشكل أوضح حيث كان الحاكم فيها يشرف على إدارة شؤون دولته بصفة مباشرة (23) .

وحين اضطر ملوك الطوائف إلى اتخاذ قرارات تجاه مواقف غير متوقعة فعلوا ذلك بطريقة مرتجلة . ودون تحليل وتفكير جدي مما

كان له وقع على السير الاقتصادي المدول الطائفية . ولدينا عدة أمثلة عن قرارات مهمة اتخذها ملوك الطوائف بسرعة أو تحت تأثير الانفعال . ولكن ما يهمنا هو الاساس اللاعقلاني لتوجيه سياستهم الاقتصادية العامة على الصعيد الداخلي أو على صعيد الدول الطائفية الأخرى ، فعلى الصعيد الداخلي كان ملوك الطوائف يرفعون نسبة الضرائب إلى درجة لا يمكن أن تؤدي في النهاية بالافراد المتضررين منها إلا إلى التمرد . وسنتناول بالتفصيل السياسة الجبائية فيما يلي ضمن هذا الفصل .

أما فيما يخص الآثار المباشرة للصراعات والحروب الداخلية فيما بين دول الطوائف على الانهيار الاقتصادي فيمكن تقييمها على مستويات عديدة . وكانت الدول التي تقوم بمبادرة هجوم عسكري واقتصادي ضد الدول الأخرى يكلفها ذلك أثماناً باهضة ، وقد كانت جيوش تلك الدول تتكون عموماً ، كلها أو أغلبها ، من المؤيدين المحليين للملك : كما هو الامر في غرناطة ومالقة ، وقرمونة وأغلب الدول . أما بالنسبة للدول الاكثر قوة مثل دولة إشبيلية ، في عهد بني عباد ، ودولة طليطلة في عهد بني ذي النون فقد كانت تعتمد على عناصر أخرى ، ففي سنة 414 هـ . ـ 1023 م . كون القاضي ابن عباد جيشاً يتشكل في أغلبه من المرتزقة والعبيد الذين كان أصل غالبيتهم من المغرب وإفريقيا (24) .

وأما على المستوى الاقتصادي فقد عانى عدد من ملوك الطوائف من حالة التبعية للمرتزقة المسيحيين القادمين من الشمال الاسباني .

ويصف الامير عبد الله بن بلقين التحالفات المستمرة بين دولة إشبيلية وبين الفونسو السادس التي أدت إلى الهجوم والنهب المتكرر للفرق الاشبيلية ضد غرناطة (25) . وأصبحت مشاركة الجنود المسيحين أكثر خطورة حين كان هؤلاء يساندون إحدى الفصائل المتقاتلة داخل الدولة الواحدة . وقد حدث ذلك في طليطلة حين اعتمد القادر ابن ذو النون على فرق الفونسو السادس لقلب حكم المتوكل بن الافطس بطليطلة (26) .

وبالاضافة إلى المصاريف الضرورية للحفاظ على جيوشهم النظامية والالتزامات السنوية التي يفرضها الملوك المسيحيون . كانت الشروط المالية والسياسية التي تفرضها الفرق العسكرية المسيحية عند القيام بحملات عسكرية من هذا النوع ، وهي شروط كان لابد من التفاوض حولها على حدة . ولنشر إلى أن تلك التحالفات لم تكن تبلغ دئماً مقصدها وكانت تؤدي إلى فرض قهر مالي على دول الطوائف التي كانت تعقدها وبذلك كانت ضحية لها دون أن تحصل على أي منفعة من ورائها . وكان المسيحيون هم المستفدين الوحيدين منها .

إلى جانب العبء المالي الذي كان مفروضاً على دول الطوائف لكي تحافظ على جيوشها ، كانت الحروب تؤدي إلى خسائر كبيرة للدول التي كانت تتعرض للهجومات والنهب المستمرين . وكان بنو عباد في إشبيلية يقومون بتصديات مستمرة ضد الدول الصغيرة المجاورة وبذلك أدت إلى ابتلاعها نهائياً : كما هو الامر بالنسبة

لرندة، وقرمونة والجزيرة الخضراء، ومـورورو وأرقـوش وشلب.

ولم تكن الحروب مجرد حدث هجوم الدول الاقوى على من هي أضعف منهـا، ذلك أن الصراعات كانت توجد دائماً حتى بين الدول الضعيفة ذاتها. وكانت الاسباب مختلفة ولكن الآثار الاقتصادية الداخلية لهذه الحروب لم تكن أقل ضرراً. وهكذا كان الامر بالنسبة للمواجهات العسكرية بين غرناطة ومالقة (27). وتجب الاشارة إلى أن الاضرار المترتبة عن الحروب لم تكن تلحق الدول الضعيفة فقط: فدول الطوائف الاقوى كان لابد أن تخضع هي الأخرى لردود فعل سلبية نتيجة هجوماتها، وهكذا نذكر معركة باجة سنة 421 هـ. - 1030 م. التي دارت بين جيش بطليوس وجيش إشبيلية، ونذكر أيضاً انتصار ابن الافطس سنـة 425 هـ. - 1033 م. ببطليـوس على جيش إشبيلية الذي كان يقوده ولـد القاضي ابن عباد (28). وفي وقت لاحق سنة 442 هـ. - 1050 م. نجد جيش إشبيلية يلحق خسائر فادحة بالمظفر بن الافطس في لبلـة (29)، من جهة أخـرى فشلت هجمات ابن ذو النون ضد قرطبة حين لجـأ الحاكم القرطبي إلى مساندة المعتمد بن عباد سنة 461 هـ - 1070 م. (30).

إن الاستيلاء على الغنائم الذي كان أحد دواعي الحرب بين دول الطوائف كان حافزاً اقتصادياً، ولكن إذا كانت الغنائم مصدراً لمداخل إضافية بالنسبة للبعض فقد كانت تساهم أيضاً في تحطيم أو إضعاف البعض الآخر على الصعيـد الاقتصادي. إلى جـانب ذلك لم تكن الغنائم مصدراً أكيداً للمداخيل فعملية الهجوم والالحاق لم تكن

لتتابع بشكل نهائي . ومن جهة أخرى كانت المصاريف التي تستلزمها البعثات الحربية والحفاظ على الجيش النظامي لم تكن قيمة الغنائم المحصل عليها لتعوضها . إن نجاح الاسلحة كان له الفضل في تضخيم نفوذ ملوك الطوائف المنتصرة لكن البعثات لم تكن مربحة اقتصادياً ، والنتيجة الخطيرة لسياسة الحرب هذه كانت على أية حال هي الاضعاف الجماعي لدول الطوائف بقدر ما كانت الحروب تشن على حساب سياسة اقتصادية شاملة متطورة على مدى طويل مرتكزة على المصلحة الاقتصادية للاندلس ككل ، وعلى الدفاع المشترك ضد الاخطار العسكرية والاقتصادية المهددة من الجنوب والشمال .

## 3 ) المشاكل النقـديـة :

إن النظم النقدية التحتية في دول الطوائف هي انعكاس للانقسام السياسي والاقتصادي الموجود داخل الاندلس خلال القرن الخامس للهجرة . وكان ملوك الطوائف الاقوى يسكون عملاتهم لاظهار استقلالهم الاقتصادي ، ولتسجيل حيثياتهم على القطع النقدية لنشر صورتهم كحكام خارج دولتهم (31) . والنقود المختلفة التي وصلتنا عن تلك الفترة تعطي لنا مادة كافية وضرورية للقيام بدراسة نقدية شاملة فيما يخص دول الطوائف . وبالرغم من أنها تكمل رؤيتنا للوضع السياسي والاقتصادي وتطوره في الاندلس في القرن الخامس الهجري فإن تلك النقود لا يمكن أن تعطينا معلومات عن وجود نظام نقدي قوي وقار أو عدمه ورغم أن قطعة النقود تحمل

إسم أو لقب المعتمد بن عباد أو المظفر ابن الافطس ، فنحن نعرف أن قيمتها لم تكن تتحدد سوى بطبيعة المعدن الذي صنعت منه وبثقله ، ذلك أن ليس هناك ضمانة أخرى للعملة وغطاء المطلوب فالعملة إنما تمثل احتياطاً قيمياً (Alored Value) .

وكانت العملة التي يسكها أحد ملوك الطوائف يمكن بالتالي أن تتداول خارج الاندلس إلى أن تصل إلى إسبانيا الشمالية أو إلى المغرب الكبير . وفي نهاية فترة ملوك الطوائف كانت النقود التي سكها المرابطون تتداول هي أيضاً في الاندلس .

وطيلة المرحلة الاولى من عهد دول الطوائف كانت المعادن وفيرة بالاندلس خصوصاً الذهب والفضة ، فإن النظام النقدي كان سليماً . وإلى حد القرن الخامس الهجري كان الاندلس قد جلب من الخارج كميات كبيرة من الذهب ومعادن نفيسة أخرى ، وكان يستجلبها من السودان ( المنطقة بين السنغال والتشاد ) . ولكن عند نهاية فترة دول الطوائف كانت الجزية المفروضة عليهم من طرف الملوك والرؤساء المسيحيين سبباً في انتقال القسط الاوفر من المعادن النفيسة إلى خصومهم ووجد ملوك الطوائف أنفسهم فى وضع لا يستطيعون معه أن يواجهوا متطلبات الجزية حتى ولو لجأوا إلى فرض الضرائب أو غير ذلك من الوسائل . وهكذا كان معدن النقود يخلط بمعادن أخرى أقل جودة وبذلك تنقص قيمتها كلما زادت نسبة ذلك الخلط . وعلى المستوى الداخلي كان نشر هذه القطع النقدية شائعاً غير أنها رفضت من طرف مبعوث الفونسو السادس

إلى المعتمد بن عباد . إن تناقص قيمة العملة في دول الطوائف كان أول مؤشر على نهايتها .

وليس من السهل أن نقدر بالضبط قيمة العملة في الاندلس خلال القرن الخامس رغم أن بعض المحاولات تمت في هذا الاتجاه (32) . وبالاضافة إلى ندرتها فإن المعلومات المتوفرة متناقضة فأسعارها لم تكن ثابتة وقيمة البضائع تتغير بشكل واضح حسب الظروف . إن الطابع المتغير لنظام الاسعار كان راجعاً إلى ثلاثة عوامل أساسية : أولا ، انعدام الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي كان له نتائج سيئة على الاسعار وقيمة البضائع ، فقد كانت هناك ثروات تولد وأخرى تندثر بسرعة كبيرة جداً . وفي جو انعدام الامن السائد كانت الاسعار ترتفع عبثاً دون أي تناسب مع قيمة البضائع ، وثانياً ، تراكم ثروات ضخمة لدى ملوك الطوائف وحاشيتهم في فترات زمنية قصيرة جداً . وكان ينفق الجزء الكبير من تلك الثروات بطريقة غير منتجة أو يبذر تبذيراً . لقد كان المعتمد بن عباد يهدي لشعرائه هدايا تصل إلى 500 مثقال (33) . وثالثاً ، وحوالي نهاية فترة الطوائف تعرضت الاندلس لتخفيض قيمة عملتها مما أدى إلى الاسراع في تضخم الاسعار . وأخيراً كانت المبالغ المالية التي تخرج من الاندلس تفوق المبالغ التي تدخل إليها . وكان ذلك يرجع من جهة إلى ارتفاع قدر الجزية التي طالب بها الملوك المسيحيون ملوك الطوائف ، ومن جهة أخرى بفعل الهجومات العسكرية التي يقوم بها «المستردون» المسيحيون . وبعبارات حديثة يمكن القول إننا نستطيع في هذه

الوضعية استكناه عناصر الاتجاه التضخمي المفرط في أبسط مظاهره : التشكك، وازدياد النقود المتداولة دون نمو مقابل للطاقة الانتاجية مما أدى إلى ارتفاع أسعار المنتوجات وبالاضافة إلى ارتفاع المبالغ التي كانت تؤدى في شكل جزية وكانت هذه الجزية التي فرضها الملوك المسيحيون تمثل عبئاً مالياً ثقيلاً على اقتصادها وفي ذات الوقت تعتبر مؤشراً على قوتها الاقتصادية كلها . وكانت تستخلص من المداخيل الصافية بعد تأدية كل المصاريف الحيوية، وكان ذلك لايزال في مستطاعهم ، وفي مقابل أداء الجزية كانت تقدم لهم الحماية وتحالفات يحاولون من خلالها ضمان مصالحهم بطرق مختلفة ، من بينها مهاجمة دول طائفية أخرى واحتلال بعض حصونها غير أن مقدار الجزية المفروض تزايد إلى أن وصل إلى حد يتجاوز مقدرتهم . ولم يكن أمامهم أي حل سوى تأديتها أمام التهديد الذي كانت تمارس عليهم الجيوش المسيحية المستعدة لاصابتهم بأضرار خطيرة في حالة رفض التأدية ، وقد تجاوز مبلغ الجزية المفروضة على دول الطوائف مداخيلهم مما أدى إلى تدهور اقتصادها إلى درجة لم يسبق مثيلها وأوصلهم إلى الإفلاس . فكم كان مبلغ الجزية المفروضة على دول الطوائف ؟ لقد كان يختلف باختلاف الظروف التي فرضت فيها ، ذلك أنه حين كان بعض ملوك الطوائف يتذمرون من العبء المالي الذي لم يعودوا يتحملونه، كان آخرون يزيدون في عروضهم مقابل مساعدة عسكرية أو سياسية . وهكذا نجد وزير المعتمد بن عباد ، ابن عمار ، في مفاوضة مع الفونسو السادس يعده بـ : 50.000 مثقال

ليقنعـه بالانضمام إلى القوات الاشبيلية في محـاربة هذه الأخيرة لغرناطة (34) ، وهذا يـدل على أن إشبيلية كانت قـادرة على دفع ذلك المبلغ بسهولة ، أو أن المساعدة العسكرية لمملكة ليون وقشتالة كانت ستتيـح لاشبيلية فـرصة الحصول على فوائد تساوي : 50.000 مثقـال على الاقل ، غير أن هذا الاستدلال يرتكز على فرضية وهي أن مبعوثي حكام إشبيلية كانوا يفاوضون على أساس قـوة دولتهم الماليـة لتحقيق مصالحها . ولم تكن هذه هي الوضعيـة الحقيقيـة : فالمبالغ الضخمة التي يعرضها المفاوضون كانت في الواقع موجهة لتحقيق الطموحات الشخصية لابن عمار ورغبته في اضعاف إشبيلية . وذلك هو الاتهام الموجه ضده من طرف عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة ، وإن الصراع الذي قام بين هذا الأخير والمعتمد بن عباد لـدليل على ذلك (35) . أضف إلى ذلك أن ابن عمـار زيـادة على كونه عرض المبلغ المشار إليـه على الفونسو السادس فقد قبل أن يتخلى عن الغنيمة العينية والنقديـة التي قـد يحصل عليها في حالة الهجـوم على غرنـاطة (36) . وبعكس ذلك كان عبد الله بن بلقين أكثر ترددا فيما يتعلق بالجزية التي سيعرضها على الفونسو السادس . وبعد أن رفض تـأدية مبلغ 10.000 مثقال سنويـا لالفونسو تعرض لضغوط عـسكرية ونفسية ، إلى أن أرغم على دفع 30.000 مثقال (37) . لقد استغل الفونسو السادس طموح ابن عمارفي الاستيلاء على غرناطة بقصد زيـادة ضغوطه على حاكم هذه الدولة الطـائفية وبذلك حصل على جزية قيمتها أكثر ارتفاعا من تلك والتي طلبها من عبد الله بن

بلقين في البـداية . والثمن المرتفع الذي عرضه ابن عمـار على الفونسو مقابل مساعدته العسكريـة ضد غرناطة خلال الفترة الاولى من حقبـة دول الطوائف كان يبـرر أساساً باعتبارات سيـاسية وبالاستيلاء على الحصون التابعة لدولة غرناطة الطائفية مما سيؤدي إلى تدعيم صورة إشبيلية وتحسين سمعتهـا بصفتهـا دولـة طائفية قوية . لكن الآثار المالية لهذه السياسة ومضموناتها على المدى الطويل لم تؤخذ في الاعتبار ، ثم إن الوضعية تغيرت سنة 478 هـ . ـ 1085 م . حين أديت الجزية المفروضة على إشبيلية بنقود مغشوشة ، وقد رفضت تلك النقود بصرامة من طرف المبعوث اليهودي لالفونسو السادس ابن شالب مما دفع بالمعتمد بن عباد إلى قتله (38) ، وبذلك قام صراع مباشر بينه وبين الفونسو السادس نتج عنه أن لجأ ملوك الطوائف إلى الاستنجاد بيوسف بن تاشفين .

وقـد تغيرت قيمة العملة بتغير الظروف السياسية ، وهكذا رغم أن النقود نقصت قيمتها طيلة فترة ملوك الطوائف، فإن توحيد الاندلس تحت لواء المرابطين جعل حداً لتناقص قيمة النقد وانخفاضه ، وهذا التوالي للانخفـاض والارتفـاع من النقـد يجعل من الصعب مقـارنـة الارقام طيلـة المراحل المختلفـة للقرن الخـامس الهجري . وهذه المعاينة ربما تفسر بشكل أفضل فوضى الاسعـار ، فكـان مبلغ 50 مثقـال مثلا هو السعر المعروض مقـابل المشاركة في مؤامرة لقلب حاكم، وكذلك مقابل نظم قصيدة رائعة (39) ، وهناك مثل آخر حاكم مالقة تميم بن بلقين بن زيري بعث إلى القاضي بن سهل مبلغ

50 مثقالا كرشوة لدفعه إلى تشويه سمعة أخيه عبد الله بن بلقين لدى يوسف بن تاشفين إذ كان يرغب في كسب تقديره (40) . وقد رفض ابن سهل هذا المبلغ لا لانه غير كاف ولكن لرفضه المبدأ. وعدم انتظام الاسعار، هذا طيلة القرن الخامس الهجري يظهر من خلال عدة مقارنات يمكن القيام بها ، فطيلة الفترة الاولى من عصر ملوك الطوائف كانت لمدينة وادي آش في دولة غرناطة الطائفية مدخول سنوي من 15 000 دينار حين كان يديرها علي بن القروي خلال حكم باديس بن زيري جد عبد الله بن بلقين . ولكن حين كلف حاكم غرناطة وزيره اليهودي أبا يوسف بن نغرالة بإدارة هذه المدينة تضاعف مدخولها ووصل إلى 100،000 دينار (41). والمدخول الزهيد لوادي آش خلال إدارة علي ربما يعود إلى أن هذا الأخير كان يحتفظ لنفسه بغالبية الارباح إذ كان الولاة على المدن والحصون يتمتعون بكل السلطات . ومن جهة أخرى كان الوالي اليهودي أكثر كفاءة ، ومهما كانت الاسباب في ذلك فأن التزايد كان كبيراً ، وأكبر المبالغ التي تشير إليها المصادر تصل إلى 150،000 مثقال ، تضاف إليها ، خمسمائة مدى من طعام ضافية لكل ليلة مدة مقامه - الفونسو - عليه ، مقابل إعادة تولية القادر بن ذي النون حاكماً على طليطلة (42) وكان ذلك سنة 478 هـ . أي قبل أن يستولي الفونسو على طليطلة بقليل، فمبلغ النقود الذي كان الملوك المسيحيون يستحوذون عليه من ملوك الطوائف إما على شكل جزية أو كشرط للتحالف وصل إلى القمة في الحالة هذه ،

ويوضح هذا المثال الثروة المتراكمة لدى ملوك الطوائف وكذلك الانفاق الذي كانوا يبذرون بـه تلك الثورة ، ومبلغ 16.000 مثقال الذي ربما تركه الامير عبد الله بن بلقين بعد خضوع غرناطة لجيش يوسف بن تاشفين يكون تناقضاً فاحشاً مع القدر الذي قدمه القادر ابن ذي النون لالفونسو السادس (43) .

والخلاصة أن النقود بصفتها حافزاً على الانتاج الزراعي والحرفي قد كان له إسهام هام في اقتصاد دول الطوائف ، خاصة حين نعتبر أن أساس هذا الاقتصاد هو السوق الذي يقوم إلى حد ما على التخصص في العمل ، إن ذلك النظام النقدي كان يخلق الظروف اللازمة لانعاش، لحفز الفعالية الاقتصادية ، ولكن كانت هناك قوى أخرى مهيمنة هي التي حددت في النهاية المسارالعام نحو الانحطاط الاقتصادي في الاندلس .

## 4 ) التبعية الخارجية أو عهـد الجزية .

إلى جانب هشاشة نظام دول الطوائف الاقتصادي وإلى جانب غياب سيـاسة اقتصادية داخلية ، والصراعات الـداخلية بين دول الطوائف كان استخلاص الجزية من طرف ملـوك وزعمـاء إسبانيا الشمالية يكون أخطر دافع في الاسراع بالانحطاط الاقتصادي في دول الطوائف ، وهذه الجزية التي كانوا مرغمين على تأديتها لمسيحيي الشمال تزايدت تدريجياً طبقاً لتزايد قـوة أولئك المسيحيين وخاصة قـوة الفونسو السادس . وكانت آثـار تلك السياسة مهمـة بالنسبة

للممالك المسيحية خاصة مملكة ليون وقشتالة وأيضاً بالنسبة لدول الطوائف ، فمسيحيو شمال إسبانيا طيلة القرن الخامس للهجرة ازداد نمو ثرواتهم وقوتهم ، ولكي نقدر أهمية هذا الاتجاه علينا أن نذكر خلفيتها ولو باختصار. فوراء تلك التطورات كانت توجد قوى اجتماعية داخلية فى مملكة ليون وقشتالة ودول الطوائف على السواء. لقد دعم الفونسو فى مملكة ليون وقشتالة قوته بالتحالف مع الكنيسة الكاثوليكية ، بعد أن أعلنت هذه الأخيرة أن كنيسة المستعربين المحلية وجب اعتبارها كنيسة غير شرعية . ولم تستطع المدن أن تزدهر بشكل واسع في الممالك المسيحية لانها كانت تفتقد إلى الاراضي نظراً لاستيلاء الرهبان الكاثوليكيين على أراضي شاسعة . وقد أدت الضغوط والصعوبات الداخلية إلى البحث عنه فرص أفضل يعني عن طريق حركة الاسترداد المسيحي للاندلس ( recoguista ) . وقد اتخذت إسبانيا المسيحية نموذجاً اجتماعياً لنفسها مبني المجتمع المنظم لشن الحروب إذ كان هدفها الأخير احتلال الاندلس حيث تراكمت الثروات في ظل حضارة وثقافة مزدهرتين . وهكذا بدأت الممالك المسيحية تبحث عن أراضي جديدة ، وبدأت الحدود المسيحية تنزل نحو الجنوب إثر هجرة جديدة للسكان ، وقد اتخذت حرب الاسترجاع إيديولوجيا ، طابعاً دينياً في شكل حرب صليبية ضد المسلمين ، أما سياسياً فقد انطبعت بالسياسة التعسفية والواقعية في ذات الوقت لالفونسو السادس الذي جمع حوله قوات مسيحية مختلفة . واجتماعياً كانت حرب الاسترداد يحفزها البحث عن أراضي خصبة

جديدة . واقتصادياً ، وهنا العامل الاكثر أهمية ، كان الحافز هو الرغبة في الحصول على الثروة بمقادير كبيرة وبسرعة . والوسائل التي اتخذت من أجل استرجاع الاندلس كانت أساساً عسكرية وسياسية ، وكان الحافز الاقتصادي الذي حفز المجتمع القشتالي طيلة القرن الخامس الهجري مهيمناً حتى أن الحرب أصبحت أمراً حيوياً بالنسبة إليه (44) ، وبغض النظر عن أصل الافراد ومركزهم الاجتماعي فإن درجة المشاركة العسكرية فى حرب الاسترجاع أصبحت أساسية للحصول على وضعية اجتماعية أرقى وأصبح الرجال الاحرار (Villanis) عامة يصعدون السلم الاجتماعي في المجتمع القشتالي ليصبحوا فرساناً من نوع ( Caballeros Villanos ) و(فرسان من عامة الشعب) فى حين أن هؤلاء الاخرين كانوا يصيرون ( hidalgos ) ( رجالا من طبقة النبلاء الصغار ) ما أن يمتلكوا الحصان والدرع المناسب ويتمون الخدمة العسكرية . وهكذا يبرز السيد ( infangon ) ( وكان infangon بحكم ميلاده عضواً من طبقة النبلاء الصغيرة دون الشجاع جدارة مثل أمراء كاريون Carrion (45) . وقد كتب الدكتور ماكاي في هذا الصدد ،وعلاوة على هذا ، هناك عدد كبير من الناس في إطار النبلاء الاصليين يعود تصاعدهم الاجتماعي إلى الفرص الاقتصادية والعسكرية التي منحتها لهم الحياة والحروب في الحدود مع الاندلس (46) .

وكانت الحرب إذن تؤدي وظائف حيوية في المجتمع القشتالي الوسيط : للصعود والرقي فى السلم الاجتماعي . وكانت تبرز سيطرة

طبقة النبلاء الحربية وتهيء الوسائل العديدة لتحسين المعيشة أو الحصول على الثروات . ويذهب ماكاي بعيداً حين يستنتج أن الحرب في قشتالة الاقطاعية لم تكن اختياراً بل « ضرورة عضوية » (47) . ولا مجال هنا لتناول التفاصيل المتعلقة بطبيعة حرب الاسترداد ومشاكلها ، والاستيطان و« الحدود المتحركة » . لنقتصر على القول بأنه إذا كانت حرب الاسترداد ترمز إلى نهضة إسبانيا المسيحية ، فإن نتائجها على الاندلس كانت وخيمة .

وبالفعل فإن تأدية الجزية كانت وبالا على اقتصاد دول الطوائف لسببين : الاول أنها كانت تشكل عبئاً زائداً على كاهلهم . لقد كان في إمكان بعض الدول القوية مثل إشبيلية أن تواجهها دون صعوبات كبيرة . أما الدول الاضعف والتي لها اقتصاد هش، فلم تكن لتتحمل ثقلا لا تقدر عليه . وكانت المبالغ المفروضة عليها تمثل أقصى ما يمكن أن تؤديه دون أن يسبب ذلك الانهيار المباشر لنظامها الاقتصادي أما الخسارات التي تسببها تلك الوضعية على المدى الطويل فقد كانت هي بدورها تشكل مشكلا خطيراً . أضف إلى ذلك أن طرق الضغط الممارسة عليها هي ذاتها مصدر للخسارات : كانت عبارة عن حملات عسكرية من جملة أهدافها القضاء على محاصيل القرى حتى يؤدي ذلك إلى انفجار النظام الاقتصادي : إن الوصف الذي يعطيه عبد الله بن بلقين حول المفاوضات مع الفونسو السادس ومبعوثيه وحول التخريب الذي تعرضت له غرناطة لارغامها على قبول الشروط المفروضة عليها ليوضح جيداً جسامة الصدمات المرعبة

التي كان على اقتصادها أن يتحملها (48) .

وهناك جاذب آخر من الخسارات التي لحقت اقتصاد دول الطوائف من جزاء دفع الجزية وهو استمرارية تلك السياسة ودوامها طيلة فترة دول الطوائف ، لقد كان فرنندو أول من سلب الدول الطائفية القوية . وقد تابع ابنه سانشو السادس تلك السياسة وطورها ابنه الآخر الفونسو السادس الذي كان يتوصل بجزية غرناطة ودول أخرى حتى بعد انهزامه في معركة الزلاقة سنة 479هـ. ـ 1086م. (46)، وحين قرر يوسف بن تاشفين سنة 491 هـ ـ 1088 م . أن ينهي حصار ليسيط ( Aledo ) والرجوع إلى المغرب طالبه ملوك الطوائف بأن يترك في عين المكان بعض الجنود ليدافعوا عنها ضد هجمات الفونسو السادس ، ولكن كان رده : « أصلحوا نياتكم ، تكفوا عدوكم ! » (50) .

إن التخوفات التي أبداها ملوك الطوائف لم تكن دون مبرر . ويتجلى ذلك في التفسير الذي أعطاه عبد الله بن بلقين لحملات الفونسو السادس التي كان هدفها أساساً اقتصادياً إذ يقول :

« فأيقنا أن الرومي لا يدعنا على هذه الفرصة دون طلب . كالذي كان . فلم يلبث أن احتفل وأتى طالباً للمال ، متجنباً على من خالفه أن يفسد بلاده . وعاقد صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرف ، فدافعوا شره ودفعوا إليه ما سلف له عندهم .

وبلغني الخبر ، وزاد في غمي ، وعلمت أني فيه كراكب الاسد : » (51) .

لها غيرنا[36]، إلا أن وجود هذه العناصر الايجابية لا يمنعنا من تقديم بعض المآخذ عليه، بصفته مؤرخا للأندلس في عهد دول الطوائف ومن أهمها :

أ.) تأثر ابن الخطيب بالمنهج السردي والترتيب الزمني (الكرونولوجي) وببعض التقاليد الاسلامية في التاريخ مثل كتب السير والتراجم. ورغم القيمة التاريخية للتاريخ السياسي ولوصف الأحداث وضبطها هناك مناهج تاريخية أخرى تعتمد على التحليل بالدرجة الأولى لم يلجأ إليها ابن الخطيب كثيرا.

ب.) لم يصل ابن الخطيب إلى مستوى بعض المؤرخين الأندلسيين من الذين أرخوا للأندلس في عهد دول الطوائف، ومن بينهم ابن حيان الذي تخصص في كتابة التاريخ الأندلسي إلى وفاته، ولم يهتم بعلوم أخرى فأبدع في هذا المجال.

ج.) تعتبر قيمة كتابات ابن الخطيب التاريخية محدودة بالنسبة لدراسة عهد الطوائف إذا قارناها بالمصادر المعاصرة، فمنها ما هو أكثر توسعا وتعمقا وتنوعا، كما أن ابن الخطيب لم يأت بجديد في تاريخ الأندلس في عهد دول الطوائف، بقدر ما أكد ما جاء به غيره.

د.) على الرغم من أهمية المعلومات التاريخية الهامة التي قدمها ابن الخطيب، فإنه لم يستغلها في قالب تحليلي، فهو ضعيف من هذه الناحية

---

(36) مثلا راجع المقالات التالية :
الأستاذ محمد زنيبر، «ابن الخطيب والتجديد في المناهج التاريخية»، «مجلة كلية الآداب» (الرباط)، العدد الثاني (1977)، ص 79 — 126.
د. أحمد مختار العبادي، «لسان الدين ابن الخطيب وكتاباته التاريخية»، «عالم الفكر»، العدد الثاني، يوليو — أغسطس — سبتمبر (1985)، ص 29 — 62.
د. ولهيلم هونباخ، «ابن الخطيب المؤرخ : الشعب والحكومة والدولة» :
**Wilhelm Hoenerbach, El historiador Ibn al-Jatib Pueblo : Gobierno - Estado, Andalucía Islámica, Textos y Estudios, n° 1.** (1980). pp. 43-64.

محاولة للمقاومة الموحدة وكانت ترسخ اتجاه الخضوع أمام الشروط التي كان يمليها الفونسو السادس (55) .

وهناك أيضاً أثـر سلبي لهذه السياسة وهي الخسارات البشرية والمادية الناجمة عن الحملات العسكرية التي تنظم ضد دول الطوائف. فأسبابها وتعليلاتها كانت متنوعة كما تنوع شكلها ومدتها . لكن ضررها كان جسيماً ليس فحسب لارتفاع عدد تلك الهجمات وتكرارها ولكن أيضاً بسبب دوافعها إذ استمرت طيلـة فترة ملوك الطوائف . ولا نستطيع أن نقيم تلك الاضرار بدقة . ولكن من الواضح حسب الاساليب المعتمدة من طرف المؤرخين المعاصرين والمتأخرين في وصفها أن دول الطوائف تعرضت لعمليات واسعة من الهدم والتخريب، وأن مخلفات ذلك النهب على المستوى الاقتصادي لا يمكن عدها : تطرق عبد الله بن بلقين لدرجة النهب الذي قام به الفونسو السادس على إشبيلية خلال حملات الضغط ضد الحكام الذين شاركوا في حصار لييط (56) ، وعند نهـاية فتـرة ملـوك الطوائف وصلت قـوة الفونسو السادس حـداً استطاع معـه شن هجوم على بعض ملوك الطوائف دون موافقة الآخرين كما كان عليه الامر سابقاً . وهكذا فخلال الحملات الاولى لفرض الجزية على غرناطة كانت فرق الفونسو السادس مدعمة بفرق المعتمد بن عبـاد (57) . وقـد كان عبد الله يأمل أن يحصل على مساعدة بعض ملوك الطوائف غيـر أن هـؤلاء ظلوا غير مبالين . والنص التالي يوضح الممارسات المؤذية لملوك الطوائف : «... وابن ذي النون في هذا يتوسط لـه بالامر ، ويسعى

في تصيير المال إليه ، ويرضيه بذلك وينتظر فساد مملكتنا ، فيفترصها هو أو يأخذ منها حصته . فكان ـ على ما قدمنا ذكره ـ عدواً في الباطن ، صديقاً في الظاهر » (58) .

إن الهدف المزدوج للحملات العسكرية بصفتها وسيلة للهدم المادي من جهة ، ووسيلة ضغط للحصول على الجزية من جهة أخرى ليتجلى في حالات أخرى . فأهداف تلك الحملات كانت اقتصادية ولكن المناورات السياسية والضغوط النفسية التي تصاحبها كانت تساهم بشكل قوي في إرغام ملوك الطوائف على قبول شروط الفونسو السادس . إن التهديد كان يمكن الفونسو من التوصل إلى مقاصده دون اللجوء إلى إحداث هدم مادي على مستوى واسع ، ولكن هذه الطريقة الأخيرة كانت تستخدم دون تردد حين تفشل الطريقة الاولى . أضف إلى ذلك أن اللجوء إلى النهب المحدود كان الغرض منه تدعيم مصداقية الفونسو السادس عند انطلاق المفاوضات .

وكان الفونسو السادس يبني سياسته لفرض الجزية على أساس ضعف حكام دول الطوائف . وهؤلاء رغم أنهم لم يكونوا واعين بالخطر الذي كان يهددهم من جراء مشاحناتهم على المدى الطويل فقد كانوا واعين بالاستغلال الذي يقوم به الفونسو لصالحه . وهكذا يطلعنا عبد الله بن بلقين على انطباعاته حول الحسابات السياسية لالفونسو السادس : « ـ . . . وأما ـ الفونش ، لما تيقن هذه الفتن ، علم أن ذلك من أكبر سعادته وأعظم فرصه في طلب الاموال . فأرسل إلينا رسوله : أول مداخلة نشأت بيننا وبينه ؛ فأتى باطر

شولش - بيدرو أنسورث - يطلب منا ضريبته . » (59) .

وقد اطلعنا عبد الله على مخططات الفونسو لضم بعض الدول الطائفية عن طريق مبعوث الملك القشتالي سيسناندو دافيديث :

« إنما كانت الاندلس للروم في أول الامر، حتى غلبهم العرب ، وألحقوهم بأنحس البقاع : جليقية ؛ فهم الآن عند التمكن ، طامعين بأخذ ظلاماتهم ! فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف ! » (60) .

ومع ذلك ، فإن كان عبد الله واعياً بأهداف الفونسو في المدى البعيد كما رأينا في الاقتباس السابق ، فقد تحدث عن سياسة الفونسو بعد سقوط طليطلة سنة 478 هـ - 1085 م . بالعبارات التالية :

« وكنا رأينا كلب النصراني على الجزيرة وأخذه لطليطلة ، وقلة رفقه بعدما كان يقنع منا بالجزية وصار يروم أخذ القواعد ، وأن أخذه لطليطلة للضعف المتوالي عليها عاماً بعد عام ؛ وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد ، إذ كان مذهبه ألا ينازل معقلا ، ولا يفسد أجناده على مدينة ، لبعد مرامها ومن فيها من مخالفي ملته ، وإنما كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام ، ويعنف عليها بما شاء من التعدي إلى أن تضعف وتلقى بيدها كما فعلت » (61) .

وبالاضافة إلى الغزوات المسيحية ضد دول الطوائف هناك الصراعات بين تلك الدول ذاتها والتي ساهمت أيضاً في الانهيار الاقتصادي المتوالي . وبعبارة أخرى فإلى جانب الضغوط الخارجية والعسكرية للملوك المسيحيين في الشمال فإن الصراعات المسلحة

المستمرة بين دول الطوائف تشكل عاملا إضافياً للانهيار الاقتصادي لتلك الدول . وكانت تلك الصراعات تسهل مهمة الملوك المسيحيين وتساهم في إضعاف حكام دول الطوائف إما بطريقة غير مباشرة أو بكيفية مباشرة . وتجد تحالفات عسكرية مع المسيحيين تقودها دول طائفية ضد بعضها الآخر. ويجب أن نضع النشاط الحربي لتلك الدول في هذا السياق العام ، ولم يكن الفونسو السادس يتوجه إلى حكام دول الطوائف بصفتهم كجماعة واحدة بل بالعكس كان يستغل خلافاتهم الشخصية بتشجيع طموحاتهم المباشرة . وفي ذات الوقت كان يقوم بعدة ضغوط على كل حاكم على انفراد إلى أن يقبل هذا شروطه ثم يتجه إلى الحاكم الآخر مع التأكد من أن الآخرين لن يتدخلوا في حملاته ومفاوضاته .

وهكذا يتهم الامير عبد الله بن بلقين وزير المعتمد بن عباد ابن عمار بالتآمر مع الفونسو السادس ضد غرناطة (62) .

والضغوط الاقتصادية الدائمة لاسبانيا المسيحية تجاه دول الطوائف دفعت هؤلاء إلى الزيادة تدريجياً في مبالغ الجزية ، وقد أثقل هذا كاهل السكان وزرع تذمراً كان يجد تعبيره أحياناً في حركات العصيان . وحين يصل التذمر إلى درجة معينة يصبح الحكام غير قادرين على السيطرة على التمردات التي تعم البلاد والتي كان سببها الرئيسي الضرائب المرتفعة . وهذا هو الحال الذي كانت عليه غرناطة كما ذكر ذلك عبد الله بن بلقين : « وتسمع في هذا كله من أهل جهاتنا تهدداً وعصيانا أنكرناه ، لا تتم به مملكة ، ولا

يتهيأ معه قضاء حاجة » (64) .

إن الافراط في فرض الضرائب كان أمراً خطيراً ولكن بحيث أن سكان دول الطوائف كانوا واعين بذلك الظلم ، وكانو يحاولون تغيير الاوضاع فيما بعد كما يبين ذلك عبد الله بن بلقين « ورأى سلاطين الاندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الاقطاع التي كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الانفاق ما قلق به وساء الظن من أجله : جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتحف متوالية ، لو فرط منها في شيء ، لانخرمت عليهم الاحوال ؛ ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة ؛ فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى استئصال . كالذي جرى » (65) .

ومن الواضح من خلال تلك الوضعية التي جاء وصفها على ذلك النحو أن سكان دول الطوائف لم يكونوا فقط واعين بالظلم الذي لحقهم من جراء رفع الضرائب ولكنهم رفضوا ذلك الظلم . ولم يكن ليتم ذلك إلا بمساندة المرابطين الصريحة أو الضمنية الذين كانوا يضعون أحكاماً تشريعية تتضمن أن الضرائب يجب أن تلغى في دول الطوائف : « وإنما وحست نفسي من الرعية لطمعهم في حط المغارم ، والذي شاع من الزكاة والعشر عند المرابطين » (66) .

ولكن الدافع الاخلاقي المحض لتدخل يوسف بن تاشفين في الاندلس تحول إلى رغبة في الحصول على ربح مادي فإلى جانب الهدايا الثمينة التي كانت تقدم للمرابطين اضطر عبد الله بن بلقين

إلى قبول المتطلبات المالية للقائد العسكري المرابطي غارور والذي كان يقبض أحياناً مبالغ تتراوح ما بين 500 و 1000 دينار مرابطي. غير أنه إلى جانب ذلك كان عبد الله يرسل إليه مبالغ ضخمة أخرى قال عبد الله : « وأما الذي صار إليه في سفرة بطليوس ومدة كونه على لييط مع الرسل، فأكثر من أن يحصى » (67) .

وقد كان الافراط في الضرائب سبباً فى الاستياء الذي عم دول الطوائف . إن ذلك الاستياء الذي يعود إلى أصل اقتصادي وسياسي قد وصل إلى أقصى مدى إثر موقعة الزلاقة سنة 479 هـ . 1086 م ، ذلك أن الاندلسيين عاينوا قوة يوسف بن تاشفين واعتبروه بديلا عن حكامهم الفاسدين . وقد انتشرت صورة يوسف بن تاشفين كحاكم تقي ونزيه وقوي بين مجموع مختلف السكان خاصة لدى القواد العسكريين والفقهاء (68) . وأمام الانقسامات العديدة لحكام دول الطوائف تجلت صورة يوسف بن تاشفين كقوة موحدة ، ولم يكن لتلك الصورة سوى أن تجذب إليه سكان الاندلس .

ولم تغب العوامل الاقتصادية لتلك التطورات السياسية عن بال يوسف بن تاشفين . واتهم ملوك الطوائف بتجاوزهم الحد في فرض الضرائب على السكان إذ وضع المشكل في إطار قانوني . وقد كان العديد من الضرائب في دول الطوائف ليس إسلامياً وبالتالي غير شرعي . فألح على إلغائها . وهذا اجراء استقبله السكان بكل ترحاب . غير أن هذا الالغاء كان مستحيلا نظراً لقوة الضغوط العسكرية الممارسة باستمرار من طرف الفونسو السادس ضد دول

الطوائف : فقد كانت الضرائب ضرورية لضمان دفع الجزية . ولكن يوسف بن تاشفين كان يعتبر تلك الجزية أمراً مهيناً ولا شرعياً ، متهماً ملوك الطوائف بالتآمر مع « الكفار » . لقد كان لديه إذن مبرر شرعي للاستيلاء على دول الطوائف لصالحه ، إلى جانب ما كان يتمتع به لدى السكان الاندلسيين من مكانة ، علاوة على القوة العسكرية التي كانت تتوفر له لكي يحقق غرضه . وقد كان يوسف بن تاشفين قادراً على وضع نهاية مؤقتة للانهيار الاقتصادي للاندلس باستيلائه على دول الطوائف باستثناء مملكة سرقسطة التي ظلت تحت حكم بني هود . وطليطلة التي ظلت في يد المسيحيين . غير أنه لم يوفق في وضع استراتيجية على مدى طويل كان من الممكن أن تكون قاعدة للتطور الاقتصادي للبلاد . إن الغزو المسيحي كان قد انطلق وكان محركه قوياً إذ فات الأوان على إيقاف مجرى الاحداث .

## الخلاصة :

إن أهمية العوامل الاقتصادية طيلة فترة ملوك الطوائف أمام العوامل الاخرى مأخوذة في منظور شامل ، لتقدم لنا تفسيراً أساسياً لسقوط دول الطوائف المفاجيء وكانت القوة الاقتصادية لدول الطوائف قد وصلت حداً أقصى من التحلل حوالي 478 هـ - 1085 م . بعد استعادة الفونسو السادس لطليطلة . ومن ناحية أخرى كانت الهوة الفاصلة بين مملكة ليون وقشتالة وبين دول الطوائف في

الميدان الاقتصادي قد وصلت هي أيضاً إلى أقصى مداها .

وقد تصور الفونسو السادس أن سياسة رفع الجزية لم تعد مجدية وأن قوته العسكرية أصبحت كافية لتسمح له بغزو دول الطوائف واستعادتها . غير أنه لم يدرج في حساباته لجوء ملوك الطوائف إلى نجدة يوسف بن تاشفين مما أدى إلى انهزامه في موقعة الزلاقة سنة 479 هـ . ـ 1086 م . وقد كان الاخطر على الفونسو السادس استهانته بالقوة العسكرية ليوسف بن تاشفين ، وباتجاهه وحدسه السياسي وطموحه الشخصي وصفاته كحاكم مقتدر ، ولم ينتبه إلى أن يوسف بن تاشفين انجذب نحو الاندلس بفعل نفس الامتيازات المادية التي جذبته هو . وكرد فعل على سياسة الفونسو السادس العدوانية تجاه دول الطوائف استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين للتدخل في الاندلس . وبعد أن استوعب الانقسامات والضعف المفرط الذي عاناه ملوك الطوائف شرع في الاستيلاء على دولهم . وقد استولى المرابطون على كل الدول باستثناء سرقسطة . غير أن فشلهم في الاستيلاء على طليطلة كانت له نتائج حاسمة فقد حافظ المسيحيون على وضع استراتيجي ممتاز : فمن طليطلة انطلقت الحرب المسيحية لاسترداد الاندلس .

# الهوامش

1 ) هناك دراسة مقارنة وشمولية حول إسبانيا الاسلامية والمسيحية . انظر :
Thomas Glick Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages Princeton 1979

2 ) لمعالجة مثيرة للمسألة انظر مؤلف :
Jose Maria Lacarra Aspectos economicos de la sumision de los reinos de Taifas «1010—1102» in Homenaje a Jaime Vicens vol 1 Barcelona 1965 pp 255—77

3 ) راجع الفصل الاول من هذا الكتاب حول العصبية والعلاقات الاجتماعية في الاندلس طيلة فترة دول الطوائف » .

4 ) إن الكفاءات الادارية لابي ابراهيم بن نغرلة اتاحت له منصب وزير في غرناطة ( عبد الله بن بلقين ) « كتاب التبيان » ، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة 1955 ، ص : 30 ـ 32 . وابن يوسف بن نغرلة خلفه كوزير ومتصرف ( نفس المصدر ص : 206 ـ 36 ـ 39 ) ، وهاتين الحالتين هما مثالان نموذجيان لليهود الذين تبوأوا اعلى مستوى في السلطة السياسية في الاندلس . ولمقارنة

التأثير اليهودي في الممالك المسيحية لاسبانيا في الشمال وفي الاندلس راجع : Glich ، المصدر المذكور ص : 172 ـ 176 .

5 ) Evariste Levi - Provencal, Histoire de L'Espagne musulmane, vol. 3. Paris, 1953, pp. 260 - 93.

6 ) Rachel Arié, Grenade aux temps des Nasrides, Paris, 1973, p. 346.

7 ) إن نظام الري كان جد متطور طيلة فترة حكم بني أمية ( ليفي بروفنصال ، «تاريخ اسبانيا الاسلامية» ، ج 1، باريس 1950 ص. 278 ـ 82) وظل سائداً خلال فترة ملوك الطوائف . كما كان نظام الري متطوراً خلال فترة بني نصر في غرناطة ( أنظر المصدر المذكور لراشيل أريي . ص 346 ـ 348 ) ولمقارنة نظام الري في الاندلس وفي إسبانيا المسيحية راجع كتاب : Glick ، نفس المصدر ، ص : 86 ـ 78 .

8 ) « كتاب التبيان » الطبعة المذكورة سابقاً ص : 17 .

9 ) نفس المصدر ص 38 ـ 39 .

10 ) «غرناطة في عهد بني نصر» نفس الطبعة المذكورة سابقاً، ص، 346.

11 ) انظر ص. 11 .

12 ) أبو العباس أحمد المقري «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » الجزء الاول، القاهرة، 1367 هـ ـ 1949 م. ص . 188 .

13 ) نفس المصدر ، ص ، 186 ـ 187 .

14 ) حول الحملات البحرية لمجاهد بن يوسف العامري حاكم دانية ( 400 هـ . ـ 1002 م . ـ 446 هـ . ـ 1044 م . ) في سردينيا ، راجع محمد عبد الله عنان : « دول الطوائف » ، الطبعة الثانية ، القاهرة، 1969 ، ص . 190 ـ 94 .

15 ) بالنسبة للقرن الخامس الهجري راجع أبو محمد عبد المجيد

ابن عبدون : « رسالة في القضاء والحسبة » ، نشر ليفي بروفنصال بعنوان :
Trois traités hispaniques de Hisba : Documents iéndits sur la vie sociale et économiques en Occident musulman au moyen age , le Caire , 1955 , pp. 3-65.

16 ) هناك عدة دراسات حول التعمير في الاندلس ، راجع مثلا كتاب :
Ira Lapidus , Muslim Cities in the Later Middle Ages , Cambridge , Massachusettes , 1967 .

و :

The Early Reovolution of Muslim Urban Society , in Comarative Studies in History and Society , no. 20 , ( 1965 ) , pp . 1015 - 37 .

Leopoldo Torres Balbas , Ciudades Hispano - musulmanas , 2 vol . , Madrid , 1972 .

و :

Plazas , zocos y tiendas de las ciudades Hispano-musulmanas , in Al-Andalus , XII ( 1947 ) , pp. 437 - 76 .

و Glick المصدر السابق .

17 ) من المؤلفات القيمة حول الموضوع كتاب بدرو شالميطا :
Pedro Chalmeta , El senor de l zoco en Espana , Madrid , 1973 .

ويبرز هذا المؤلف الخواص العامة للمحتسب في إسبانيا الوسيطية ، غير ان النصف الاول من الكتاب يدرس المحتسب في الاسلام وفي المجتمع المكي قبل الاسلام في حين أن الربع الأخير منه يخصصه لمراسلات المحتسب في إسبانيا المسيحية . ونظراً لقلة المصادر فإن الصفحات 357 ـ 494 هي التي يعالج فيها المحتسب في الاندلس . ويرد فيه الخواص العامة خلال فترة سبعة قرون في حيز جغرافي في طور التناقص وشهد العديد من النظم السياسية والظروف الاجتماعية والاقتصادية المتعارضة . ومن المؤسف أن هذا العمل جد نظري . فوصف المحتسب والمقومات الاخرى لهذه الوظيفة يدرجها المؤلف طيلة بعض الفترات المحدودة جداً . فمثلا بالنسبة لفترة ملوك الطوائف نجد فقط 5 صفحات مخصصة بموضوع gobierno del zoco . في ممالك الطوائف .

18 ) راجع الدراسة القيمة عن الطرق التجارية الرئيسية في العالم

الاسلامي من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر ، وذلك لدى
MAURICE LOMBARD - L'islam dans freniere grondeur.
باريس ، 1971 - ص 204 - 34 .

19 ) « نفح الطيب » ، الطبعة المذكورة سابقاً ، ص 187 - 88 .

20) Willion Monrgomeriy Watt, L'infeluerce de l'zsleur 20 sur l, Eurof medievale, traoluit de l'aglois par G. Humberv. Paris 1974. p. 28-29.

21 ) « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص 79 .

22 ) إن الكلام عن غزو طليطلة جاء في عدة مصادر : أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني ، « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » ، القسم الرابع ج 1 تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيا - تونس ، 1979 ، ص 163 - 169 و« كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص 176 - 177 والفونسو العاشر وسانشو الرابع : « اول حولية عامة لاسبانيا » . (Pimera, cronica general de Espana) تحقيق رامون مننديث بيدال (Ramon Menendet Pidal) بمساهمة :
T. G. Pelez, M. M. Cartes, A C, Solalinde ج 2، مدريد ، ص 530 - 531 .

23 ) « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص . 86 .

24 ) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، ج 1 . نشر إحسان عباس - ليبيا - تونس 1978 ، ص ، 16 - ابو العباس احمد بن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب . ج 3 . نشر ليفي بروفنصال باريس 1930 ، ص: 196 - 97.

25 ) الفونسو السادس وابن عمار توجه في نفس اتجاهنا ، وقد آلمنا ذلك غاية الألم . وقد اخبرنا فيما بعد ان الهدف الوحيد من اختراقه كان هو الاستيلاء على مملكتنا . (كتاب التبيان ص . 74 .) وكل النصوص المأخوذة من كتاب التبيان ، وكذلك المصادر الاخرى هي ترجمة خاصة بهذه الدراسة . وقد قدمت الترجمة الانجليزية الكاملة هذا المؤلف كأطروحة الدكتوراه (امين توفيق الطيبي ، The TIBYANof Abdullah B. Buliggin last Zirid of granada ، اطروحة دكتوراه، اكسفورد 1972) . نشرت هذه الدراسة مؤخرا في هولندا عند الناشر بريل سنة 1986 .

26) كتاب التبيان ، ص 77 ، الذخيرة ، قسم 4 ، ج 1 ص 157 ـ 60 .

27) نفس المصدر ، ص : 88 ـ 95 .

28) « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 19 ـ 22 . و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، المصدر السابق ، ص : 202 ـ 203 .

29) « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص: 33ـ 36 و « البيان المغرب » ، ج . 3 ، المصدر السابق ، ص : 210 ـ 211 .

30) « الذخيرة » القسم الثاني ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص: 268ـ 269 . و « الذخيرة » ، القسم 1 ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص . 67 و « اعمال الاعلام » المصدر السابق ، ص . 171 ـ 172 .

31) انظر انطونيو بريتو ANTONIO Prieto Y Vives

Los Reyes de Taifas estudio historico numismatico de los musulimanes ispanoles en el siglo V de Hégira ( Xi de . G . C ). Madrid , 1976 et Georges Miles , coins of lhe spanish Muluk at - TAWA , if , NeW york 1954 :

32 ) A. Ashtor, Prix et Salairs dans l' Espagne musulmane aux et XI Siécles, in Annales , Economies Civilisations vol X X, (1965) P. 664 - 79.

33) ابو نصر الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان في ابناء الزمان ، القاهرة 1283 هـ ، ص : 1 ـ 10 .

34) يشتكي الأمير عبد الله بن بلقين بمرارة من اضطراره الى دفع مبالغ كبيرة إلى الفونسو السادس ( «كتاب التبيان» ، المصدر السابق، ص:76).

35) نفس المصدر ، ص : 72 .

36) نفس المصدر .

37) نفس المصدر ، ص : 75 .

38) مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية نشر ، ا. س. علوش ، الرباط 1936 ، ص : 29 .

39) اعطي 50 ديناراً لشيخ يدعى فرقان لقاء مشاركته في مؤامرة دبرها يدير لقلب بادس حاكم غرناطـة («كتاب التبيان»، ص : 32 ) . وقبل ان يسلم الـأمير عبد اللـه بن بلقين غرناطـة ليوسف بن تاشفين ضغط القائـد المرابطي غارور على عبد الله لكي يجبره على دفع مبالـغ تتراوح بين 500 و 1000 دينار . (نفس المصدر . ص : 115 ) بصفة دورية . ومن سخريـة القدر ان 500 دينار كـانت هي المبلغ الذي دفعه المعتمد بن عباد إلى شاعـر اعجبه قصيده . ( «قلائد القيان»، المصدر السابق، ص : 9 ـ 10 ) .

40) «كتاب التبيان» المصدر السابق، ص : 116 .

41) نفس المصدر، ص : 38 ـ 39 .

42) نفس المصدر . ص : 77 .

43) نفس المصدر، ص : 56 . إلا ان الـأمير عبد الله بن بلقين ربمـا لم يذكر حقيقة المبلغ الذي ترك لـه إذا اعتبرنا انه كـان يكتب مذكراته اثناء وجوده اسيراً لدى يوسف بن تاشفين ولم يستطع ان ينقذه .

44) يبرز (لوري) الخصائص العامة للحياة العسكرية في إسبانيا الوسطية .

E. Lourie, Asoiety organised For War: Medieval Spain, in Past and Present ,N°. 1 1966, P. P. 54 - 76 ) .

ويحلل مقال حديث مختصر كـتبه مختص في المجتمع القشتالي الوسيطي دور الحرب بصفتهـا مهنة في المجتمع الوسيطي : ANGUS MACKAY

Laguerra como oficio : Significado Y funccion de los guerras in la sociedad feudal castellana ent'e los Siglos IX y X I Vin, Historia 16, Madrid No 34, Feb - 1979. P. P. 45 - 54.

وحول نفس الموضوع انظر القسم المعنوي :

The Militartsation of Social Groupjng iu Angus Machay, I Spain in the Middle Ages, From Frontie Empire, 1000 - 1500, London and Basingstoke 1977 - PP. 45 - 57 '

وحول أهمية الحرب داخل دول الطوائف ودورها راجع كتاب «التاريخ

السياسي لإشبيلية في عهد دول الطوائف» للدكتور امحمد بن عبود ، تطوان ، 1983 ، ص : 235 ـ 269 .

45) من ملحمة السيد يعبر عن (infanzon) الشجاع مفضلا على النبلاء الغير المستحقين مثل أمراء كاريود سعيد هو سيدي الفارسي Comfeador، شقي هم أمراء كاريوس » . (The Poem of the Cid، ترجمه إلى الانجليزية ل . ب . سبسون Simpson، Berkehey، لوس أنجلس، لندن، 1957 ، ص: 138) . ورغم ان تلك الملحمة المشهورة هي مصدر ادبي اكثر من تاريخي ، فإن كثيراً من الأسماء والمراجع المذكورة دقيقة على المستوى التاريخي ويمكن تمحيصها بالرجوع إلى مصادر موثوقه معاصرة لذلك .

46) Spain fn the Midd le ages, op . cito P. 51

47) نفس المرجع .

48) «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص 69 ـ 76 .

49)

50) نفس المصدر ، ص : 122 .

51) نفس المصدر .

52) نفس المصدر ، ص : 123 .

53) نفس المصدر ، ص : 125 .

54) نفس المصدر .

55) عبد الله بن بلقين عن هذه الفكرة حين كتب ، لقد كنا في نفس الحال في هذا ، فكلما أعطى واحد منا المال ألى جيش ما وحاول آخر أن يضع حداً لهذا التفوق كان الأول يعطي قدراً اكبر ويخلي سبيله ؛ نفس المصدر ، ص : 70 .

56) نفس المصدر ، ص : 114 ـ 115 .

57) نفس المصدر ، ص : 72 ـ 77 .

58) نفس المصدر . ص : 71 .

59) نفس المصدر ، ص : 69 .

60) نفس المصدر ، ص : 73 .

61) نفس المصدر ، ص : 101 .

62) نفس المصدر ، ص : 72 .

63) نذكر هنا كمثل على ذلك تمرد ليوسنة (نفس المصدر، ص: 130-135)

64) نفس المصدر ، ص : 110 .

65) نفس المصدر ، ص : 109 .

66) ص : 120 من نفس المصدر . إن السياسة الجبائية لبعض دول الطوائف كانت جد قاسية حتى في بداية القرن الحادي عشر . فمثلا سنة 401 هـ . - 1010 - 1011 م . وصلت الضرائب مستوى مبالغا في الإفراط في بلنسية « لقد وصل حد 120000 دينار شهريا ، 7000 دينار في بلنسية و50000 دينار في جانيبة ( شتيبة ) . وكان يقبض في قسوة كبيرة . . » ( ابو حسان علي بن بسام الشنتريني . « الذخيرة في محاسن اهل الجزيزة » ، القسم الثالث . ج . 2 . تحقيق إحسان عباس ، ليبيا - تونس . 1975 ، ص : 115 .

67) « كتاب التبيان » . نفس المصدر ، ص : 115 .

68) في حالة المعتمد بن عباد قام يوسف بن تاشفين بكل انواع الضغوط لإرغامه على الاستعانة بألفونسو السادس الذي لم يسعفه في شيء على اي . إلا ان يوسف بن تاشفين وجد نفسه في موقف المتهم ( بالكسر ) تجاه حكام آخرين ومؤاخذتهم على تعاونهم مع الكافرين . وقد اعطتها مساندة الفقهاء لهذا الاتهام مشروعية اكبر . « فلما تبين للامير خلافه وقعوده عنه ، شاور الفقهاء في امره ؛ فأشاروا عليه بغزوه . فكان غزوه بعد إبلاء غدر ؛ ولهذا ما اخربه ليهلك من هلك عن بينة ولتكون له الحجة على من يريد إخراجه . فأمر الامير سير بالخروج إليه . ونهض ونحن بمكناسة . ونازله مدة طويلة ؛ ومعاقله قد ذهب اكثرها بالطاعة » . ( نفس المصدر ، ص : 169 - 170 ) .

# الفصل الثالث

## الـدور السياسي والاجتماعـي للعلماء الاندلسيين فـي عهـد دول الطوائف

هل يمكن لنا أن نخرج بتصور كامل وواقعي للمجتمع الاندلسي في القرن الهجري الخامس دون اعتبار للدور الهام الذي قام به العلماء بصفتهم شريحة حية وجزءاً لا يتجزأ من المجتمع؟ لقد تداخلت السياسة والدين بعضها مع البعض الآخر فى العالم الاسلامي بما في ذلك الاندلس ، خلافا للعالم المسيحي حيث نلاحـظ انفصالا تاريخيا للكنيسة عن الدولة في العصر الوسيط . نتيجة لذلك، شكل العلماء الاندلسيون فى القرن الهجري الخامس مجموعة ملتحمة ثقافيا

واجتماعيا وحتى سياسيا في بعض الظروف . ربما كانت فكرة انفصال الكنيسة عن الدولة السبب الرئيسي ، مهما كان خفيا ، وراء تركيز المؤرخين مؤخراً (مهما كانت جنسيتهم) على العناصر والابعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية للتاريخ الاندلسي مع اهمالهم للبعد الديني . ليس هذا مكانا مناسبا لمناقشة قيمة انفصال الابعاد الروحية عن المادية للتاريخ الاندلسي . إلا أنه يجب تأكيد أهمية العامل الديني الذي كان يمثله العلماء لكونه شكل عنصرا حاسما في عقلية ومزاج الاندلسيين والمجتمع الانداسي (وكذلك المجتمع المسيحي في شمال إسبانيا ) خلال تلك الحقبة التاريخية . ويعكس هذا فى المعتقدات واللغة المتداولة والسلوك والقيم الثقافية والحضارية الشائعة خلال تلك الفترة التاريخية

ليس الهدف من هذا الفصل اثبات أهمية العنصر الديني بمعزل عن بقية العناصر في الاندلس كما أنه لا يرمي الى اظهار أهمية العناصر المادية بمفردها ، بل سوف نحاول أن نبين أن العلماء شكلوا شريحة اجتماعية يطبعها الالتحام الديني بالدرجة الاولى ومع ذلك فقد ساهمت بوضوح في توجيه السير التاريخي في الاندلس في عهد دول الطوائف اجتماعيا وسياسيا ونلفت نظر القارئ الى أنه ينبغي ألا ينسى ان الاحكام والاستنتاجات التي سنخرج بها من هذا الفصل تخص فترة زمنية محددة ونعني عصر الطوائف (ونتيجة لذلك فقد تنسحب أو لا تنسحب على العصور الاخرى من التاريخ الاندلسي ) كما عليه أن يتذكر أن الدور

الاجتماعي والسياسي للعلماء الاندلسيين قد تطور وتحول خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة نفسها إذ انها تقدر بحوالي ثمانين سنة . وربما يعود السبب الرئيسي لخلافات المؤرخين القوية حول القضايا المرتبطة بالتاريخ الاندلسي ( بما فيها المسائل الدينية والاجتماعية ) وانقسامهم الى تيارات متعارضة الى كون نقاشاتهم دارت حول نفس المواضيع خلال عهود مختلفة من التاريخ الاندلسي (1) . فقد نجد في نهاية الامر أن الاطراف المختلفة أصابت جزئيا . إلا أن خطأهم جميعا يعود الى محاولة كل طرف اعتبار الحق بجانبه وحده وبكيفية شاملة ومطلقة . إلا أن مجال البحث التاريخي واسع إذ هناك متسعا للتعاون ولتكميل الباحثين لمجهودات غيرهم . أما المواجهة ، فكثيرا ما تشكل مسعى غير ضروري وغير مثمر ولا طائل من ورائه وأخيرا نرجو لهذا الفصل أن يدل على الكيفية التي شكلت بها الابعاد الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية أجزاء مختلفة لنفس الواقع التاريخي .

لا تشكل فكرة التحام البعدين الديني والمادي في الحياة الاجتماعية الاندلسية في القرن الهجري الخامس موقفا اديولوجيا ثابتا بالنسبة لنا . ولم يكن هدفنا الاصلي اتخاذ هذه الفرضية واثبات انطباقها على المجتمع الاندلسي خلال فترة معينة بل على عكس ذلك ، يعود سبب اقتناعنا بالدور الرئيسي الذي لعبه العلماء في الاندلس على المستوى الديني والاجتماعي ثم على المستوى السياسي الى فحصها للمصادر التاريخية العربية المعاصرة للقرن الخامس

الهجري والمتأخرة في إطار الدراسات التي قمنا بها حول جوانب أخرى في التاريخ الاندلسي ، خصوصا تاريخ إشبيلية في عهد بني عباد (2) . وبعبارة أخرى ، كان موقفنا هذا نتيجة البحث التاريخي في جوانب مادية من التاريخ الاندلسي خلال فترة محددة . لهذا فالسؤال الذي يجب أن يطرح ليس هو هل نرى أن البعد الديني يكتسي أهمية كبرى وذلك بصفتنا مؤرخين عصريين بل علينا أن نتساءل هل تأثرت الشخصيات المعاصرة للفترة التي ندرسها في القرون الوسطى في مكان معين خلال فترة معينة بالدين في حياتها الاجتماعية وفي تصورها لهذه الحياة . بعبارة أخرى ، ربما أخذت العلوم الاجتماعية التي تطبق اليوم طابعا تغلب عليه المادية إن لم يسيطر عليها ، ولكن عندما نعالج مشاكل تاريخ القرون الوسطى لابد للمؤرخ الجدي أن يأخذ بعين الاعتبار الدرجة المرتفعة للوعي الديني التي سيطرت في جميع أنحاء العالم الاسلامي والعالم المسيحي . إن المصادر التاريخية الرئيسية الاسلامية والمسيحية منها تشير دون أدنى شك الى هيمنة البعد الديني في التاريخ الاندلسي في عهد دول الطوائف (3) .

ولكن رغم الوجود الفعلي القوي لهذا البعد لم يحظ موضوع العلماء بالاهتمام والدراسة التي يستحق . لقد أصدر عدد من أبرز المؤرخين الاوربيين على الاندلس أحكاما جد سلبية حول العلماء الاندلسيين . فعلى سبيل المثال ، نلاحظ أن ليفي بروفنصال ، المؤرخ الفرنسي اللامع للعصر الأموي والمحقق الدقيق لأبرز

المخطوطات العربية للتاريخ الاندلسي ، قد وصف المذهب المالكي في الاندلس بعبارات قدحية ومنها «المالكية القاسية عدوة التجديد» ( Le malikisme rigoriste et ennemi des innovations ) أو « المذهب الجامد » ( doctaine immobile ) . ولعل الاقتباس التالي يعكس تصور ليفي بروفنصال المنحرف للمذهب المالكي في الاندلس بوضوح، خصوصا على عهد بني أمية :

« ... استطاعت المالكية القاسية وعدوة التجديد أن تحفظ المملكة الاموية من الخلافات والمنافدات الدينية التي كانت قد بدأت تظهر في باقي مناطق العالم الاسلامي . ولكن القمع كان سريعا ولم تستثن منه أية طبقة في المجتمع ولم يخضع لأية مناقشة في التراب الايبيري بفضل الوحدة المذهبية التي فرضتها المالكية . كانت الفتاوى تحظى بالتأييد الضمني للحاكم الذي لم يكن بوسعه هو الاخر أن يتعنت دون أن يؤدي ذلك الى استنكار الفقهاء فقط ، بل وحتى الى ردود فعل الجماهير الجاهلة من رعيته . وهكذا ظهرت الدولة الاسلامية الأندلسية منذ أبعد جذورها بصفتها الحامي والمدافع عن المذهب السني المتمسك بمبادئه يزداد تحجرا في الاحترام الاعمى لمذهب جامد ، تشك وتحرم مسبقا أدنى محاولة في التأمل العقلاني (4) .

يمثل هذا الاقتباس مواقف عدد من المؤرخين الأوربيين حول المذهب المالكي في الاندلس وذلك للاسباب التالية : أولا ، إنه يقدم المذهب المالكي كقوة جامدة يطبعها التعصب الديني . ثانيا ،

يعتبر أن هذه القوة بلغت منتهى القمع نظرا للدعـم الذي نالـه من طرف الدولة ونظرا لانفرادهـا ولتميزها بالطابع الرسمي . ونتيجـة لذلـك ، أصبحت جميع المدارس والمذاهب الاخـرى تعاني القمع . ثالثـا ، وكان نتيجة هذه الاوضاع أن الاندلس حرمت من الحيوية والعقلانية .

نعتبر طريقة التفكير التي قدمناها أعلاه خاطئة تماما وإن المصادر الاولية تشير الى اتجاه مخالف تماما . أولا ، لم يشكل المذهب المالكي فى الاندلس قوة جامدة الجمود . فإذا قمنا بمراجعة المبادىء المالكية نجد أنها تتميز بدرجة هائلة من المرونة والتكيف مع الواقع الاجتماعي ويعد ذلك من الاسباب الرئيسية التي مكنت المذهب المالكي من اكتساب نجاح دام مدة طويلة في الاندلـس . إن كتب سير وطبقات العلماء والفقهاء الاندلسيين تعكس شريحة اجتماعية جد ديناميكية ومنتجة بغزارة كما وكيا .

ثانيا ، تمتع العلماء المالكيون بجذور شعبية عميقة في الاندلس كما أنهم كانوا يؤطرون اجتماعيا ضمن الطبقة الوسطى أو حلقة العامة . فعلى سبيل المثال . يعكس العدد الكبير للعلمـاء فى عهد الطوائف شريحة اجتماعية ذات سند ودعم اجتماعيين هائلين .

ثالثا ، تمتع المذهب المالكي فعلا بدعم من طرف الدولة ويعود سبب ذلك بالذات الى الشعبية التي حظي بها هذا المذهـب فـي الاندلس . بعبارة أخرى ، كان الهدف من اعلان المذهـب

المالكي مذهبا رسميا سنة 170 هـ ـ 786 ـ 787 م عبارة عن وسيلة اعتمدتها الدولة لتتبنى المذهب الذي خطي بشعبية أكثر فى الاندلس.

رابعا ، إن الموقف القائل بأن المذهب المالكي إعرقل تطور الاتجاه العقلاني ليست مبنية على أسس متينة هي الاخرى . فإذا كان التاريخ الاقتصادي والسياسي للاندلس فى القرن الهجري الخامس يعكس اتجاها سلبيا ، فإن التاريخ الثقافي في نفس الفترة قد تميز بالازدهار في عدد من الميادين كما طبعه مفكرون من طراز عالمي .

خامسا . جاءت الاحكام والاستنتاجات الخاطئة بشأن المذهب المالكي والعلماء في الاندلس عامة نتيجة للانحيازات والافكار المسبقة التي ميزت عدداً من المستشرقين ومنهم ليفي بروفنصال. لقد طبعت مجهوداتهم الجبارة ومساهماتهم في الدراسات الاندلسية بطابع أكاديمي متميز ومحترم . إلا أنهم تأثروا من جهة أخرى بأفكارهم المسبقة .

نذكر من بين المؤرخين الاسبان ميكيل آسين بلاثيوش Pa acios الذي انجز دراسة عميقة حول ابن حزم (5) ، إلا أن السر الذي يكمن وراء اهتمامه بابن حزم يعود لما كان يتصف به هذا الاخير من فكر حر وكعالم ظاهري معارض للمذهب المالكي فى الاندلس . أما برونشفيك Brunschvig فقد نشر مقالة حول المذهب المالكي (6) ، وهناك دراسة مقارنة حول ابن حزم وأبي الوليد

الباجي (7) . كما درس غرسيا غوميث الفقيه الإبيري (8) . وتثير مقالة حسين مؤنس حول فقهاء المالكية في العصر الاموي قضايا هامة وتتميز بتفكير عميق (9) ، إلا أنه كان مدفوعا برغبته في إثبات تأثير الشافعية في المالكية ويعود ذلك الى انتمائه الى المذهب الاول بصفته مصريا . كما كان المذهب المالكي في الغرب الاسلامي موضع الدراسة في أطروحتين لنيل الدكتوراه (10) ، إلا أنهما لم تركزا على الدور الاجتماعي للعلماء المالكيين فى الاندلس وفي المغرب ، كما كان ينبغي ؛ بل اهتمتا أساسا بالعقيدة في المذهب المالكي . أما نشر «كتاب الصلة» لابن بشكوال فكان بامكانه أن يخلق اهتماماً شديدا بالادوار التى لعبها الفقهاء الاندلسيون في القرن الخامس للهجرة ومع ذلك لم يستغل هذا المعجم الحيوي لسير الفقهاء في القرن الخامس الهجري استغلالا تاما وربما يعود ذلك الى كونه لم يترجم إلى أية لغة أوربية فلم يتمكن المؤرخون الاوربيون من دراسته ، أو قد يعود السبب الى الاهمال الذي عانى البعد الديني للتاريخ الاندلسي عموما . ومع ذلك ، هناك دراسة حديثة متميزة حول العلماء والتي اتخذت موقفا موضوعيا تجاه العلماء المالكيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين (11) .
كان الهدف الرئيسي من دراسة أورفوا دومينيك تطبيق المنهج الرياضي والاحصائيات على العلماء في القرنين الخامس والسادس للهجرة . لذا تكتسي هذه الدراسة أهمية خاصة لانها تشكل تجربة فى تطبيق منهاج سوسيولوجي عصري على فترة من القرون الوسطى.

ومع ذلك ، فإن قوة هذا العمل تقع أيضا في كون المؤلف اثبت مقدرته على استغلال المصادر التاريخية الاولية استغلالا تاما، خصوصا « كتـاب الصلـة » لابن بشكـوال (12) . نتيجة لذلك فـإن أراءه وتفاسيره مبنيـة على برهـان تاريخي متين كما تتجلى مساهمـة أورفوا (Urvoy) في فحصه لتوزيع العلمـاء الاندلسيين فـي القرنين الخامس والسادس للهجرة ثم تصنيفه للتخصصات الثقافية واتجاهات هـذا العصر .

ما مدى انعكاس وجود العلماء في المصادر العربية التاريخية في الأندلس في عهد دول الطوائف؟ بطبيعة الحال، يعتبر ابن بشكوال مصدراً رائعا لدراسة العلماء خلال هده الفترة (13) . وفعلا ، اعتمد دومينيك أورفوا (Urvoy) على هذا المصدر في دراسته السوسيولوجية إلا أن هذا المصدر ما يزال عبارة عن منجم بكر من المعلومات (14) . أما معاجم السير المتأخرة مثـل كتاب ابن خلكان الهام (15) فتتجلـى قيمتها في كونها مصادر تكميلية . ويعتبر كتاب « نفح الطيب » للمقري (16) مصدراً فريدا وغنيا جدا ليس فقط لدراسـة العلماء ودراسة عهد دول الطوائف بل لدراسـة التاريخ الاجتماعي العام فـي الاندلس . أما أعمال المؤرخين المتأخرين مثل « البيان المغرب .. » لابن عذاري (17) و « المعجب . . . » للمراكشي (18) و « الروض المعطار . . . » للحميـري (19) أو « الحلـل الموشية . . . » لمؤلف أندلسي مجهول الإسم (19 مكرر) وغيرها من المصنفات القيمة والتي تفيد في معرفة التاريخ العام لعهد الطوائف وبدرجة أقل دراسـة دور

العلماء في عهد الطوائف . ومع هذا فإننا نصادف من بينها مصدرين تاريخيين أساسيين لدراسة عهد دول الطوائف عامة ، كما سنرى في القسم الثاني من هذا الفصل ، تتجلى أهميتهما أيضا في دراسة الدور السياسي للعلماء الاندلسيين خلال هذا العصر. ونعني مذكرات عبد الله بن بلقين الزيري المسماة « كتاب التبيان » (20) . والاقتباسات التي وصلتنا من كتاب « المتين » لابن حيان (21) ثم « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام (22) يعتبر كل من عبد الله بن بلقين وابن حيان شخصيتين معاصرتين لعهد الطوائف بينما عاش ابن بسام في النصف الثاني من القرن الخامس والنصف الاول من القرن السادس للهجرة . لا توجد المعلومات حول النشاط السياسي لعدد من العلماء والفقهاء الواردة في هذه المصادر في أي مصدر آخر. إذاً، كيف قام هؤلاء المؤرخون بدراسة الدور السياسي للعلماء والفقهاء الاندلسيين في عهد الطوائف ؟ سوف نتطرق في القسم الاول من هذا الفصل الى مناقشة الدور الثقافي والفكري للعلماء كما سنركز على دورهم السياسي في القسم الثاني. يستحق الدور الثقافي مناقشة دقيقة ومطولة ، ولكن هدف هذا القسم ينحصر أساسا في طرح مجموعة من الاسئلة وتسليط الاضواء على بعض الجوانب العامة لهذا الدور الثقافي الذي نرجو أن يحظى بدراسة دقيقة في المستقبل من طرف غيرنا من الباحثين . إن بعض المصادر التي ذكرناها أعلاه معروفة ، خصوصا لدى المختصين . ومع ذلك، يكتسي ذكرها أهمية كبرى في إطار مشكلة المصادر التاريخية

العربية لدراسة عهد الطوائف . لقد كان عصر الطوائف شأنه في ذلك شأن جميع عصور التاريخ الوسيط أكثر تعقيدا من تصورنا له اعتمادا على المصادر الاولية . ولا يمكن للعلماء المهتمين بتاريخ هذه الفترة إلا أن يرحبوا باكتشاف مخطوطات جديدة لدراستها . ومع ذلك ، خلافا للفترات التاريخية الاخرى التي لا نتوفر إلا على مصادر قليلة وفقيرة من حيث نوعيتها فإن بعض المصادر لدراسة عصر الطوائف تنفرد بطابع متميز وبالرغم من كونها حظيت بتحقيق ممتاز من لدن علماء مقتدرين فلم تستغل كليا في الكتابة التاريخية .

وبعبارة أخرى ، لا يعود السبب لكوننا نعرف أقل مما يمكننا أن نعرفه حول عهد الطوائف ـ أو ؛ فقط إلى ضياع بعض المصادر الاولية الثمينة لدراسة هذه الفترة مثل النص الكامل « لمتين » ابن حيان الذي لم يعثر عليه الى يومنا هذا ، بل ويعود أيضا الى كون تلك المخطوطات التي حظيت بالعناية والتحقيق مثل « كتاب التبيان » و « ذخيرة » ابن بسام ، لم تستغل إلا بكيفية سطحية بالنسبة لتاريخ عهد الطوائف .

# الـدور الثقـافـي والفكـري

قبل مناقشة الدور الاجتماعي والسياسي للعلماء يجب علينا أن نتسائل بشأن طبيعة هذه الشريحة الاجتماعية. إن الشريحة الاجتماعية التي نريد دراستها هي النخبة الثقافية والدينية فى الاندلس فى القرن الهجري الخامس . فهل يجب علينا أن نطلق عليها مصطلح العلمـاء أم الفقهاء ؟ إن مصطلح العلماء هو جمع عالم ومصدره العلم ، يعني المعرفة . أمـا مصطلح الفقهاء فهو جمـع فقيه ومصدره الفقه بمعنـى الشرع الاسلامي مع أن ابن منظور حدده في معجم «لسان العرب» بـ « العلم بالشيء والفهم له » ، ورغم الارتبـاط الديني القوي لهـذا المصطلح نجد استعماله في إطار غير ديني كما هو الشأن مثلا في فقه اللغة ، ومع هذا فالامر الذي يهمنا أساسا هـو استعمال مصطلـح الفقهاء ومصطلح العلماء لتحديـد شريحة أو شريحات إجتماعية ، إذا حاولنا تحديد كل شريحة اجتماعية على حدة نواجه مشاكل نظرا

لتدخلهما . يمكن القول إن نظام التعليم في الاندلس كان موحدا إلى حد بعيد . فبعد حصول طالب العلم على التعليم العام الاساسي يختار ممارسة دراسته لفروع مختارة من المعرفة مثل فرع من فروع الفقه أو النحو أو الحديث إلخ . . . ولعل حقيقة وجود عدد كبير من الشخصيات الادبية في الاندلس تطرح تساؤلا وهو هل كان الادب (خصوصا الشعر) يدرس في المساجد التي قامت بدور المدارس (23) ؟ قد يكون الجواب الصحيح بالنفي ، ولكن يحتمل جدا أن العالم الذي حصل على المبادئ الاساسية في النحو واللغة ، ثم اهتم بالادب استطاع أن يتابع دراسته في هذا الميدان بطريقة حرة، إما اعتمادا على مجهوده الشخصي أو مع اصدقائه ومن المحتمل أن انتشار الادب كان يعتمد على النقل الشفوي . لقد أصبح الشعر العربي شائعا في الجزيرة العربية اعتمادا على تقليد شفوي وذلك منذ عهد الجاهلية قبل ظهور الاسلام كما تطور الشعر تطورا ملحوظا في الاندلس في إطار عملية التعريب التي وصلت الى درجة جد متطورة في القرن الخامس الهجري كما نرى من خلال كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام مثلا وتعتبر الكتابة وسيلة أخرى لإشاعة الادب العربي . لقد كانت الكتب التي ظهرت في القرن الهجري الخامس هامة جدا من حيث العدد كما تعتبر من أرقى المستويات وذلك في جميع ميادين المعرفة المعروفة آنذاك (بما فيها الأدب) .

كثيرا ما يصعب التفريق بين العلماء والفقهاء لانهم جميعا من انتاج نفس النظام التعليمي بالرغم من كونهم تخصصوا في فروع معرفية مختلفة . ومع هذا كان بامكان العلماء أن يتخصصوا في أكثر من فرع ميدان من ميادين المعرفة . كما نجد أن بعض العلماء تخصصوا في كل من فروع المعرفة الدينية واللادينية في آن واحد . ولعل مثال ابن حزم من أبرز الامثلة على ذلك . فقد ألف في ميادين مختلفة كمقارنة الاديان (24) والنسب (25) والادب (26) والفقه (27) وميادين أخرى(28). ومع هذا لم ينفرد ابن حزم بالتأليف في ميادين متعددة . فقد كان عدد من العلماء الاندلسيين شعراء ماهرين (29) . كما كان تصور التخصص شائعا وعاديا . فعلى سبيل المثال ، يعتبر ابن حيان مؤرخا وابن بسام جماعة أديباً وناقداً وأبو الوليد الباجي فقيها بالدرجة الاولى وابن زيدون شاعرا . بعبارة أخرى لقد كان التخصص موجودا إلا أنه كان بامكان العالم أن يتخصص في أكثر من ميدان لان المعرفة كانت تصور كذات واحدة لها فروع متعددة . وأخيرا ، من المهم أن نلاحظ أن التعليم في الاندلس كان يشمل علوماً دينية وغير دينية مع أن البعد الديني طبع نظام التعليم ككل . بعبارة أخرى ، كانت المعرفة مرتبطة بالدين ارتباطا قويا كما شجع الدين على الحصول على المعرفة وانتشرها فى اشكالها المختلفة باعتبارها واجبا دينيا.

ومما يجعل أمر التفريق بين الفقهاء والعلماء صعباً طابع تعدد الابعاد للتعليم فى الاندلس في عهد دول الطوائف. ربما سوف يتضح

المشكل أكثر إذا فحصنا الكيفية التي نظر بها الاندلسيون المعاصرون لهذه الفترة الى هذين المجموعتين أو كيف استعملوا المصطلحين معا لتحديد نفس الشريحة الاجتماعية . تشير المصادر المعاصرة الى الفقهاء والى الفقيه . وهكذا نلاحظ أن هناك إشارات الى الفقهاء بصفتهم يشكلون شريحة اجتماعية ملتحمة ثم هناك إشارات إلى أفراد ينتمون الى هذه الشريحة (30) . يعبر مصطلح العلماء عن مركز أو وضعية . ومع ذلك ، هناك إشارات أيضا الى العلماء بصفتهم يشكلون شريحة اجتماعية، هناك اشارات الى « عالم » والى « العلماء » للدلالة على الطبقة المثقفة (31) . ولكن كان الفقهاء من جهة أخرى علماء في ميادين غير الميادين الدينية. بعبارة أخرى ، كانوا علماء بالمفهوم الحديث للكلمة ، لان اهتماماتهم الثقافية كانت تضم الفروع الفقهية إلا أنها لم تستثن بالضرورة المذاهب العلمية غير الدينية. في الختام ، بامكاننا أن نختار واحدا من المصطلحين أو كليهما لوصف النخبة الدينية الاندلسية في القرن الهجري الخامس بعد تحديدنا لكل من المفهومين ولمعناه . فيما يخص هذا الفصل ، فسوف نستعمل المصطلحين بصفتهما مرادفين . وربما يمكن تبرير هذا الموقف لان ابن بسام استعمل المصطلحين مشيرا الى نفس الشخص . فعلى سبيل المثال ، وصف ابن الفرضي فنعته بمصطلح « . . . الفقيه » ثم أشار إليه في نفس الفقرة قائلا « شاعر مقل ، هو في العلماء أدخل منه في الشعراء . . . » (32) . إلا أن هذا المثال لا يحل المشكل بصفة نهائية،

لان ابن بشكوال استعمل المصطلحين (العلماء والفقهاء) في نفس العنوان لكتابه حول سير العلماء والفقهاء الاندلسيين وذلك كالتالي: « كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ... وفقهائهم .... » ويشير استعمال المصطلحين في عنوان واحد الى اعتبار المؤلف الفرق بينهما بسيطا باختصار ، لقد استعمل بعض المؤلفين المصطلحين بصفتهما مرادفين ولكن علينا أن نتذكر أنه لا يوجد مرادفين لهما نفس المعنى والدلالة بالذات .

لقد أخذ المؤرخون من مختلف الاتجاهات العلماء في الاندلس مأخذ السهولة . فعلى سبيل المثال ، اعتبروهم جزءاً من المذهب المالكي والحركة المالكية دون أخذ خصائصهم الفردية بعين الاعتبار وبالجدية .

بل أكثر من هذا ، لم ينتقد المؤرخون الغربيون المذهب المالكي في الاندلس بموضوعية إلا القليل منهم . ومن هنا نلاحظ أن الأحكام والتعميمات التي خصصت للمذهب المالكي قد ارتبطت بالعلماء الاندلسيين فكانت هذه الأحكام إما إيجابية جدا أو سلبية إلى أقصى الحدود . بعبارة أخرى ، بينما تهجم البعض على المذهب المالكي . كما طبق في الاندلس . وشوهه وذلك يعني تشويها ضمنياً للعلماء الاندلسيين ، فقد مدحه آخرون الى أقصى الحدود . فبينما اعتبر البعض المذهب المالكي قوة تاريخية جامدة ورجعية في الاندلس ، اعتبره آخرون قوة اجتماعية مرنة ومحركة ومنشطة . وهكذا فقد حظي العلماء أيضا باحكام قاطعة . فقد رأى البعض

أنهم كانوا يمثلون ويجسدون قوى رجعية ومتأخرة ومتشددة ، بل ومتعصبة ، بينما اعتبر آخرون أنهم كانوا يشكلون قوة تقدمية ودينا ميكية بل ومتنورة . إن أسباب وجود هذه الآراء المتعارضة والمتضاربة تعود الى كون مشكل العلماء وأدوارهم الاجتماعية والدينية والثقافية والسياسية لم تحدد بدقة علاوة على ذلك ، نجد عدداً من الاحتمالات والافتراضات الخاطئة وراء المواقف المختلفة تجاه العلماء بصفتهم شريحة اجتماعية منظمة . وملتحمة . وربما كان أخطر افتراض خاطئ هو القائل أن العلماء الاندلسيين شكلوا شريحة دينية ملتحمة كانت تتصف دوما بنفس الخصائص وتهدف الى تحقيق أهداف معينة مهما كانت الفترة التى تناقش فى التاريخ الاندلسي ومهما كانت أنحاء الاندلس التي يعني بها الدارس. بعبارة أخرى ، لقد نظروا الى العلماء بطريقة مجردة لا ترتبط بالواقع الذي كونه هؤلاء العلماء . ومع هذا ، فمن الواضح أن العلماء اختلفوا عن بعضهم من مدينة لاخرى ، مثلا من قرطبة الى إشبيلية. ومن الواضح أيضا أنهم تطوروا عبر عهود وأزمنة مختلفة .

رغم وجود استشهادات وإحالات وافرة للعلماء وللفقهاء في المصادر الاولية ورغم أهمية الدور الذي قاموا به في الاندلس في عهد دول الطوائف فلم يحظوا إلا باهتمام محدود وبدراسة قليلة (33). على كل ، تعتبر المعالجة التي خصصت لهم غير موازية لاهميتهم كما ظلت جوانب متعددة من هذا الموضوع مجهولة لم تر النور بعد. لماذا بقيت الامور على هذه الطريقة ؟ تتعدد أسباب هذا الاهمال .

أولا ، لم يحظ التاريخ الاجتماعي للاندلس عامة بما يستحقه من عناية الدارسين ولا يمكن ابراز أهمية العلماء إلا بعد دراستهم في إطارهم العام .

ثانيا ، لقد أيقظ عدد من العلماء البارزين من القرن الهجري الخامس خصوصا ابن حزم اهتمام الدارسين لاسباب مادية وفكرية ونتيجة لهذا فقد أهملت وبخست أبعادهم الدينية والاجتماعية .

ثالثا ، لقد غطت الاصطدامات السياسية والاضطرابات الاجتماعية في الاندلس على المساهمة الثقافية والفكرية الايجابية للعلماء الاندلسيين في القرن الهجري الخامس .

رابعا ، لقد افترض أن العلماء كانوا يشكلون شريحة اجتماعية محكمة ومدمجة يتجلى هدفها الاساسي فى الدفاع عن المذهب المالكي «الرجعي» في الاندلس كما سبق أن ذكرنا أعلاه ، لقد افترض أن هذه الشريحة الاجتماعية تمثل قوى الرجعية ونتيجة لذلك فهي لا تستحق اهتماما كبيرا . كما أن احتمال قيام هذه الشريحة الاجتماعية بدور ايجابي سياسيا وثقافيا وحضاريا قد رفض مسبقا .

خامسا ، لقد اعتبرت بعض الاحكام التي طبقت على العلماء ، خصوصا في المغرب ، صالحة أيضا للعلماء في الاندلس . فعلى سبيل المثال ، اعتبر مفهوما «الاسلام الشعبي» و «الاسلام الرسمي» اللذان أطلقهما بعض المؤرخين والانثروبولوجيين الفرنسيين خلال عهد الحماية على المجتمع المغربي صالحين للعلماء فى الاندلس أيضا (34).

ويمكن انتقاد هذا الموقف على مستويين . فمن جهة ، لا يعكس مفهوم «الاسلام الشعبي» ( ثم الاسلام الاندلسي والاسلام المغربي ، إلخ . . . ) الواقع التاريخي . ومن جهة ثانية ، فإن تطبيقه على المغرب الاقصى . المغرب العربي عامة لا يبرر في حد ذاته صلاحيته بالنسبة للاندلس . فالقول بأن المجتمعين المغربي والاندلسي يشتركان في خصائص إسلامية مشتركة شيء ، والقيام بمقارنتهما بناء على فرضيات لم تثبت علميا شيء ثان. لقد اتخذ بعض المؤرخين الفرنسيين هذا الموقف خلال عهد الحماية لانهم كانوا يهتمون بالاندلس أساسا لكونها ساعدتهم على فهم المغرب أكثر . ومع هذا يجب على المؤرخ المهتم بالاندلس أن يدرس التاريخ الاندلسي دون أفكار مسبقة . ليس هذا بالمكان المناسب للجدال بشأن مفهوم الاسلام الشعبي . فهذا الاخير هو عبارة عن مصطلح مهذب للتعبير عن «الاسلام القبلي» أو الاسلام كما كان ممارسا لدى القبائل المغربية . ولكن قبل تطبيق هذا المفهوم على الاندلس علينا تحديد مدى قبلية المجتمع الاندلسي أن نتساءل هل كان المجتمع الاندلسي قبليا وإذا كان كذلك فإلى أية درجة ؟ إننا نرفض هذا الموقف بالنسبة للاندلس في القرن الخامس للهجرة (35) .

تمتع العلماء الاندلسيون في القرن الخامس الهجري بمركز اجتماعي متميز لعدة أسباب . ودون مناقشة هذه العوامل مناقشة دقيقة سوف نشير فيما يلي إلى أهمها :

أولها تتجلى في كونهم كانوا مسؤولين عن توجيـه التعليم وتطبيق السياسة التربوية التي كانت تنظم في المساجـد الاندلسية كما كان الشأن في سائر أنحاء العالم الاسلامي . أما تطور المدارس فهو ظاهرت ظهرت بعد القرن الخامس في أنحاء مختلفة من العالم الاسلامي . إلا أن هذا لم يؤثر في الروابط المتينة بين التعليم والدين . بالنسبة للاندلس في القرن الخامس الهجري كانت الدراسة مع أشهر أساتذة العصر تعتبر مفخرة . وقد ذكر ابن بشكوال أسماء عدد من العلماء الذين درسهم وعـدد أساتذتهم (36) . كما حصل عـدد من العلماء علـى شهرة واسعة النطاق كأساتـذة بارزين في ميادين معينة . فبعد تقاعده بمنزله قرب لبلة، تفرغ ابن حـزم للتدريس (37) . ويشير ابن بسـام إلى أن عدداً صغيراً مـن الطلبة تبعوا ابن حزم لان الفقهاء الاخرين أدانوا أفكاره (38). وربما يشير هذا الى أن أعداداً كبيرة من الطلبة تجمعت حول الاساتـذة فى المدن الاندلسية الكبرى ، خصوصا قرطبة التي حافظت على تفوقها العلمي والثقافي رغـم مـا عانته من تخريب وفتـن (39) ، أو إشبيلية التي تعتبر أسرع المدن نمواً في الاندلس على عهد دول الطوائف (40) . وربما كان التعليم بالمجان فى الاندلس إلا أن المقري يشير إلى اتجاه معاكس عندما قال : « . . . ومع هـذا فليس لـأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرءون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرءون لـأن يعلموا لا لـأن يأخذوا جاريا، فالعلم منهم بارع لـأنه يطلب العلم بباعث من نفسه يحمله علـى أن

يترك الشغل الذي يستفيد منه ، وينفق من عنده حتى يعلم وكل العلوم لها عندهم حظ . . . . » (41). ومع هذا، اعتبارا لانتشار التعليم الواسع في الاندلس الذي يتضح من العدد الكبير للاساتذة الذين تذكرهم المصادر ، ونظراً للمستوى الثقافي والفكري الرفيع الذي اتصفت به كلا من الميادين الدينية والدنيوية ، من المحتمل أن هذه الاجور كانت قليلة ولا شك أن الهدف الرئيسي لهذه الاجور لم يتعد تغطية مصاريف الاساتذة وبعض حاجاتهم . ولم تكن مهنة التعليم قط وسيلة للحصول على الأموال بهدف الغنى .

ثانيا ، يجب علينا أن نؤكد بالحاح على تمتع العلماء الاندلسيين في القرن الخامس للهجرة بمركز ومكانة اجتماعية متفردة . وكان هذا المركز كما سبق القول أعلاه ، مبنيا بالدرجة الاولى على درجة معرفتهم ولكن حتى على استقامتهم وأخلاقهم وسلوكهم ودورهم بصفتهم كانوا يمثلون القيم والممارسة والتعاليم الاسلامية ، هذه هي الخصائص والصفات التي وجب على العلماء الحصول عليها ولم تحقق بواسطة الوراثة أو أشكال أخرى من الامتيازات الاجتماعية. طبعا ، نجد علماء كانوا أبناء لعلماء آخرين . نذكر على سبيل المثال ، حالة أبي محمد عبد الله بن عبد البر ابن الفقيه الشهير أبي عمر بن عبد البر النمري (42) . ومع هذا ، تعود أسباب مثل هذه الحالات بالدرجة الاولى الى البيئة الثقافية الملائمة والى رغبة المثقفين في نقل علمهم الى أبنائهم . فالعالم كان يكسب سمعته أساسا اعتمادا على مقدرته الشخصية والاستحقاق مهما كان نسبه

أو نسب أبيه . وكان على العلماء أن يكسبوا اعتراف معاصريهم من العلماء بهم وهكذا نلاحظ أن المؤرخين ومؤرخي سير العلماء كانوا نقادا خصصوا المدح المطلق لمن استحقه . إلا أنهم لم يترددوا في انتقاد آخرين بأسلوب مدمر ومقذع (43) .

ومن أهم الاسباب التي تفسر تمتع العلماء بمركز اجتماعي متميز وبدرجة كبرى من المصداقية أن أهدافهم الاساسية في الحياة لم تكن مادية . مثلا لم يكن الحصول على العلم مرتبطا بدخل مرتفع وبثروة عظمى أو بأرباح مادية بل على عكس ذلك ، اعتبر واجبا دينيا وأخلاقيا كما اعتبر العالم بطبيعة الحال امتيازا . فدون أن ينبذ العالم عن جميع أشكال الحياة الدنيوية مثل الصوفيين، كانوا يرغبون أساسا في الحصول على المعرفة ونقلها وفي حياة نظيفة تعكس درجة عليا من التقوى والاستقامة والإلهام الروحي بطبيعة الحال ، لم يوفق جميع العلماء في ذلك ولم تنطبق المقاييس التي ذكرناها عليهم بحيث انتقدوا بشدة في مثل هذه الحالات . علاوة على ذلك ، لم تنطبق هذه المقاييس عليهم بنفس الكيفية أو بنفس الدرجة . ولكن عموما ، تمتع العلماء بمركز اجتماعي متميز لم يحصلوا عليه بطريقة تلقائية ، فكان مركزهم الاجتماعي عموما مبنياً على مقاييس الاستحقاق يكسب ولم يورث . نتيجة لذلك ، كان بامكان شخص أن يتحول الى عالم بعد ممارسته لحياة تعارض الشريعة وتبعد كل البعد عن العلم ، معوضا هكذا ما فاته في الماضي (44) .

لم ينحصر الدور الاجتماعي للعلماء الاندلسيين في المجالات التعليمية والدينية بل إنهم شغلوا مناصب إدارية . ومن أهم الادوار التي قام بها العلماء تدريبهم للاطر التي شغلت مناصب إدارية مختلفة لانهم احتكروا وسيطروا على نظام التعليم .

وتتجلى أهمية هذه القضية خاصة في المدن الكبرى المتطورة مثل إشبيلية حيث كان للادارة دور هام نسبيا . ومع أن المناصب السياسية كانت تحفظ بالدرجة الاولى للعسكريين وللشخصيات الادبية ، فقد مارس العلماء درجة معينة من النفوذ السياسي .

كما تجدر الاشارة إلى أن العلماء لم يقفوا مكتوفي الايدي أمام الحركة الادبية المنتشرة والانتاج الفكري المبدع في الاندلس فى القرن الخامس للهجرة . ومن أبرز الدوافع التي دفعت بابن بسام الى اتخاذ قراره بشأن جمع مجموعة الاشعار الاندلسية العربية في عهد دول الطوائف ، رغبته الشديدة فى إثبات وإظهار وإشهار تساويها الادبي إن لم نقل تفوقها الادبي على الشعر العربي المشرقي (45) . لقد ضم ابن بسام أبيات بعض العلماء الاندلسيين فى كتابه وذلك في إطار إظهار مقدرتهم الابداعية والادبية . وهكذا اتخذ ابن بسام نفس المنهاج والتحليل المقارن الذي طبقه على الشعراء الاندلسيين العرب على الفقهاء الاندلسيين والمشارقة الذين تمتعوا بموهبة شعرية . ومما تجدر الاشارة إليه أنه أشار الى صنف من الادباء أطلق عليهم مصطلح « العلماء الشعراء » (46) . ومن الطريف

أن نلاحظ أنه مع احتفاظة بالمـدح السخي لبعض العلماء المشارقـة الذين صنفهم ضمن رتبة «العلماء الشعراء» فإنه لم يتردد في إنتقاد غيرهم بشدة . وهكذا فقد ذكر ابن بسام أسماء أبرز العلماء الشعراء المشارقة . ثـم وصل الى الاستنتاج التالي : «هـؤلاء أعيان العلمـاء الشعراء بالمشرق ، ممن علا شعرهم ديباجة ورونقاً . فأما من سواهم كيونس والاخفش وأبـي عمرو بن العلاء وسيبويه والفراء وسائـر أصحابهم فأكثر الرواة لم يسمع لهم بشعر» (47) . كما ختم انتقاداته كما يلي : «والكسائي الذي يقول : «إنما النحو قياس يتبع» ، لـه شعر ضعيف، بين التكلف، فأما أبو عبيدة فله شعر يضحك ...» (48).

ومن المدهش حقا أن ينتقد ناقـد أدبي أندلسي شعراء عـرب بمثل هذه الجرأة .

وقبل تقديمه للعلمـاء الشعـراء الاندلسيين في القرن الخامـس للهجرة أشار ابن بسام أنه لم يشمل العلماء الشعراء الذين عاشوا قبل عهد دول الطوائف وذلك حسب منهجية شرحها فيما يلـي :

«وأما العلماء الشعراء بأفقنا هـذا الاندلسي من حين استفتحت الجزيرة الى آخر دولـة بني عامر ، فقد تقدم المصنفون قبلي إلـى تدوين نثرهـم ونظمهم ، فأغناني عن ذكرهم ، وإنما شرطت ذكر أهل عصري ممن شاهدته بعمري ، أو لحقه بعض أهل دهري» (49).

إن منهاج ابـن بسام الدقيـق الواضح في تحديد اهتمامـه ليس لشخصيات أدبية مـن النوع الذي رسمه فحسب ونعني للشعراء ،

بل وللفترة التي اختار أن يركـز عليها . ولم ينحصر هذا الاختيـار المنهجي في دراسته للشخصيات الادبية التي عرفها مباشرة وبعمق ، بل أيضا حتى يجانب التكرار .

لقد أبرزنـا بعض خصائص العلمـاء الاندلسيين بصفتهم قـوة إجتماعيـة متحركة بحيث سلطنا الاضـواء عليها . وكانت هذه الاخيرة توجد كشريحة إجتماعية ملتحمة في الاندلس ، ولكنها لـم تكن منظمة بطريقة منهجية . لم يوجد مفهوم البنية المنظمـة تنظيما هرميـا كما هو الشأن بالنسبـة للرهبان الكاثوليكيين أو الملاة الشيعيين . بل شكل العلماء شريحة ملتحمـة بمعنى أنه كانت لهم خصائـص مشتركة كما انطبقت عليهم مقاييس مشتركة . فعلى سبيل المثال ، شاركوا بعضهم فـي تدريب ثقافي وديني وتعليمي مشترك كما جمعتهم عقائد دينية مشتركة وعملوا جميعا عـلى نشر تعاليم مشتركة وتمتعوا بمركز اجتماعي مشترك بحيث تمتعوا باحترام واسع بصفتهم مدافعين عن الاسلام ومعلمين لـه .

ومع ذلك ، فهذا لا ينفي وجود خلافات بين علماء وفقهاء كأفراد . تبرهن كتب سير العلماء الاندلسيين مثل «كتاب الصلة» لابن بشكوال أن اهتمامات العلمـاء الثقافية كانت تختلف لانهـم تخصصوا في فروع مختلفة من الفقه والشريعة الاسلامية كما نلاحظ وجود بعض الخلافات العقائدية بينهم إلا أن هذه الاخيرة لم تشكل ظاهرة أو اتجاهاً عاماً .

ومن المهم جدا تأكيد طبيعة العلماء بصفتهم طبقة حضرية . شكل العلماء أساسا ظاهرة حضرية لان دور المساجد في المدن كان أكثر أهمية بصفته مصدرا للتنظيم الاجتماعي مما كان في المناطق الريفية وذلك بالرغم من كون المناطق الريفية كانت تتمتع بتطور في أندلس القرن الخامس الهجري لم تعرفه نظيراتها في شمال إسبانيا والمغرب خلال نفس الفترة . قام دومينيك أورفوا (Urvoy) بدراسة توزيع العلماء ، ولكن علينا أن نهتم أيضا بدراسة مركزهم الاجتماعي ودرجة حركيتهم الاجتماعية التصاعدية والتنازلية في إطار الطبقة الوسطى الاندلسية . كما كانوا يتمتعون بحركة قوية فسافروا الى المشرق ليس لاهداف تعليمية ودينية فحسب ، بل ولأسباب مادية وسياسية بحثا عن رفع مستوى معيشتهم وعن أمن أعظم وحرية أكثر .

وأخيرا ، لم يتخذ العلماء الاندلسيون فى القرن الخامس الهجري موقفا محايدا أمام قضايا عصرهم الكبرى وعلى رأسها انقسام الاندلس الى دول طائفية وفساد عدد من ملوك الطوائف ومؤيديهم والضرائب الثقيلة والضرائب غير الشرعية ، والعلاقات الاندلسية مع ممالك شمال إسبانيا المسيحية والمغرب . لم تكن مواقفهم ثورية ، إلا أنهم ساهموا بالتأكيد في التطورات السياسية العامة كما سنرى في القسم الآتي .

يتجلى الهدف الاساسي لهذا الفصل في تأكيد دو العلماء الاندلسيين فى القرن الهجري الخامس بصفتهم قوة اجتماعية ديناميكية.

لا يجب علينا بأي وجه من الوجوه أن نربط العلماء والمذهب المالكي بالتقسيم والفوضى والفتنة التي أصابت الاندلس في عهد الطوائف لقد كانت القوى وراء تقسيم الاندلس إلى دول طائفية والاتجاه الانتحاري التي اتخذته هذه الاخيرة يعود أساسا الى عوامل اقتصادية داخلية وخارجية (50) . وكانت التطورات السياسية في الاندلس تخرج إلى حد بعيد عن نطاق سيطرة ونفوذ العلماء . ورغم دور العلماء السياسي المحدود ، لم تكن لهم مساهمة في سيرورة اتخاذ القرارات في الدول الطائفية . وفيما يخص حالة البحث الحالية في هذا الموضوع ، فإننا نواجه صعوبة كبرى في محاولتنا لفهم طبيعة تاريخ الدول الطائفية (51) ، ولكن من الواضح أنه رغم الانهيار الاقتصادي والسياسي العام للاندلس استطاع العلماء المحافظة على وحدة المجتمع الاندلسي والتحامه .

# الـدور السياسي للعلمـاء الاندلسيـين

لم يفهم المؤرخون الدور السياسي للعلماء في الاندلس في القرن الخامس للهجـرة أو تجاهلوه بكل بساطـة ، وذلك نظرا لتناقضاتـه الظاهرية ولتعقيده ، ونظراً للادوار السياسية البارزة التي قامت بهـا عناصر أخرى ، خصوصا القواد العسكريون وملوك الطوائـف ( ومساعدوهم ) . كما عتمت التعميمات والتصورات الخاطئة التي شاعت على نطاق واسع الدور السياسي للعلماء الاندلسيين ولم يجهد إلا القليل من المؤرخين نفسه في دراسة المصادر الاولية بجدية قبل الوصول الى استنتاجات عامة . كان الدور السياسي للعلماء يتصف بعدد من العناصر والخصائص الذاتية الداخلية .

أولا ، انقسم العلماء على بعضهم سياسيا بحيث اتخذوا مواقـف مختلفة وأحيانا متناقضة عندما واجهوا حالات وتطورات معينة . فمن جهة ، عكسوا الطابع المتناقض والمتعارض لملوك الطوائـف .

بعبارة أخرى ، كان ملوك الطوائف في صراع مستمر مع بعضهم . وكان العلماء موزعين في مختلف أنحاء الدول الطائفية في الاندلس . ونتيجة لذلك ساندت بعض المجموعات من العلماء حكاماً معينين في الدول الطائفية التي عاشوا فيها . ويعني ذلك ضمنيا أنهم لم يكونوا في موقف مناسب لمساندة ملوك الطوائف الاخرين الذين اصطدموا بملوك دولهم الطائفية فكثيراً ما فرض عليهم موقف معارض لهم . فعلى سبيل المثال ، شكلت خطبة الجمعة أساسا تقليدا دينيا مع عواقب سياسية هامة وكانت فى غالب الاحيان تقرأ باسم حاكم الدولة الطائفية التي وجد بها المسجد إلا في حالة تخلى الحاكم الطائفي عن نفوذه وعن ممارسته لسيادته على تلك المنطقة المعينة (52) . من هذه الناحية إذاً ساند العلماء بعض ملوك الطوائف وعارضوا آخرين طوال عهد دول الطوائف .

ثانيا ، اتخذ العلماء مواقف سياسية تطبعها المرونة والواقعية . اتخذوا مواقف معينة في بعض الاحيان عندما صعب أو استحال عليهم اتخاذ مواقف أخرى ، إلا أنهم لم يترددوا في تغيير مواقفهم وتبديلها بأخرى عندما مكنتهم من ذلك التطورات العامة . فعلى سبيل المثال ، حصر جل العلماء نشاطاتهم في مسؤوليات دينية وثقافية وتربوية وقضائية في عهد دول الطوائف نراهم أحيانا يدينون ملكاً طائفياً معيناً ( وكثيرا ما يكون ذلك من تراب دولة طائفية أخرى ) وأصدروا فتاوي لصالح ملك طائفي آخر حيث عاشوا في دولته . ومع ذلك لم يهدد العلماء ملوك الطوائف من الداخل وهكذا مثلا أعطيت

للامير عبد الله بن بلقين وعود بأن العلماء لن يعارضوه في غرناطة بينما تأكد المعتمد بن عباد بان العلماء لن يعبروا عن معارضتهم له في إشبيلية ، وهكذا . ومع ذلك ، فإن الصمت طبع موقف العلماء خلال جل عهد الطوائف فلم يترددوا في معارضة ملوك الطوائف علانية عندما استبد ألفونسو السادس بقوته ونهج خطة عسكرية وسياسة متعسفة تجاه ملوك الطوائف بحيث أصبح يهدد بطرد الاسلام والاندلسيين المسلمين من الاندلس . وقد أصبح ذلك وشيكا إثر احتلال ألفنسوا السادس لطليطلة سنة 478 هـ. ـ 1085 م.

ومن أهم الدوافع والقوى المؤثرة وراء التغيير المفاجيء لموقف العلماء تجاه ملوك الطوائف ظهور يوسف بن تاشفين وانتصار الجنود المغاربة في تحالف مع الاندلسيين على المسيحيين في معركة الزلاقة سنة 479 هـ. ـ 1086 م. ومع ظهور يوسف ابن تاشفين بصفته قوة بديلة وعنصرا موحدا ذا مصداقية ، لم يتردد العلماء في التعبير عن شكاوى واحتجاجات الجماهير الاندلسية المثقلة بالضرائب وفي اعلان مساندتهم المطلقة ليوسف بن تاشفين بصفته أملهم الوحيد لانقاذ الاندلس كدولة إسلامية موحدة .

ثالثا ، من المهم أن نؤكد على أن الدور السياسي للعلماء كان في نفس الوقت مبنيا على معتقداتهم الاديولوجية والدينية ف إطار أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة . وفي هذا المجال ، كانت المواقف السياسية للعلماء تختلف عن بعضها مع أنهم اشتركوا في المبادىء العامة المشتركة المنبثقة عن الاسلام .

بعبارة أخرى ، كانت معتقداتهم ومبادئهم وأحكامهم التقمية وأفكارهم السياسية مشتركة ، إلا أنهم لم يتفقوا دائما على الوسائل والخطط وطرق تحقيق الأهداف المشتركة .

وهكذا نلاحظ أن العلماء شكلوا شريحة اجتماعية كانت أحيانا تتشعب وأحيانا أخرى تتحد ، فيمكن لنا أن نحدد مواقف سياسية متعددة اتخذها العلماء في عهد دول الطوائف . فقد ساند بعضهم ملوكاً طائفيين معينين وعارضوا آخرين . كما عارض بعض العلماء جميع ملوك الطوائف ونظام دول الطوائف في حد ذاته بطريقة دبلوماسية بينما عبر آخرون عن رفضهم المطلق لدول الطوائف. هناك أيضا أولئك الفقهاء والعلماء الذين زعموا أنهم يساندون ملوك الطوائف ولكنهم عملوا في الواقع على تشويه سمعتهم في الخارج وحاولوا القضاء على حكمهم نهائيا . إن هذا التعدد في المواقف السياسية ظهر في الاندلس عندما طغى عليها الانفصال السياسي والاصطدامات والانهيار الاقتصادي والاضطرابات الاجتماعية . ولكن بمجرد أن أصبحت الاندلس مهددة تهديدا خطيرا وبمجرد ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة بصفته قوة موحدة ، اتخذ الفقهاء موقفا موحدا ومشتركا . بعبارة أخرى ، أصبح موقفهم السياسي يمثل موقف الجماهير الاندلسية والطبقة الوسطى .

وهكذا لم يقف العلماء الاندلسيون مكتوفي الأيدي أمام الغليان السياسي في عهد دول الطوائف. فقد اتخذوا مواقف سلبية أو عملية وساندوا أو عارضوا هذا الملك الطائفي أو ذاك ، ولكنهم كانوا

واعين دوما بموقفهم السياسي . كما يهمنا آن نشير الى تغيير مواقفهم السياسية تجاه حكام معينين أو الى ملوك الطوائف عامة مع تطور الحالة السياسية العامة في الانداس في القرن الهجري الخامس .

بل قد نكون أقرب الى الصواب إن تحدثنا عن المواقف التي اتخذتها مختلف المجموعات من العلماء بدلا من موقف موحد للعلماء بصفتهم مجموعة ملتحمة منظمة . لقد كانت هذه المواقف السياسية والاديولوجية للعلماء تجاه ملوك الطوائف واقعية بحيث إنهم تجنبوا أية مواجهة مع ملوك الطوائف في الوقت الذي احتكر هؤلاء السلطة السياسية والعسكرية في الاندلس . ومع ذلك، لم يسمح العلماء لملوك الطوائف بان يتدخلوا في الشؤون القضائية والدينية . لقد دافعوا عن المذهب المالكي فكريا وذلك من خلال انتاجهم الضخم لعدد كبير من المؤلفات في هذا المجال بحيث أصبحت أعداد منها مشهورة في الاندلس وخارجها كما ساهمو في توجيه المذهب المالكي في الاندلس وترسيخ مبادئه وتطبيقها . بعبارة أخرى، حافظوا على وجود هذا المذهب خلال عهد الطوائف بحيث مكنوه من القيام بالمهمة الاجتماعية التي كان يستهدف الحصول عليها . ويعد نجاح المذهب المالكي وتطبيقه على عهد الطوائف من الاسباب الرئيسية التي دفعت يوسف بن تاشفين الى اختياره واتخاذه مذهبا رسميا إثر احتلاله للاندلس وضمها الى المغرب .

اختلف العلماء الاندلسيون في القرن الخامس للهجرة في في مواقفهم المؤيدة أو المعادية لملوك الطوائف ولنظام دول الطوائف ، اعتمد ملوك الطوائف على العلماء يعني أهل العلم وخاصة على الفقهاء نظرا للدور الممتاز الذي ميزهم عن غيرهم في المجتمع ثقافيا وفكريا وروحيا خصوصا بصفتهم مشرفين على التعليم وعلى العدل ومع ذلك، ظل ملوك الطوائف بحاجة الى الفقهاء لاعتبارات سياسية . لقد مارس ملوك الطوائف نفوذهم السياسي في إطار نظام كان يقع على أسس شرعية ضعيفة . فبعد انقراض دولة بني أمية ونهاية المرحلة الانتقالية في عهد بني أبي عامر ، جاء تأسيس دول الطوائف نتيجة وجود فراغ سياسي . واعتمد ملوك الطوائف على القوة لتدعيم وتنفيذ سلطتهم كما كانوا يفتقرون لمبرر شرعي لحكمهم ومشروعيته . لم نخاص في التعبير إن قلنا بانهم كانوا يفتقرون إلى أسس شرعية لنظامهم لان هذا الحكم كان بشكل بساطة غير شرعي . كانت الشرعية في الاندلس مبنية على الاسلام وبصفة خاصة على المذهب المالكي . وكان ملوك الطوائف بحاجة ماسة الى مساندة الفقهاء والعلماء إهم في هذه النقطة بالذات بحيث حاولوا دائما مجانبة معارضتهم .

ومن جهة أخرى ، لم يتمتع العلماء بنفوذ وسلطة وقوة كافية لمعارضة ملوك الطوائف معارضة فعلية وذلك لأسباب متعددة .

أولا، كان هناك فراغ سياسي لم تؤهل أية مجموعة لملئه إلا ملوك الطوائف .

ثانيا ، افتقر العلماء الوسائل المادية لمجابهة ملوك الطوائف عسكريا . ونتيجة لهذا ، اختار العلماء المحافظون مساندة ملوك الطوائف كالاختيار الواقعي الوحيد في أيديهم بينما اختار آخرون مواقف الحياد السياسي مركزين مجهوداتهم للحصول على أهداف في ميدان التعليم والثقافة والعدل الى أن تتغير الاوضاع فيمكنهم ذلك من اتخاذ موقف سياسي موحد .

## أ ) المواقف السياسية الفردية للعلماء : بعض الامثلة .

قبل مناقشة التطور العام للدور السياسي الذي قام به العلماء ، يجب التركيز على خصائص العلماء الفردية . لعل مقارنتنا لبعض العلماء كافية لاظهار مدى اختلافهم مزاجيا وسياسيا . ويخص الامر العلماء الآتين: الهوزني، وابن الملح، وابن عبد البر، وابن القصيرة، وابن حزم .

تعرض ابن بسام لهؤلاء الفقهاء في «الذخيرة» وقد اهتم بهم أساسا بصفتهم أدباء وشعراء متميزين . ومع ذلك ، عندما تعرض ابن بسام لسيرهم قدم لنا صورة واضحة لأمزجتهم المتنوعة ولمواقفهم السياسة والاديولوجية المختلفة تجاه ملوك الطوائف .

## الفقيـه الهوزنـي :

يبين مثال الفقيه أبي حفص بن الحسن الهوزني بوضوح تـام الشجاعة والروح النقديـة المستقلة الحرة التي اتخذها بعض العلمـاء الاندلسيين تجاه ملوك الطوائف . ونرى من خلال قتله الشنيع على يـد المعتضد بن عباد مدى خطورة عواقب مثل المواقف التـي اتخذهـا الهوزني

كان الفقيه الهوزنـي من الشخصيات الاشبيلية البارزة كمـا ربطته بالمعتضد علاقة قبل صعود هذا الاخير الى الحكم بحيث ساءت علاقتهما بعد ذلـك غادر الهوزني إشبيليـة بعد استئذان المعتضـد وبموافقته سنة 440 هـ. ـ 1047 ـ 1048م. (53) سافر إلى صقلية وسورية والعراق ومصر ومكة حيث ألقى محاضرات ودروساً خصوصا فى الحديث النبوي عبر هذه الاقطار ليعود فى نهاية المطاف الى الاندلس حيث استقر في مورسية التي حكمها آنـذاك ابن طاهر وكل ذلك باذن من المعتمد (54). تأثر الهوزني تأثرا عميقا بالهجوم المسيحي على ببشتر سنة 456 هـ. ـ 1063 ـ 1064 م وتألـم للمذابح والمعانـاة والمآسي التي عانى منها السكان الاندلسيون المسلمون فبعث إلى المعتضد رسائـل ملتهبة تحتوي علـى مقاطع أدبيـة عاطفية رائعـة ـ شعرا ونثرا ـ يحرضه فيها على تزعم الجهاد ضد الكفار الظالمين والمتعسفين (55). إن القيمة الادبية فى وصفه للـآلام التي عانى منها الاندلسيون مؤثرة حقا ، ولكنـه بالغ في عاطفيته وحماسه وفـي

صراحته المطلقة فنسي أنه كان يخاطب شخصاً كان ينتظر منه المدح والاعجاب بدلا من النصائح والانتقادات مهما كانت هذه الاخيرة مفيدة وبناءة . علاوة على هذا ، كان توسله للمعتضد وتحريضه له للدفاع عن الاسلام في الاندلس مصاحبا باستشهادات من القرآن الكريم تذكره بواجباته الدينية والخلقية مما حمل إشارة ضمنية إلى ابتعاد المعتضد عن التعاليم الدينية وكان كذلك بالفعل (56) . باختصار ، لم ينفعل المعتضد في أول الامر بطريقة سلبية ، بل رحب بالهوزني في إشبيلية سنة 458 هـ . ـ 1065 ـ 1066 م. ومع ذلك، ربما لم يغفر له المعتضد صراحته وفي يوم الجمعة 11 ربيع الاول 460 هـ. 1070 ـ 1071 م. سكر وأمر بأن يحضر الهوزني أمامه . ثم أمر خديمين له بقتله وعند امتناعهما عن ذلك باشر قتله بيده : « فلما كان الجمعة يوم لاحدى عشرة ليلة لربيع الاول سنة ستين أحضره القصر ، وقد غلب ـ زعموا ـ عليه السكر ، وأمر خادمين من فتيانه بقتله ، فكلاهما أشفق من سوء فعله ، وفر ، لا يبالي سيء عباد أو سر فقام إليه هو بنفسه وباشر قتله بيده . . . » (57) .

## ابن الملح :

كان أبو بكر بن الملح فقيها من شلب استقر في إشبيلية ثم ارتقى ليصل الى منصب الوزارة (58) . تعاطى ابن الملح في بداية حياته للسكر واللهو إلا أنه أصبح تقيا مهتديا وعالما محترما (59) .

بحيث ارتقى الى درجة فقيه من أبرز فقهاء المدينة . ولقد خصص له ابن بسام مدحا ثم ذكر أن ابن الملح كان على قيد الحياة وهو يؤلف كتابه «الذخيرة» سنة 500 هـ . ـ 1106 ـ 1107 م . وأنه توفي في رمضان من نفس السنة (60) . ويشير مدح ابن ملح لكل من المعتمد والمعتضد ابن عباد أنه كان فقيها محافظا لم يتطرق لسلوكهم الاباحي والمخالف للتعاليم الدينية (61) . ومما يلفت النظر ان ابن الملح اعتمد على تصور ديني في مدحه للمعتمد (62) ومع ذلك، ربما كان هذا العالم مقربا عند حكام بني عباد لمقدرته الادبية وليس لاعتبارات سياسية . ولقد خصص ابن بسام التعليق التالي على أبيات ابن الملح الشعرية عندما قارنها ببعض الابيات لابرز الشعراء العرب والاندلسيين : «قال ابن بسام : ولم أسمع بمثل هذا البيت لمن سبق فإن كان إتباعا فما أحسن ما أرق ، وإن كان اختراعا فما أولى وأخلق» (63) .

ابن القصيرة :

كان أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة مثالا نادرا للفقيه الذي الى منصب سياسي سامي في بلاط المعتمد بن عباد (64) . كان عالما إشبيليا متفوقا وبارزا في بلاط المعتضد بن عباد بحيث كان يحاول دائما أن يبتعد عن الحاكم الاشبيلي حتى لفت نظر ذي الوزارتين ابن زيدون الذي اقترح على المعتضد أن

يضمه الى بلاطه في نهاية حكمه (65) . ومع ذلك ، لم يبرز الفقيه ابن القصيرة بـروزا سياسيا إلا في عهد المعتمد بحيـث حصل على أسمى لقب وزاري عندما تسمى بذي الوزارتين كما بعثه المعتمـد الى عدد من ملوك الطوائف والى يوسف بن تاشفين فـي مناسبات متعـددة ليشتغل في نهايـة المطاف بديوان المعتمد نظرا لموهبتـه وصفاته الادبية الرفيعة (66) . وكان ابن القصيرة مقربا إلى المعتمد ثم الى يوسف بن تاشفين بعد خلعـه للمعتمد سنة 484 هـ . - 1091 1092 م. إلا أن هذا العالم والاديب اللامع يكتسي أهمية كبرى من الناحية التاريخية بسبب روايته لمعركة الزلاقـة التي شارك فيها بجانب المعتمد والتي جرح خلالها جرحا خفيفا (67) وبالاضافـة إلى رواية عبد اللـه ابن بلقيـن (68) . يعد ابن القصيرة من الشخصيات الفريدة التي شاركت في هـذه المعركة الهامة وتركت لنا روايـة عنها فوصلتنا . وتكتسي هذه الرواية أهمية بالغة لانها تعكس شعور المغاربة والاندلسيين بالنصر بوضوح تـام وذلك لكونه وضعها في اليوم التالي للمعركة في صباح السبت 13 رجب 479 هـ . - 31 غشت 1086 م (69) وأخيرا، يعتبر ابن القصيرة مثالا لفقيه وظفه المعتضد ثم المعتمد ثم يوسف بن تاشفين نظرا لتميزه الادبي الامر الذي يعكس مرونة سياسية ودبلوماسية عظيمة لانه اشتغل مع يوسف بعد أن عمل مـع المعتمد الى نهايـة حكمه . بـل كان ابن القصيرة يعمل مـع يوسف بينما أرسل سيده السابق الى أغمات سجينا مكبلا بالـأغلال .

## ابن عبد البر :

يظهر مثال الوزير أبي محمد عبد الله بن عبد البر نجل الفقيه أبي عمر بن عبد البر النمري الشهير كم كان على أعضاء بلاط المعتمد أن يأخذوا حيطتهم لكي يتجنبوا ويفلتوا من المكائد التي شكلت خاصية من خصائص الحياة اليومية في البلاط الطائفي. لم يكن أبو محمد بن عبد البر فقيها بارزا مثل أبيه، ولكن يمكننا أن نعتبره ضمن صنف العلماء لان ابن بسام اعتبره كذلك (70) . كان مركز أبي محمد جد مذبذب وغير قار ومعرضاً للخطر بحيث وصلت المكائد التي دبرها ضده أبو الوليد ابن زيدون الى محاولة اغتياله (71) .

كانت علاقته بالمعتضد متوترة إلا أنه اتخذ موقفا لينا ومرنا تجاه الحاكم الاشبيلي . وحين أصبح لا يطيق الحياة في بلاط المعتضد طلب منه الاذن لمغادرة إشبيلية ليسافر الى المشرق حيث حصل على اعتراف واسع النطاق بصفته عالما بارزا (72). ويشير ابن بسام الى كونه كتب عن عدد من ملوك الطوائف (73) . إلا أن تاريخه لملوك الطوائف هذا لم يصل إلينا . وأخيرا ، كان أبومحمد عالما أكثر منه سياسيا . لقد اتخذ أسلوبا دبلوماسيا مع المعتضد بحيث تجنب أية مواجهة معه . بل ذهب الى حد أنه بعث له رسائل التهنئة بعد احتلال المعتضد لشلب (74) كما حرر رسالة باسم المعتضد وصف فيها هذا الاخير اغتياله لابنه إسماعيل بن عباد وحاول تبرير

هذه الجريمة الشنيعة (75) . ومن المهم أن نلاحظ ونسجل أن عالما وابن فقيه مالكي بارز قد حرر هذه الرسالة الفظيعة باسم المعتضد بحيث وصف فيها كيف قام ابنه عليه في مناسبتين كما تطرق فيها للطريقة التي قرر بها قتل ابنه الذي كان عزيزا عليه ، وأسبابها . وهنا يمكننا أن نتساءل ، هل يعبر تحرير ابن عبد البر لهذه الرسالة عن موافقته على هذه الجريمة الشنيعة ؟ ربما لم يبقى لابي محمد أي اختيار آخر إلا كتابة هذه الرسالة للمعتمد لان الاختيار وقع عليه من بين جميع الشخصيات الادبية في البلاط الاشبيلي للقيام بهذه المهمة (76) . ومع ذلك ، تجب الاشارة الى أن ابن عبد البر لم يرتح لمهمة كتابة هذه الرسالة أو حتى للعمل في بلاط المعتضد ، الامر الذي يفسر مغادرته لاشبيلية متوجها نحو المشرق . ولا نرجح احتمال تأييد ابن عبد البر لهذه الجريمة الشنيعة لانه حتى ولو فرضنا أن اتهام المعتضد ابنه بالقيام عليه كان صحيحا ومبنيا على أسس فلم يكن للمعتضد حق الحكم عليه ولا تنفيذ الحكم بيديه. علاوة على هذا ، ظلت جميع المصادر العربية صامتة بشأن استشارة المعتضد للفقهاء بشأن هذه القضية . لقد اتخذ المعتضد قرارا بكل بساطة ودون أية استشارة ثم طلب من ابن عبد البر أن يبرر هذا القرار ثقافيا يعني بأسلوب منطقي قوي . كل هذا لا يدفع الى الاستغراب إذا اعتبرنا أننا نتحدث عن المعتضد الذي تقدم لنا المصادر العربية حججا كثيرة لاثبات جرائمه المتعددة ، إلا أن قتل الاب لابنه يعتبر تجاوزا لجميع الحدود ولا يمكن لنا إلا أن نلوم العلماء

على صمتهم الجماعي بشأن هذه القضية. ومن جهة أخرى، نرى أن المعتضد لم يتمتع بتوازن عقلي ليس فقط لكونه قام بجرائم متعددة بل ولانه نفذها بطرق غريبة جدا ومفزعة . سجل المؤرخون الاندلسيون المعاصرون والمتأخرون للمعتضد سلوكه العنيف بدقة كبيرة ، إلا أن العلماء والفقهاء حافظوا عامة فيما يبدو على صمتهم فمن واجبنا أن نتساءل عن أسباب هذا الصمت . هل يعود هذا السكوت الى رغبة واعية في مساندة موقف المعتضد؟ لا نرجح ذلك، لان ذلك سوف يكون معارضا لمبادئهم ولقيمهم . بل مما هو أكثر احتمالا أنهم لم يظلوا ساكتين ولكن مواقفهم لم تسجل فلم نطلع عليها أو أن موقفهم السياسي كان ضعيفا بحيث لم يمكنهم من التعبير عن آرائهم علانية فبالاحرى تنفيذ قراراتهم .

ابن حزم :

كان الفقيه أبو محمد علي بن حزم من العلماء الذين دار بشأنهم جدال عنيف في القرن الهجري الخامس كما كان من اكثرهم تسيسا . وخلافا لاغلبية الفقهاء المالكيين الدين لم يتجرأوا للتعبير عن معارضتهم لملوك الطوائف إلا بعد أن أصبحت مساندتهم ليوسف بن تاشفين اختيارا ممكنا وواقعيا ، عبر ابن حزم عن معارضته المطلقة واللامشروطة لاقوى ملوك الطوائف كما اعتبر نظام دول الطوئف نظاما غير شرعي على أساس أن الامويين وحدهم

كانوا يستحقون الحق الشرعي والمشروعية لبث حكمهم في الاندلس (77) . ومع ذلك ، لم يعش ابن حزم ليشاهد الفقهاء الاندلسيين الاخرين وهم يتخذون هذا الموقف المعارض تجاه ملوك الطوائف بصفة جماعية كما أنه لم يعش ليرى اعادة توحيد الاندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وذلك لكونه توفي سنة 456 هـ - 1063 - 1064 م . (78) ولم ينحصر موقف ابن حزم في معارضته لملوك الطوائف لانه عرف أيضا بمجادلته الفقهاء الاندلسيين الذين دافعوا عن المذهب المالكي ويعود ذلك الى انتمائه للمذهب الظاهري . كان ابن حزم ناقدا حادا وجريئا فواجه العلماء بأسلوب يطبعه العنف اللفظي (79) . كما وجهت له تهجمات لا تقل عنفا (80) . ومع ذلك ، فمن المهم أن نشير الى أن عدداً من الباحثين قد اعتبروا ابن حزم مثالا بصفته شكل هدفاً للاضطهاد على يد الفقهاء الاندلسيين وبصفته مثالا للخطة التعسفية التي اتخذوها ضد كل من انحرف عن المذهب المالكي وتعاليمه . إلا أننا نود أن نقدم بعض الملاحظات بهذا الشأن ، فلقد تلقي ابن حزم تعليمه في قرطبة فكان نتاجا من انتاج الفقهاء المالكيين . ونتيجة لذلك ، تكونت جميع مؤهلاته الفكرية في بيئة ثقافية واجتماعية هيمن عليها المذهب المالكي . ثانيا ، من المهم أن نلاحظ أنه كون أفكاره الظاهرية في الاندلس فلو كان اضطهاد المذاهب الاخرى شنيعا كما يحتمل البعض لما استطاع ابن حزم أن يطور نظرياته الظاهرية بالشمولية التي تطبعها . حقيقة ، لقد أحرقت كتب ابن

حزم في إشبيليـة (81) ، وادانه جل الفقهاء المالكيين بمن فيهم أبو الوليد الباجي (82) الذى واجهه في نقاش علني بميورقة كما أن الجدال الذي أثاره ابن حزم لم ينحصر في مجال الفقه والسياسة بل ضم حتى المنطق (83) . إذا ، لقد كان ابن حزم دون شك هدفـا للتهجم من طرف أفراد وجماعات اختلفت في مصالحها وفي ميولها بمن فيهم اليهود الذين اصطدم معهم علانية في نقاش عاصف حـول طبيعة دينهم . ومع ذلك ، فهل يثبت كل هذا أن الفقهاء الذين لم ينتموا الى المذهب المالكي عانوا من الاضطهاد ؟ إننا لا نقبل هـذا الرأي وذلك لعدة أسباب .

أولا ، لم يكن ابن حـزم العالم الوحيد الذي واجه معارضة في الاندلس في عهد دول الطوائف الـذي كانت تطبعه درجة مرتفعـة من إسالة الدماء . فعلى سبيل المثال ، لم يعرف تلك الوفاة العنيفة التي لقيها الفقيه الهوزني على يد المعتضد بن عباد (84) . كما أن تمكن ابن حزم من المشاركة في نقاش علني مع أبرز فقيه مالكي في عصره يشير الى كونه لم يمنع من التعبير عن آرائه علانية مهما عارضت المذهب المالكي . علاوة على ذلك ، لم يلق ابن حـزم الترحيب في أكثر من دولـة طائفية ، خصوصا إشبيلية ، ولكن نظرا لحالة الاضطرابات المستمرة التـي طبعت العلاقات بيـن دول الطوائف ، استطاع دائما أن يجد لنفسه ملجأ ومستقرا وحماية فـي الدول الطائفية الاخرى التي كانت تعادي تلك التي منع من الدخول إليها . وعلاوة على ذلك ، لم تخص هذه الاوضاع ابن حـزم وحده ،

لان هناك عدداً من الفقهاء والعلماء الاندلسيين الذين وجدوا أنفسهم في وضعية مماثلة . كما لم تخص هذه الوضعية ابن حزم وحده لكونه اعتنق المذهب الظاهري لان هناك عدداً من الفقهاء والمعارضين لملوك الطوائف قتلوا لاقو مصرعهم على يد عملاء بعض ملوك الطوائف خارج الحدود الجغرافية للدول الطائفية أو خارج حدود الأندلس . بل قيل إن بعضهم قتل في المشرق . وهناك أمثلة من هذا القبيل بالنسبة للمعارضين السياسيين للمعتضد ، إلا أنه لم يعرف عن ابن حزم أنه كان هدفا لمثل هذه المحاولات علاوة على ذلك ، فقد استطاع هذا الاخير أن يعتزل بمنزله في ناحية لبلة في كهولته في سن متقدم حيث تبعه عدد محدود من تلاميذه (85) . بعبارة أخرى، استطاع أن يؤلف الكتب ويستخطب أتباعاً ومريدين وأن يدرس الى نهاية حياته .

لذا يجب تفسير سبب المعارضة العظيمة التي لقيها ابن حزم وأفكاره بانتقاداته الحادة وباتجاهه نحو التهجم العنيف على كل من خالفه في الرأي . ولم ينحصر جداله في مواجهة الفقهاء والعلماء الاندلسيين المسلمين المعاصرين له بل اشتهر كذلك بمجادلته لليهود، خصوصا ابن النغرالة ، بحيث ألف كتابا في هذا الموضوع (86) .

ومع ذلك كان ابن حزم فقيها وعالما في آن واحد ومن الطريف أن نشير إلى أنه كان محترما من طرف أبرز الشخصيات الثقافية والفكرية في عصره وذلك بالرغم من خلافاته وكثرة جدله. فعلى سبيل المثال، انتقده المؤرخ الكبير ابن حيان بشدة وقد

وصلتنا هذه الانتقادات في «ذخيرة» ابن بسام ، إلا أنه لم يتردد عن وصفه بالعالم الفريد لاجئا في ذلك الى أسمى العبارات (87)، بينما لم يتردد ابن بسام هو الآخر في مدح أبي الوليد الباجي حتى بعد لقائهما ونقاشهما في ميورقة ورغم ادانته لأفكار ابن حزم واقتراح منع نشاطه على بعض ملوك الطوائف بحيث وصف ابن حزم أبا الوليد الباجي بكونه أعظم فقيه مالكي (88).

بعبارة أخرى ، لقد اعترف غيره بعلمه كما اعترف هو بعلم غيره، وذلك رغم اختلافه مع عدد من معاصريه في الرأي. وهذا أمر معقول اعتباراً للطابع الموسوعي الذي تتميز به أعماله ـ تآليفه واعتبارا للمساهمة الفريدة التي تميزه في جميع المجالات التي عالجها . فعلى سبيل المثال ، قام بتأليف أول كتاب في مقارنة الاديان ـ الاديان المقارنة في التاريخ العالمي كما أن تطورات الاحداث أثبتت صحة وصواب معتقداته السياسية القوية .

ب) ـ الدور السياسي الجماعي للعلماء الاندلسيين :

لقد قمنا بمناقشة للادوار السياسية الفردية لفقهاء أندلسيين معينين في الاندلس كما ركزنا على اختلاف هذه الادوار وتنوعها. وقد تأثرت هذه الادوار كثيرا بطبيعة تعليم هؤلاء العلماء وباتجاهاتهم السياسية وبمجالات تخصصهم وباتجاهاتهم السياسية واختياراتهم الاديولوجية كما تأثرت بمصالحهم الشخصية وبتجاربهم وكذلك

باختلاف أمزجتهم أو بخصائصهم الفردية . ومع ذلك ، إذا استطاع العلماء أن يتخذوا موقفا مؤيدا أو مرنا أو حتى محايدا تجاه ملوك الطوائف أو إذا فرضت عليهم مثل هذه المواقف قبل معركة الزلاقة فلم يظل ذلك ممكنا بعد سنة 479 هـ. ـ 1086 م.

لم يقع إهمال معركة الزلاقة من طرف المؤرخين المعاصرين لها (سواء تعلق الامر بالاندلسيين المسلمين أم بالمسيحيين فى شمال إسبانيا). كما كانت موضع الدراسة من طرف المؤرخين العصريين وما زالت تستقطب الكثير من الاهتمام. كانت نتائج الانتصار بالزلاقة وعواقبها بالغة الاهمية ليس فقط اقتصاديا وسياسيا بل وحتى اجتماعيا. لم يتجرأ العلماء من الناحية السياسية للتعبير عن معارضتهم لملوك الطوائف خلال مدة طويلة وذلك لاسباب متعددة.

أولا ، كانوا منقسمين على أنفسهم سياسيا كما عانوا جميعا من العجز العسكري . فعلى سبيل المثال ، ظلت معارضة أناس مثل ابن حزم عبارة عن Ocryirle unildemes خلال مدة طويلة لم تفشل مثل هذه المواقف في جلب مساندة شعبية في الاندلس ، بل أدت الى إثارة غضب عدد من العلماء الاندلسيين ورفضهم لها . ولو اختار العلماء مجابهة ومعارضة ملوك الطوائف دون توفرهم على بديل مناسب لشكل ذلك مغامرة خطيرة خصوصا عندما تمتع ملوك الطوائف بقوة متفوقة . ومع ذلك ، فبمجرد ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة السياسية ، لم يتردد العلماء في اتخاذ موقف المساندة له

بالاجماع - لقد أصبحوا بعد ذلك يتوفرون على مبرر منطقي واقعي لمعارضة ملوك الطوائف وشكلت معارضتهم هذه شرطا أساسيا من شروط نجاح يوسف بن تاشفين في سياسته الاندلسية .

لقد ساهمت عدة عوامل في هذا التغير الجذري . في موقف العلماء الاندلسيين بعد سنة 479 هـ

أولا ، لم تعد مساندة ملوك الطوائف ممكنة إذا نظرنا الى القضية نظرة واقعية وذلك ليس فحسب لانهم لم يستطيعوا الترفع عن خصوماتهم السخيفة ولكن لانهم فشلوا فى تشكيل جبهة موحدة لمواجهة التقدم العسكري المسيحي داخل الاراضي الاندلسية خصوصا من طرف ألفونسو السادس . فبعد احتلال ألفونسو لطليطلة سنة 478 هـ . - 1085 م . واتخاذه قرار احتلال ما بقي من أراضي في الاندلس ، أصبح وجود الفقهاء والاسلام فى الاندلس مهددا بالانقراض. وعلاوة على ذلك ، نشير الى ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة السياسية في الاندلس وانتصاره في معركة الزلاقة باسم الاسلام متخذا الجهاد شعارا له ، إذ أصبح يوسف يمثل موجة إديولوجية رحب بها العلماء واعتبروها منسجمة مع مبادئهم ومع أفكارهم الدينية. وهناك عامل آخر ذا أهمية كبرى يتجلى في المساندة الشعبية ليوسف بن تاشفين .

لقد اتضح بعد سنة 1086 م . - 479 هـ . أن الجماهير الاندلسية أصبحت معارضة لملوك الطوائف علانية . كما اتضح أن عدداً من

الموظفين السامين بل وعناصر بارزة فى الجيش أصبحت هي الاخرى تعارض استمرار ملوك الطوائف في الحكم . ولقد عبر عن هذا التحول الهام حاكم غرناطة عبد الله ابن بلقين بلسانه وبلسان غيره من ملوك الطوائف . لذلك كان العلماء الاندلسيين يمثلون هذا الاتجاه الجديد اعتبارا لجذورهم الاجتماعية والثقافية وارتباطها المباشر بالعامة والطبقة الوسطى الاندلسية .

كان دور العلماء حاسما في مواجهة تطور حركة الاسترجاع المسيحي ( Recongvista ) للاندلس .

أولا ، لعب العلماء دورا هاما في اقناع بعض ملوك الطوائف بضرورة استنجادهم بيوسف لمواجهة سياسة ألفنسو السادس التعسفية والتوسعية خصوصا بعد أن أصبح ملك ليون وقشتالة يهدد باحتلال الاندلس كلها . لقد أشاروا الى أن يوسف أصبح يشكل الاختيار الوحيد لانقاذ الاندلس وأن أي فشل في البحث عن مساعدته سوف يؤدي حتما الى الاحتلال المسيحي للاندلس (89) .

ومن أهم الاسباب التي دفعت بألفونسو السادس الى اعلانه عن نيته لاحتلال الاندلس . اثر احتلاله لطليطلة أنه لم يكن يظن أن بعض ملوك الطوائف قادرون على اتخاذ مثل هذه الخطة الخطيرة . فمن ناحية ، ساهم تعسف ألفونسو المتزايد ، ورغب ملوك الطوائف في لجوئهم الى الاستنجاد بيوسف . وقام الفقهاء بدور هام فى اقناعهم بذلك ومما يدل على ذلك وجود بعض الفقهاء ضمن الوفد الذي أرسل إلى المغرب في تلك المهمة .

ومع ذلك، فقد أصبح دور العلماء أكثر أهمية بكثير بعد أن قطع يوسف مضيق جبل طارق الى الاندلس وبعد قيادته للاندلسيين في أول نصر لهم ضد مسيحيي إسبانيا الشمالية .

نلاحظ في بادئ الامر أن بعض المشاركين في معركة الزلاقة كانوا فقهاء . بل إن إحدى الروايات النادرة للمعركة بأقلام المشاركين فيها كانت للفقيه ابن القصيرة (90) . لهذا بامكاننا أن نتحدث عن مشاركة الفقهاء المباشرة في المعركة .

كما يكتسي دور العلماء أهمية بالغة لكونهم منحوا يوسف بن تاشفين التبرير الشرعي لاحتلال دول الطوائف . بعبارة أخرى ، أعطوا نقمة الجماهير الاندلسية إطارا شرعيا كما قدموا لهؤلاء بديلا ممكنا . وقد قاموا بهذا بتقديم اتهامين خطيرين للغاية ضد ملوك الطوائف. بعبارة أدق، ساندوا اتهامين خطيرين ضدهم، الاتهام الاول هو أن ملوك الطوائف كانوا يتعاملون مع ملك نصراني هو ألفنسو السادس خلافا للتعاليم الاسلامية وأنهم كانوا يقدمون له أموالا كجزية حتى بعد هزيمته في معركة الزلاقة . بل ذهب يوسف إلى اتهامهم بالاتصال بألفونسو بهدف طلب حمايته لهم عسكريا منه . وكان الهدف من أداء أموال الجزية التي قدموها له الحصول على السلم في المقابل أو الحماية إن اقتضى الحال ذلك .

أما الاتهام الثاني الموجه الى ملوك الطوائف فهو أنهم كانوا يفرضون ضرائب غير شرعية على رعيتهم المثقلة بالضرائب. وادعى

يوسف بن تاشفين ان الزكاة والعشر يعتبران شرعيين ، اما الضرائب الاخرى فهي غير شرعية. وبطبيعة الحال، لم يكن بامكان ملوك الطوائف قبول هذا الموقف لان الضرائب الثقيلة (91) التي فرضوها على رعيتهم كانت تشكل الوسيلة الوحيدة لتغطية مصاريفهم وأداء الجزية التي فرضها عليهم ألفونسو السادس وبعض الحكام المسيحيين في شمال إسبانيا مثل كومت برنجير الثاني ( Berenguer ) ببرشلونة . وعندما هدد يوسف بالانتقام من ملوك الطوائف إن هم رفضوا اقتراحاته أدركوا أنه طلب منهم المستحيل لكي يبرر احتلاله للدول الطائفية . كما كان الفقهاء واعين بنتائج هذين الاتهامين وما سوف تؤدي إليه عند تبنيهم لهما وموافقتهم عليهما .

إزداد نفوذ يوسف بن تاشفين في الاندلس بعد معركة الزلاقة وبذل الفقهاء كل جهدهم من أجل تقوية سلطته وتسهيل احتلاله لدول الطوائف . واستطاعوا أن يحققوا هذا الهدف من خلال دور الوساطة الذى لعبوه بين يوسف وملوك الطوائف. فعلى سبيل المثال، قام الفقهاء بالمفاوضات والاتصالات بين الحاكم المغربي وملوك الطوائف في الاندلس بينما قام القواد العسكريون بتنفيذ أوامر يوسف وإن اقتضى الحال اللجوء الى العنف لحل الخلافات. قبل أن يقرر يوسف احتلال الاندلس شعر ملوك الطوائف بضغط قوته عليهم فبعثوا له رسلهم لاكتساب رضاه . وبدل ذلك، شجع هؤلاء فى غالب الاحيان يوسف ليضع نهاية لحكمهم عندما اتهموهم بتبذير الأموال وسوء تدبيرهم للشؤون . فعلى سبيل المثال ، بعث الامير عبد الله

ابن بلقين حاكم غرناطة ابن القليعي والقاضي ابن سهل ليبلغاه نجاحه بصفته حاكماً على غرناطة (92) .

وكان تعيين عبد الله بن بلقين لابـن سهل قاضيا قد جاء طبقا لاقتراح من القليعي بهدف جلبه إليه ومجانبة تأييد ابن سهل لاخيه تميم حاكم مالقة ضده (93) . فعندما سمع عبد الله بن بلقين أن يوسف وصل إلى سبتة في طريقه إلى قرطبة بعث القاضي بـن سهل وباديس بن وروي لاستقبالة وللترحيب به (94). وعاد المبعوثان الى غرناطة بعد ذلـك ووصفا مهمتهما بالنجاح ولكن الوقائع تـدل على أن ابن سهل أخبر يوسف بأن الجيش كان منقسما على نفسه في غرناطة وان الغرناطيين يعانون من اضطهاد عنيف وان يوسـف يتمتع بشعبية كبيرة في غرناطة (95) . بل بمجرد مغادرتهما غرناطة متوجهين نحو سبتة أخبر عبد الله بن بلقين أن باديس بـن وروي قال بأنه بعث ليساند عبد الله ، ولكنه في الواقع قيد يديه بإحكام وان القاضي ابن سهل ضرب رأسه (96) .

ويقدم لنـا عبد الله بن بلقين نفسه وصفا مثيرا للكيفية التي ضيع بها سيطرته على غرناطة وذلك لان يوسف أصبح يتمتع بشعبية واسعة النطاق في مرحلة معينة . وعرض عبد الله الشرائح الاجتماعية المختلفة (97) في غرناطة ثم شرح الاسباب التي دفعت بكل مجموعة الى التخلي عن مساندته (98) وتعد هذه الرواية الفريدة من أطـرف الروايات التاريخية بحيث نجد شخصيـة تاريخية معاصرة لعهد دول الطوائـف تقسم المجتمع الاندلسـي إلى شرائح اجتماعية مختلفـة .

كما يكتسي هذا الامر أهمية لان عناصر الطبقة الوسطى بغرناطة تبدوا واضحة . كما تهمنا الملاحظة بأن عبد الله بن بلقين لم يشر الى العلماء بتاتا بصفتهم كانوا يشكلون طبقة أو شريحة اجتماعية منفردة .

ويعني هذا أحد أمرين . الاحتمال الاول هو أن العلماء لم يشكلوا شريحة اجتماعية في غرناطة . ولا نرجح هذا الاحتمال ، لان المراكز الدينية والقضائية كانت تخصص للعلماء ، وكانت موجودة في غرناطة كما كانت موجودة عبر مختلف أنحاء الاندلس. أما الاحتمال الثاني ، فهو أن العلماء كانو موجوين إلا أنهم لم يعتبروا شريحة اجتماعية مستقلة . بعبارة أخرى ، لم يعتبر الافراد من العلماء جزءاً من شريحة اجتماعية مستقلة في غرناطة لانهم كانوا يشكلون أطرافا من مجموعات مختلفة . فكان ارتباطهم بالشرائح الاجتماعية الاخرى - كالاداريين والتجار - أوثق من انتمائهم إلى مجموعة ملتحمة مستقلة تمتاز بخصائصها وبمميزاتها .

ولا نرجح هذا الاحتمال أيضا لان العلماء كانوا يشكلون مجموعة اجتماعية ملتحمة في غرناطة شأنها في ذلك شأن أنحاء أخرى من الاندلس لانهم تطوروا فى ظروف مماثلة. أما الاحتمال الثالث للصمت الذي التزمه عبد الله بن بلقين بشأن العلماء في غرناطة كشريحة إجتماعية فهو أنه لم يرد أن يتطرق للموقف الشرعي الذي اتخذه العلماء عند ظهور يوسف بن تاشفين بصفته بديلا فضله الجميع على ملوك الطوائف . ونعتبر هذا الاحتمال أكثر رجاحة من غيره

لان عبد الله كتب مذكراته في المغرب بعد تسليمه غرناطة ليوسف ابن تاشفين . فأية مناقشة لموقف العلماء ضده في مثل الظروف التي كتب فيها كان من شأنها أن تذكره بمركزه ، غير الشرعي كملك طائفي . وربما يعود سكوت عبد الله بن بلقين عن موضوع العلماء بصفتهم شريحة اجتماعية الى كون هذه الاخيرة لم تعارضه علانية على نطاق جماعي أو أنه لم يرغب في تذكير نفسه وقرائه بمعارضة هذه المجموعة بالذات له لان ذلك قد يؤدي الى ردود فعل من طرف العلماء المغاربة ضده ولم تمكنه ظروفه بصفته « ضيفا » لدى يوسف ابن تاشفين من ذلك .

ومن جهة أخرى ، فإن الشرائح الاجتماعية الاخرى التي تطرق لها عبد الله بن بلقين في إطار مناقشته للمجموعات التي عارضته عند اقتراب الجيوش المرابطية من أبواب غرناطة قصد احتلالها لجديرة بالمناقشة . المجموعة الاولى تتكون من «الجند من البربر» الذين ساندوا يوسف وقبلوا عدم مقاومة جيشه لانهم توقعوا من ذلك حصولهم على الزيادة في الاجر (99) ويشير ذلك الى أن جيش عبد الله لم يرض بالاجور التي خصصت له : وتتكون المجموعة الاجتماعية الثانية التي تطرق لها عبد الله من «التجار» و «أهل البلد» الذين ساندوا كل من كانت له اليد العليا في تسيير الشؤون العامة (100) . ويتكون النصف الثالث من الطبقة الشعبية التي وصفها عبد الله بن بلقين «بالرعية» والتي رحبت بيوسف بحرارة تفوق ترحيب المجموعات الاخرى (101) إن أسباب هذا الموقف من

طرف العامة لجديرة باهتمامنا كما انه من الطريف أنها شكلت اهتمام ملك طائفي قدمها لنا بنفسه .

كان غياب «الحرية» من أهم أسباب غضب العامة ، كما يعود سخط العامة على الاوضاع في غرناطة وثورتها على عبد الله بن بلقين الى أملها في أن تعفى من الضرائب باستثناء « الزكاة والعشر » (102) .

بعبارة أخري ، كانت « الرعية » تعاني من الاضطهاد والضرائب الثقيلة . أما الشريحة الاجتماعية الرابعة التي ذكرها عبد الله بن بلقين فكانت تتكون من الجنود المغاربة الذين اعتمد عليهم للدفاع عن حصونه داخل دولة غرناطة الطائفية وقد ثاروا عليه ليرحبوا بأولاد أعمامهم المغاربة (103) . والشريحة الاجتماعية الخامسة التي عارضت عبد الله تتكون من «العبيد والصقالبة» الذين ساندوا الجيش المرابطي في لوشة لانهم رغبوا في معاملة أفضل بعد تعويض المرابطين لعبد الله. ومن الطريف أن نشير الى أن عبد الله ذكر العبيد والصقالبة كلا على حدة ، الامر الذي يشير الى تمييزه بين الصقالبة الذين أتوا من إسبانيا الشمالية وأوربا وبين غيرهم من العبيد الذين ربما اتوا من افريقيا في غالب الاحيان . واحتج عبد الله حتي على «الخدم من النساء» و «الجزيان» الذين ساندوا يوسف ابن تاشفين ضده ليستطيعوا مغادرة البلاط والاستمتاع بحريتهم (104). باختصار ، وجد عبد الله نفسه في حالة عزلة تامة . في دولته

الطائفية غرناطة التي تداعت أركانها عند وصول الجيش المرابطي الى أبوابها سنة 483 هـ . ـ 1090 ـ 1091 م.

يقدم لنا هـذا الوصف الرائع لشعبيـة يوسف بن تاشفين فـي الاندلس بعض الاسباب التي دفعت بالفقهاء الى معارضة ملـوك الطوائف . بل أكثر من هذا ، يعكس هذا الوصف وصول هذه الحالة الى أوجها نتيجة لمساندة الفقهاء ليوسف ومعارضتهم لملوك الطوائف.

ونلاحظ باهتمام أنه عند اقتراب جيش يوسف بن تاشفين مـن أبواب غرناطة ، بعث عبد الله ابن بلقين مـالا الى يوسف حملتـه مجموعة من العلماء الذين أخبروا يوسف أن عبد اللـه يعتبر نفسـه « . . . إبنه، وغير مخالف، عليه . . » (105) وأجابه يوسف فى رسالة بعثها له بواسطة الفقيه ابن سعدون يرفض فيها أي اتفاقية معه ويأمر عبد الله بتسليم غرناطة على أساس أنه لن يصاب بأذى وضرر (106). وأخيرا سلم الملك الطائفي غرناطـة لجيش يوسف سنة 483 هـ . 1090 ـ 1091 م . لانه لم يعد على ثقة في رعيته أو يعتمد عليها ولانه لم يعد ممكنا له أن يطلب اسعاف «الرومي» ألفونسو السادس (107).

وختاما ، لخص عبد الله الورطة التي وقع فيها بكل وضوح عندما قال : « فرأيت حالي في هذا كله تالفة ، وعلمت أنه ، طول مدة امتساكي لو امتسكت ، لكان سلاطين الاندلس أجمع متألبين على فتنتي مع رعيتي لما يلزمهم من الطاعة للمرابط والطمع ، عسى يحصل لاحد مزيد في بـلاده ، ولا تمكن لاحد منهم معونتـي ولا الاستفساد من أجلي (108) .

بعبارة أخرى ، فرض عليه الاستسلام إما لألفونسو السادس أو ليوسف بن تاشفين .

ومع ذلك لم يستسلم عبد الله وحده ليوسف بحيث تبعه غيره من ملوك الطوائف . ومن الطريف أن نشير الى أن عبد الله بعث رسائل لبعض ملوك الطوائف يستنجد بهم عندما وصل الجيش المرابطي الى أبوابه ومنهم ابن الافطس حاكم بطليوس إلا أنهم رفضوا مساندته على أساس أن هذا المشكل يخصه وحده في مواجهة يوسف ولا علاقة لهم به (109) فخاطبهم حاكم غرناطة قائلا بأنهم لن يفلتوا من المصير الذي ينتظره : « هذا الامر منجر إليكم ، واليوم بي وغدا بكم ! » (110) .

ومما يثير دهشتنا أن نلاحظ كيف ظل ملوك الطوائف في سلبية مطلقة أمام هذه التطورات مسالمين، بينما حاصر جيش يوسف عواصم الدول الطائفية الواحدة تلو الاخرى الى أن وصل دورهم . فعلى سبيل المثال ، توجه جيش يوسف نحو المرية اثر استسلام غرناطة ففزع حاكمها ابن صمادح وذعر لما قد يتبع ذلك الى درجة أنه مات عند اقتراب جيش يوسف من أبواب دولته الطائفية (111) . وخلفه بعد ذلك ابنه معز الدولة . ومن الطريف أن نشير الى أن هذا الاخير كان يستشير مع ابنه (الذي لم يذكر اسمه في المصادر) والذي « . . كان ينتحل فقها . . . » (112) .

وعندما وصل يوسف الى المرية أمر أن يقيد هذا الفقيه المزيف في السجن بالسلاسل (113) . وهذا مثال غريب للفقيه الكاذب

وفضحه . وهكذا استطاع يوسف أن يحتل دول الطوائف كل دولة طائفية على حدة دون معارضة شديدة بكيفية مماثلة للطريقة التي تعامل معها ألفونسو السادس بطريقة فردية. لم يتمكن ملوك الطوائف من اتخاذ خطة موحدة حتى عندما تعلق الامر باستمرارهم فى الوجود وتوقف على تلك الوحدة .

ويصعب علينا حقا فهمنا قصر نظرهم هذا . فقد وصفه عبد الله بوضوح تام عندما قال : «فنحن لم يعن بعضنا بعضا على الرومي ! فكيف على المسلم . . . » (114) .

ثم توجه يوسف بعد ذلك الى إشبيلية . طلب من المعتمد بن عباد أن يلتحق به إلا أن هذا الاخير رفض خوفا على حياته . وهذا بالذات هو العذر الذي كان يوسف بحاجة إليه ليضرب حصارا على إشبيلية . بدأ خطته باحتلال حصون مختلفة في دولة إشبيلية الطائفية الامر الذي دفع بالمعتمد الى الاستنجاد بألفونسو السادس . وهذا بالذات هو التبرير الذي كان يوسف بحاجة إليه ليضع حدا لحكم المعتمد . وقد وصف عبد الله بن بلقين هذه الوضعية قائلا : « . . . وهي حجة أمير المسلمين على ابن عباد ، أن قال له : «ظفرت بكتبك إلى الرومي وإرسالك عنه ! » فقال المعتمد : « لو فعلته قبل أن تؤخذ بلادي بطرا وأشرا، كنت آلأم ! وأما بعد أن رأيت طلبي فى الروح، اضطرتني الضرورة الى ذلك للمدافعة، ولو يوما واحدا ، وهي علة الجميع » (115) . وهنا وصلت العداوة بين المعتمد ويوسف الى نقطة اللارجوع أي الى قمتها ، ألا أن

يوسف استشار العلماء قبل اتخاذ أي عمل فكان قرارهم أنه يجب محاربة المعتمد (116) ، ثم استولى المرابطون على قرطبة وإشبيلية سنة 484 هـ - 1091 م. قاد الامير سير جيش يوسف الى احتلال قرطبة ثم فرض حصارا على إشبيلية التي تم الاستيلاء عليها بتواطؤ الاهالي الاشبيليين في رجب من سنة 484 هـ - 1091 م. وكان قد تم احتلال قرمونة ورندة قبل ذلك. وأرسل المعتمد إلى مكناس صحبة أفراد عائلته من حيث أرسلوا الى أغمات التي لا تبعد عن العاصمة المرابطية مراكش.

وتم الاستيلاء على بطليوس بطريقة مشابهة. فعندما إفشل ابن الافطس في مواجهة الضغوط التي مارسها عليه يوسف بعث إلى ألفونسو السادس مستنجدا بـه، الامر الذي أعطى ليوسف مبررا شرعيا لوضع نهاية لحكمه (117). وكان ابن الافطس على حد تعبير عبد الله بن بلقين مثل السمك الذي لا حيلة لـه في كتاب دمنة (كليلة ودمنة) (118). ومما سهل أمر سقوطه الدور الذي قام به الفقيه إبن إحسان الذي ولاه ابن الافطس على شؤون الدولة والذي رغم كونه كان مخلصا له بصفته يعمل على الاطاحة بحكمه في الخفاء (119). وفعلا كان موقف الفقهاء ومشاركتهم في سقوط ملوك الطوائف ذا أهمية بالغة بحيث مكنوا يوسف من احتلال الاندلس دون إراقة الكثير من الدماء بفضل المساندة الكبرى التي قدمتها له مختلف الشرائح الاجتماعية داخل الاندلس.

# الهـوامــش

1) مثلا ، اهتم المؤرخون والفلاسفة الاسبان بصفة خاصة بالعصور المتأخرة في التاريخ الاندلسي لان الاشكالية التي كانت تشغل بالهم دوما هي لماذا وكيف احتل المسلمون إسبانيا وكيف طردوا منها ؟ تفوق تآليف المؤرخين الاسبان حول عصر بني امية اهمية تآليفهم حول عصر ملوك الطوائـف والعهود المتأخرة من التـاريخ الاندلسي من حيث عددها وقيمتها العلمية . ومع ذلك ، نلاحظ انعدام توازن كبير بين المصادر التاريخية الاساسية الموجودة لدراسـة القرون الثلاثة الاولى من التاريخ الاندلسي و الدراسات التي انجزت حول تلك الحقبة التاريخية . لقد اهتم المؤرخون الفرنسيون وعلى راسهـم إيفرست ليفي بروفنصال بعصر بني امية حيـث استطاع المؤرخ الفرنسي المذكور ان يدرس دور العـرب والبربر في المجتمـع الاندلسي . اما المغاربة فقد فضلـوا التركيز على اهمية عهدى المرابطين والموحدين حيث كانت الاندلس تخضـع للسلطة القائمه في الضفة الجنوبية من مضيق جبل طارق . ولقد تطرقنـا لهذه

القضايا ولغيرها بدقة اكثر في مقالة عنوانها «التصورات التاريخية للاندلس قديما وحديثا» ( «المجلة التاريخية المغربية» ، عدد 29 ـ 30 (1983) ص : 487 ـ 503 ) .

2) راجع الفصل الذي به النظام الشرعي في إشبيلية والاندلس في كتابنا «التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف» ، تطوان ، 1983 ، ص : 134 ـ 162 .

3) لقد كان وعي المؤرخين في القرون الوسطى يتميز في غالب الاحيان بأهمية البعد الديني . وفيما يخص التاريخ الاندلسي في القرن الخامس للهجرة فتنعكس هذه الظاهرة بوضوح في مختلف انواع المصادر . مثلا ، تتميز كتب السير والطبقات مثل «كتاب الصلة» لابن بشكوال و «بغية الملتمس» للضبي بطابع ديني واضح .

4) إفرست ليفي بروفنصال ، «تاريخ إسبانيا الاسلامية» .

E. Lévi - Provencal, Histoire de l'Espagne musulman, tome 1, Paris - leide, 1950, PP. 149 - 150.

5) ميكل اسين بلاثيوس ، «ابن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للافكار الدينية» :

Miguel Asin Palacios, Abenházam de Cordoba y Su historia de las ideas Religiosas, tome 1, Madrid, 1927.

6) روبير برونشفيك، «مجادلات في القرون الوسطى حول مذهب مالك» :

Robert Brunschvig, Polémipues médievales autour du rite de malik al-andalus, XV (1950)' PP. 377 - 415.

7) عبد المجيد التركي ، «مناظرة ابن حزم والباجي حول مبادئ الفقه الاسلامي» :

A. M. Turki, Polémiques entre Ibn Hazm et Bagi sur les principes de la loi musulmane, Alger, 1973.

8) إميليو غارسيا غوميث ، «فقيه إسباني : ابو إسحاق الالبيري» :

— ذ —



— ر —



— ز —



— س —

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» ، 8 اجزاء ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، 1967 .

17) تتوفر حاليا على اربعة اجزاء من «البيان المغرب» علاوة على الجزء الخاص بالموحدين ، إلا ان الجزئين الثالث والرابع يعتبران اكثر اهمية من غيرهما لدراسة التاريخ الاندلسي في عصر ملوك الطوائف :

ابو العباس احمد بن محمد بن عذاري ، «البيان المغرب في ذكر اخبار المغرب» ، ج ، 3 ، تحقيق إ. ليفي بروفنصال ، باريس ، 1930 والجزء 4 ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت . 1967 . لقد فاقت اهمية مساهمة الاستاذ إحسان عباس في مجال الدراسات الاندلسية غيرها خلال القرن العشرين فيما يخص تحقيق المصادر العربية الاساسية . إن الامر لا يتعلق بمحقق دقيق بل بعلامة بارز . ومن اهم ما قام به الدكتور إحسان عباس تحقيق او إعادة تحقيق اهم المصادر التاريخية الاندلسية بما فيها جميع اقسام «ذخيرة» ابن بسام ورسائل ابن حزم .

18) ابو محمد عبد الواحد المراكشي . «المعجب في تلخيص اخبار المغرب» ، تحقيق محمد العربي العلمي ، القاهرة ، 1949 . ولقد نقل الاستاذ امبروسيو ويثي ميرندا ( Huici Miranda ) هذا الكتاب الى الاسبانية كما ترجمه الاستاذ فانيان ( E'Fagnar ) الى الفرنسية .

19) ابو عبد الله محمد بن عبد الله الحميري ، «الروض المعطار في خبر الاقطار» ، حققه الاستاذ ليفي بروفنصال ونقله إلى الفرنسية بعنوان :

La péninsule ibérique . . . . leide , 1938

19 مكرر مؤلف مجهول ، «الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية» ، تحقيق إ. س. علوش ، الرباط ، 1936 . قام الدكتور سهير زكار والاستاذ عبد القادر زمامة بإعادة تحقيقه وطبعه في الرباط سنة 1979 . ونلاحظ انهما اعادا نشر النص الاصلي الذي حققه علوش دون ذكر إسمه ودون ادنى إشارة الى طبعة 1936 . وقد عوضا في بعض الاحيان الهوامش التي وضعها

علوش في تحقيقه بتعاليق او شروح للكلمات الواردة في النص . ومع ذلك نرحب باعادة طبع احد المصادر الهامة لدراسة تاريخ المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس خصوصا وأن طبعة 1936 اصبحت مفقودة .

20) قام ليفي بروفنصال بنشر النص العربي . ويتعلق الامـر بالمخطوط الوحيد الذي كان موجودا في مكتبة جامع القرويين بفاس (عبد الله بن بلقين الزيرى ، «كتاب التبيان» ، تحقيق إ . ليفي بروفنصال ، القاهرة ، 1955) ، وقام المستشرق الفرنسي بنقل جزء منه إلى الفرنسية :

E. Levi - Provencal , Les memoires de 'Abd - Allâh , dernier roi zirids de Grenade , Al - Andales , III (1935) ' PP. 233 - 344 et IV (1935-39) , PP 29-145 .

وترجمه الدكتور امين توفيق الطيبي الى الانجليزية :

Amin Tawfiq Tibi , The Tibyân of 'Abdullah b . Buluggin Last Zirid Amir of Granada , Brill , Leide , 1986 .

وقـام الاستاذ إميلو غارسيا غومث مؤخرا بنقله الى الاسبانية :

E. Levi - Provencal y Emilio Garcia Gomez , El siglo XI en primera persona , Las Memorias de ,Abd - Allâh , ultimo rey ziri de Granada destronado por Los Almoravides (1090) , Madrid , 1980 .

وسوف تشجع هـذه الترجمة الاسبانية المؤرخين الاسبان على الاهتمام بالتاريخ الاندلسي فـي عهد دول الطوائف نظرا لاهمية هـذا المصدر التاريخي الفريد من جهة ونظرا لصعوبة الحصول على النص العربي .

ونشير من جهة اخرى ، ان الجزء الثاني من اطروحة الدكتور الطيبي يحتوي على تعاليق وشروح تاريخية ولغوية ذات اهمية بالغة . وهناك بعض الدراسات حول تـاريخ بني زيري بغرناطة ومنها : «بنو زيري بغرناطة» لاندرو هاندلر .

ANDREW Handler, The Zirids of Granada, Coral Gables , 1974 .

وكتاب « بنو زيري آخر ملوك غرناطة » للاستاذ إسماعيل العربي بيـروت ، 1980 .

21) لقد نقل عدد من المؤرخين المتأخرين اقتباسات من كتاب «المتين» لابن حيان ومنهم ابن عذاري في «البيان المغرب» إلا ان النصوص المنقولة في «ذخيرة» ابن بسام اكثر عدد من غيرها.

22) يمكن تمييز النصوص التي وضعها ابن حيان وتلك التي وضعها ابن بسام لان الناسخ حدد كلاً منهما عندما قدم كل اقتباس قائلا «قال ابن حيان» او «قال ابن بسام». فعلى سبيل المثال، إن الذي وضع الفقرات حول ابي محمد بن عبد البر هو ابن بسام نفسه (ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني، «الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة»، القسم الثالث، ج. 1، تحقيق د. إحسان عباس، ليبيا وتونس، 1975، ص: 125 ـ 143.

23) لقد وصلنا الانتاج الادبي الاندلسي في القرن الخامس للهجرة عبر مصادر متعددة، مثل «مطمح الانفس» لابن خاقان، إلا ان «ذخيرة» ابن بسام تعد اهم مصدر ادبي لدراسة الشعر الاندلسي في عصر ملوك الطوائف. ما يزال هذا الميراث الادبي الغني بحاجة الى الدراسة والتحليل، ولكن ظهرت دراسات هامة بعدة لغات حول الشعر الاندلسي في القرن الخامس للهجرة. شكلت «الذخيرة» نفسها موضوع اطروحة لنيل الدكتراه بجامعة مدريد:

Boulos Elias Nassif, La Dajira de Ibn Bassám a' - Santarini ' estudio critico de su contenido, tesis doctoral inédita, Madrid, 1962.

كما ان هناك دراسات جامعية ركزت على الجوانب المختلفة في شعر المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية معتمدة في ذلك على مناهج مختلفة.

مثلا، هناك دراسة للمواضيع الواردة في شعر المعتمد عنوانها «المعتمد ابن عباد والتاجه الشعري، دراسة للمواضيع» انجزها الدكتور رضى السويسي:

Ridha Souissi ' Al - Mu'tamid Ibn 'Abbād et son oeuvre Poétique, étude des Thémes, Tunis, 1977.

وتناول الدكتور شاندلاين البنية في شعر المعتمد في كتابه «الشكل والتركيب في شعر المعتمد بن عباد»:

Raymond Scheindlin, Form and Structure in the Poetry of Al-Mu'tamid Ibn 'Abbād' Leiden, 1974.

ولمحمد مجيد السيد دراسة عامة حول الشعر الاشبيلي في عهد دول الطوائف عنوانها «الشعر في ظل بني عباد» القاهرة، 1979. وحاول الدكتور صلاح خالص ان يطبق المنهج الماركسي على الشعر الاشبيلي في كتابه «إشبيلية في القرن الخامس الهجري ...» بيروت، 1965.

إن الشعراء الاندلسيين المعاصرين لعهد دول الطوائف مثل ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة من اشهر الشعراء الاندلسيين وهناك دراسات حول بعضهم. ومع ذلك لا يظهر في هذه الدراسات هل كان الشعر والادب يدرسان في المساجد وهو سؤال هام تصعب الاجابة عنه بشكل نهائي.

24) ألف أبو محمد علي بن حزم أول كتاب من نوعه في مقارنة الاديان ولقد قام المستشرق ميكيل أسين بلاثيوس بنقله الى الاسبانية وأضاف إليه دراسة حول ابن حزم وفكره السياسي والفلسفي والشرعي بحيث ما زالت هذه الدراسة رغم قدمها من اعمق الدراسات الموجودة حول ابن حزم.

Miguel Asin Palacios' Abenhazam de Cordoba y su historia critica ..., 5 tomos, Madrid, 1927.

25) أبو محمد علي بن حزم، «جمهرة انساب العرب» تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962. وراجع في هذا الموضوع ايضا مقالة للاستاذ خاسينطو بوش فيلا:

Jacinto Bosch Vila, Ibn Hazm, Genealogista, in Al-Mulk, 3 (1963), PP. 5-15.

26) وكان ابن حزم شاعرا بارزا بحيث نجد عددا من أبياته الشعرية في كتابه «طوق الحمامة»، تحقيق فاروق سعد، بيروت، 1972. ونقل هذا الكتاب الى لغات مختلفة بحيث ترجمه إميليو غارسيا غوميث الى الاسبانية ونقله المستشرق أبري (A. J Arberry) إلى الانجليزية. وقد نقل ابن بسام بعض

الابيات من اشعار ابن حزم (أبو الحسن علي بن حزم ، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ، القسم الاول ، ج . 1 ، تحقيق د . إحسان عباس ، ص : 166 ، 171 ـ 179 .

27) ابو محمد علي بن حزم ، «كتاب الاحكام في اصول الاحكام» ، حول دراسة نقدية لهذا الكتاب ولفكر ابن حزم في مجال الفقه راجع الفصل الذي يحمل عنوان «ابن حزم المفقيه» في مقدمة طوميش «كتاب الاخلاق والسير» لابن حزم :

Ibn Hazm, Epitre Morale : Kitád al - Ajláq Wa - Lsiyar, ed, par Nada Tomiche, Beirouth, 1961, PP. XXVI - XXXI.

28) ابو محمد علي بن حزم ، «نقط العروس» ، حققه س . ف . سيبولد ( C. F. Seybeld ) ونقله لويس سيكودي لوثينا الى الاسبانية ، بلنسية ، 1974 . ويطغى الطابع التاريخي والسياسي على هذا الكتاب بالدرجة الاولى . والف ابن حزم ايضا في المنطق فواجه انتقادات شديدة في هذا المجال ، ( «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 167 ) . ولابن حزم تصنيف للعلوم ولقد قام الاستاذ سالم يفوت بدراسة هذا الموضوع في مقالة ( سالم يفوت ، «تصنيف العلوم لدى ابن حزم» ، «مجلة كلية الاداب» ، الرباط ، رقم 9 ( 1982 ) ، ص : 53 ـ 91 .

29) يمكن ذكر الفقيه ابا حفص الهوزني كمثال لفقيه وضع نثرا يتميز بتعبيره عن بعض التطورات التاريخية ذات الاهمية الكبرى وبأسلوب ادبي فريد ( راجع مثلا «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج . 1 ، تحقيق د. إحسان عباس ، المصدر السابق ، ص : 83 ـ 90 ) .

30) وهكذا نرى ابن بسام يشير الى اقتباس لابن الفرضي ذكر فيه هذا الاخير سلسلة كاملة للرواة حيث قال : «اخبرني الفقيه ابو بكر بن الفقيه الوزير ابو محمد علي بن احمد بن حزم قال : اخبرني القاضي ابو الوليد ابن الفرضي قال . . . » ، ( «الذخيرة» القسم الاول ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص : 614 ـ 615 ) .

31) انظر « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج 2 ، المصدر السابق ص : 724 و 726 .

32) نفس المصدر ، ص : 614 .

33) يعتبر اهمال قضية العلماء والفقهاء في الاندلس في القرن الخامس الهجري وعدم اعتبار اهميتها اكثر خطورة لكون هذا الموضوع لم ينل ما يستحقه من اهتمام الدارسين . وقد اصبحت اكثر اقتناعا بعد إنجاز هذا الفصل بأن المصادر التاريخية الاولية المتوفرة لدراسة هذا الموضوع كافية لدراسة جوانب متعددة لموضوع العلماء والفقهاء الاندلسيين الذين لم يتطرق لها احد لحد الساعة .

34) اصبحت مصطلحات مثل « الاسلام المغربي » و « الاسلام الشعبي » متداولة لدى الباحثين الغربيين وحتى أورفوا دومينيك استعمل مصطلح « الاسلام الاندلسي » عنوانا للفصل الثاني من كتابه « عالم الاندلسيين من القرن الخامس الى السادس للهجرة » :

Urvoy Dominique, Le monde des ulémas 'avidalons du II - XIe ou VI - XIIe Siédes, Genéve, 1978, P. 4.

اما مصطلح « الاسلام المغربي » فقد جاء استعماله عنوانا لاطروحة لنيل الدكتوراه حول زاوية ابي الجعد :

Dale F Eickelman, Moroccan Islam : Tradition and change in a Pilgrimage Cente, Austin and London, 1976.

35) راجع الفصل الاول من هذا الكتاب حول العصبية والعلاقات الاجتماعية في الاندلس في عهد الطوائف .

36) لقد نتج هذا للتقليد عن احترام الطلبة لاساتذتهم وكانت سمعة الاساتذة ومكانتهم العلمية تعتبر ضمانة للمقدرة الفكرية والثقافية التي تمتع بها الطلبة .

37) « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 168 .

38) نفس المصدر ، ص : 168 ـ 169 .

39) يظهر المستوى العلمي الرفيع الذي وصل إليه العلماء والفقهاء القرطبيين في جميع مجالات المعرفة في القرن الخامس للهجرة في كتب السير والطبقات. ويخرج القارئ بنفس الانطباع في الدراسة التي قام بانجازها دومينيك اورفوا . مثلا ، نرى في الرسم الذي وضعه لتوزيع العلماء الاندلسيين الجغرافي في القرن الهجري الخامس ان قرطبة تأتي في المرتبة الاولى .

(Dominique Vrvoy, op. citi' P. 32).

40) هذا هو الاستنتاج الذي وصلنا إليه في دراستنا حول جوانب مختلفة من التاريخ الاشبيلي ( د. امحمد بن عبود ، «التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف» ، تطوان ، 1983 ) .

إن اهمية إشبيلية في نهاية القرن الخامس للهجرة دفعت بالمرابطين الى اتخاذها عاصمة لهم في الاندلس .

41) ابو العباس احمد المقري ، « نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب . . . » . ج. 1، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، 1968 ، ص : 220 ـ 221 . يعتبر وصف المقري لتطور العلوم والادب في الاندلس . ( نفس المصدر ، ص : 220 ـ 222 ) مفيد جدا إلا ان الطابع العام يطغى عليه كما انه لا يركز على حقبة معينة . ومع ذلك ، يتميز هذا الوصف بكونه عبارة عن اعتراف كاتب مغربي ذي ثقافة موسوعية بالمستوى الثقافي الفريد الذي حققه الاندلسيون .

42) راجع ابن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الثالث ، ج . 1 . المصدر السابق ، ص : 125 ـ 143 حول سيرة عبد الله بن عبد البر وانجازاته الادبية.

43) لقد انتقد كل من ابن بسام وابن حيان عددا من الشخصيات الثقافية المعاصرة لهما . بل إن ابن حيان نفسه كان موضع انتقاد لكونه كان يتهجم على غيره ومن احدث الامثلة لذلك البحث الذي شارك به الاستاذ عبد

الله كنون رئيس العلماء المغاربة حاليا في المؤتمر الذي خصص لابن حيان في الرباط من 19 الى 23 نفمبر 1981 . ونشر هذا البحث بعنوان «نقطة ضعف في تاريخ ابن حيان» ( «المناهل» ، العدد 29 (1984) ، ص : 301 ـ 309 ) .

44) يمكن ذكر مثال الفقيه ابي بكر بن ملح الذي عاش سكيرا قبل ان يتحول الى عالم محترم .

( ابن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج . 1 . المصدر السابق ، ص : 452 ) . وعبر ابن ملح عن تغير سلوكه في ابيات شعرية (نفس المصدر) .

45) «الذخيرة» ، القسم الاول، ج . 1 ، المصدر السابق، ص: 11 ـ 12 .

46) «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص : 826 .

47) نفس المصدر .

48) نفس المصدر .

49) نفس المصدر .

50) تطرقنا لهذا الاتجاه بالتفصيل عندما قدمنا الاوضاع الاقتصادية العامة في الاندلس في القرن الهجري الخامس اعتمادا على المصادر التاريخية الاولية في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

51) ربما كانت احسن محاولة لتوضيح المشاكل المنهجية العامة المرتبطة بعصر الطوائف تلك التي قام بها الدكتور حسين مؤنس في مقالته «اعتبارات حول عصر ملوك الطوائف» :

Hussayn Monés , Consideraciones sobre la epoca de los reyes de taifas, Al - Andalus , XXXI (1966) , PP . 305 - 328 .

ومع ذلك ظهرت بعد صدور هذه المقالة دراسات جيدة حول عصر ملوك الطوائف .

52) مثلا ، قرر القاضي بن عباد ان يعترف بهشام الثاني وبسيادته على إشبيلية والاندلس سنة 426 هـ . ـ 1034 م . ( «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج .

1 ، المصدر السابق ، ص ، 16 ـ 17 ) إلا ان المعتضد بن عباد امر بألا يلقى خطاب الجمعة باشبيلية باسم هشام الثاني منذ سنة 451 هـ ـ 1059 م .

( المراكشي ، «المعجب . . . » ، تحقيق محمد العربي العلمي ، القاهرة ، 1949 ، ص : 46 ) .

53) «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 82 .

54) نفس المصدر .

55) نفس المصدر ، ص : 84 ـ 89 .

56) نفس المصدر ، ص : 82 ـ 83 .

57) نفس المصدر ، ص : 83 .

58) نفس المصدر ، ص : 452 .

59) نفس المصدر .

60) نفس المصدر .

61) نفس المصدر ، ص : 456 ـ 461 و 452 ـ 453 .

62) نفس المصدر ، ص : 454 .

63) نفس المصدر . ص : 462 .

64) حول سيرة ابن القصيرة راجع نفس المصدر ، ص : 239 ـ 244 ومقالة «ابن القصيرة ، دبلوماسي اندلسي في بلاط المرابطين» :

C. Alvarez de Morales, Ibn al-Qasira, un diplomatico andalusi en la corte de los almoravides, Cuadernos de Historia del Islam (Granada), 8, (1977), P P. 85 - 94.

65) «الذخيرة» القسم الثاني ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 239 .

66) نفس المصدر .

67) نفس المصدر ، ص : 241 ـ 244 .

68) «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ،

69) «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 241 .

70) لقد اشار ابن بسام الى كتبه المتعددة والى معرفته الواسعة بحيث اعتبر أن مرتبته العلمية تقترب من المرتبة البارزة التي تمتع بها ابوه الفقيه ابو عمر بن عبد البر . ( «الذخيرة» ، القسم الثالث ، ج . 1 ، ص : 125 .

71) نفس المصدر .

72) نفس المصدر ، ص : 125 ـ 126 .

73) نفس المصدر . ص : 126 .

74) نفس المصدر ، ص : 129 .

75) نفس المصدر ، ص : 136 ـ 143 .

76) قدم لنا ابن بسام الرواية التالية رواها عن وزير في البلاط الاشبيلي: « . . . ثم خرج أمره بأن يحضر الكاتب ابن عبد البر . فدخل ، ومجلسه قد احتفل ، وقال له : اكتب الى ابن ابي عامر ، وحلل دم الخائن الغادر ، وكلاما هذا معناه . وجاء الغلام بجلد الرق والدواة ، والوزراء والخاصة جلوس بذلك المقام ، وقالوا في انفسهم : ما عسى ان يتجه لابن عبد البر من كلام ، على هذه الحال ، لا سيما على الارتجال ؛ قال المحدث : فسوى الجلد ، وجعل يستمد ويكتب ، وعين المعتضد فيه تصعد وتصوب ، فلما فرغ منه أسمعه ذلك إلى آخره ، وخرجوا عنه وهم يرون ان ابن عبد البر من آيات فاطرة . . . » «الذخيرة» ، القسم الثالث ، ج . 1 ، ص : 137 ) .

77) «الذخيرة» القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 169 .

78) نفس المصدر ، ص : 168 .

79) كان شاعرا فانتقده شعرا ( «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 173 ) .

80) حول رواية ابن حيان لمعارضة الفقهاء الاندلسيين راجع نفس المصدر ، ص : 168 .

81) نفس المصدر ، ص : 169 ـ 171 .

82) نفس المصدر ، ص : 169 .

83) « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 1 ، ص : 167 .

84) « الذخيرة » القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 83 .

85) « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 1 ، ص : 168 .

86) نفس المصدر ، ص : 170 .

87) نفس المصدر ، ص : 167 .

88) « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 96 . لقد قدم لنا ابن بسام رواية لانشطة ابي الوليد الباجي وانتاجه الادبي وهي وإن كانت ملخصة فإنها تتصف مع ذلك بالدقة والتركيز ( نفس المصدر ، ص : 94 ـ 97 ) . وسافر الباجي الى المشرق حيث كان يلقى الدروس . وقال ابن بسام بأنه سافر الى المشرق سنة 426 هـ . ـ 1030 م . وانه ترك صدى طيبا في كل بلد زاره وان نثره وشعره كانا معروفين هناك ، إلا ان شهرته كانت اهم في ميدان العلوم الدينية ( نفس المصدر ، ص : 95 ) ، وقام ابو الوليد الباجي ايضا بزيارة بعض ملوك الطوائف فأفتى عليهم بضرورة توحيد صفوفهم فقبلوا نصائحه جهرا مع رفضهم لها سرا ( نفس المصدر ، ص : 96 ) . ومع ذلك ، « . . . وما كان افطن الفقيه ، رحمه الله ، بأمورهم ، واعلمه بتدبيرهم ، لكنه كان يرجو حالا تثوب ، ومذنبا يتوب . . . » . ( نفس المصدر ) .

89) لقد تطرقنا للاسباب الاقتصادية لمعركة الزلاقة في المدى البعيد وذلك في مقالة اخرى ( د . امحمد بن عبود ، « معركة الزلاقة والواقع الاندلسي » ، « البحث العلمي » ، العدد 33 (1982) ، ص : 49 ـ 67 .

90) « الذخيرة » القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 241 ـ 244 .

91) إن قضية الضرائب في دول الطوائف تستحق دون شك دراسة عميقة ومفصلة . ومع ذلك ، فإن المصادر العربية الاولية تقدم لنا أرقاما مضبوطة مع الاشارة . إلى اننا نتوفر على إشارات الى ارتفاع الضرائب المستمر والى نتائجها الخطيرة والوخيمة . لا نشك إطلاقا في كون الضرائب كانت تعد من بين اهم الاسباب للسخط العام في الاندلس في عصر الطوائف وقد فشل «ملوك» الطوائف في ايجاد حل لهذا المشكل اعتبارا لما اصاب الاوضاع الاقتصادية من تعقيد قبل معركة الزلاقة . وقد استغل يوسف بن تاشفين هذا الفشل احسن ستغلال بحيث اعتبره من المبررات الاديولوجية والشرعية لتدخله العسكري في الاندلس . حول الجباية في بلنسية في اوائل القرن الخامس للهجرة ـ 11م راجع المقالة التالية :

A. L | de Premare et Pierre Guichard, Croissance urbaine et societe rurale á Valence au début de l'époque des royaumes des taifas (XI e siécle de J. C.) in Revue de Monde Musulman et de la Méditerranée, 31 ( 1981 ).

92) «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص ، 116 .

93) قدم تميم بن بلقين صاحب مالقة خمسين مثقالا للقاضي ابن سهل مقابل مساندته له ضد اخيه عبد الله بن بلقين إلا أن ابن سهل رفض هذا المبلغ كما رفض ان يساند تميما ( نفس المصدر ) .

94) نفس المصدر . ص : 146 .

95) نفس المصدر .

96) نفس المصدر .

97) يعتبر هذا الجانب مثلا آخر لاهمية «كتاب التبيان» لعبد الله بن بلقين بصفته مصدرا تاريخيا . لقد قدم لنا صاحب «التبيان» الشرائح الاجتماعية للمجتمع الغرناطي كما لو كان عالما اجتماعيا عصريا بحيث انتقد الدوافع المختلفة لمعارضة كل شريحة له عند وصول جيش يوسف بن تاشفين الى غرناطة قصد احتلالها . ولا يمكن لنا إلا ان نعبر عن دهشتنا واعجابنا بتحليله نظراً لما يقترب من التحاليل العصرية .

الوضعية استكناه عناصر الاتجاه التضخمي المفرط فى أبسط مظاهره : التشكك، وازدياد النقود المتداولة دون نمو مقابل للطاقة الانتاجية مما أدى إلى ارتفاع أسعار المنتوجات وبالاضافة إلى ارتفاع المبالغ التي كانت تؤدى في شكل جزية وكانت هذه الجزية التي فرضها الملوك المسيحيون تمثل عبئاً مالياً ثقيلا على اقتصادها وفي ذات الوقت تعتبر مؤشراً على قوتها الاقتصادية كلها . وكانت تستخلص من المداخيل الصافية بعد تأدية كل المصاريف الحيوية، وكان ذلك لايزال في مستطاعهم ، وفي مقابل أداء الجزية كانت تقدم لهم الحماية وتحالفات يحاولون من خلالها ضمان مصالحهم بطرق مختلفة ، من بينها مهاجمة دول طائفية أخرى واحتلال بعض حصونها غير أن مقدار الجزية المفروض تزايد إلى أن وصل إلى حد يتجاوز مقدرتهم . ولم يكن أمامهم أي حل سوى تأديتها أمام التهديد الذي كانت تمارس عليهم الجيوش المسيحية المستعدة لاصابتهم بأضرار خطيرة في حالة رفض التأدية ، وقد تجاوز مبلغ الجزية المفروضة على دول الطوائف مداخيلهم مما أدى إلى تدهور اقتصادها إلى درجة لم يسبق مثيلها وأوصلهم إلى الإفلاس . فكم كان مبلغ الجزية المفروضة على دول الطوائف ؟ لقد كان يختلف باختلاف الظروف التي فرضت فيها ، ذلك أنه حين كان بعض ملوك الطوائف يتذمرون من العبء المالي الذي لم يعودوا يتحملونه، كان آخرون يزيدون فى عروضهم مقابل مساعدة عسكرية أو سياسية . وهكذا نجد وزير المعتمد بن عباد ، ابن عمار ، في مفاوضة مع الفونسو السادس يعده بـ : 50.000 مثقال

# الفصل الرابع

## التأريخ في الاندلس في عهد دول الطوائف

يعتبر التأريخ في الاندلس في القرن الهجري الخامس من المواضيع المشوقة والممتعة حقاً ويعود ذلك أساساً إلى كون التأريخ لم ينفصل عن التقاليد الاندلسية في الكتابة التاريخية حتى نهاية عهد دولة بني أمية وقد تميز بدرجة عظيمة من الاتقان خلال هذه الحقبة التاريخية إذ لم تعادله الكتابة التاريخية الاندلسية خلال القرون الاربعة التالية. وقبل أن نناقش التأريخ الاندلسي في القرن الخامس للهجرة يجب أن نشير إلى أن مصطلح التأريخ قد يبدو غامضاً لسبب أساسي وهو أن الكتابة التاريخية تتميز بأبعاد متعددة، فهي تشمل المادة

(المادة التاريخية المتوفرة في المصادر الاولية) والتي تختلف من موضوع لآخر . ثم هناك مسألة اختيار المؤرخ للمادة التي سينطلق منها لمعالجة موضوعه . ومن الجدير بالذكر أن هذه الاخيرة بامكانها أن تتأثر بعوامل ومقاييس متعددة ، وتضيف الى ذلك مساهمته الشخصية في فرض هذه المادة من خلال تفسيراته ومن خلال العلاقة بين ما ينتجه المؤرخ وما يبدعه ويعبر عنه . ويبدو التأريخ معقداً بوضوح لانه يختلف عندما يتعلق الامر بتواريخ مختلفة ، حيث يشمل ذلك عهوداً مختلفة من حيث الفترة الزمنية والحدود الجغرافية والمجتمعات المختلفة . ونتيجة لهذا يبقى السؤال ، ما هو التأريخ ، غامضاً الى درجة بعيدة ، الى حين يطبق على موضوع ملموس ، محدد من حيث الزمان والمكان .

سنحاول في هذا الفصل أن نقدم بعض العناصر الرئيسية للكتابة التاريخية في الاندلس في القرن الهجري الخامس نظراً لكونها شكلت مرحلة هامة في التطور العام للتأريخ الاندلسي الذي كان يشكل تقليداً غنياً ومتنوعاً، خصوصاً لدى بعض المفكرين الاندلسيين البارزين المعاصرين لعهد الطوائف ممن أنتجوا أعمالاً متميزة تشكل كتابة تاريخية ممتازة في نظر المؤرخين المعاصرين (1) . وهذا مما يتيح لنا إمكانية الحديث عن التقليد الاندلسي في مجال التأريخ في القرن الخامس للهجرة وعن المؤرخين البارزين الذين شكلوا جزءاً لا يتجزأ من هذا التقليد ، والذين ساهموا في إغنائه وتوجيهه توجيها جديداً وفي تطوره إذ كان له تأثير عميق في الكتابة التاريخية خلال القرون التي تلت القرن الهجري الخامس ، ليس في

الاندلس فحسب بل وخارج حدودها خصوصاً فـي المغرب الكبير والمشـرق (2) .

من البديهي أن أية دراسة تاريخية ذات أهمية لا بد لهـا أن تشمل دراسة مؤرخين جديين . إذاً ، ما هي قيمة الكتابة التاريخيـة في الاندلس في عهد دول الطوائف ؟ وما الفائدة من دراسة التأريخ خلال فترة تاريخية محددة ؟ من المتفق عليه لدى العلماء حديثاً أن التأريخ كان متطوراً جداً ولعل ذلك واضح في الاقتباسات الموجودة في الدراسات المتعددة حول مؤرخ أندلسي بارز ونعني به ابن حيان ولكن ما هي المقاييس التي يجب الاعتماد عليها للتفريق بيـن التأريخ الجيد والرديء ؟ وما هي العناصر التي جعلت مـن التأريخ الاندلسي تأريخاً منفرداً عن غيره ؟ ولماذا وجب التركيز على القرن الهجري الخامس وحده ؟ كيف يمكن لنا أن نقارن بيـن التأريخ في الاندلس عموماً وما هي أبرز خصائصه وأهمها ؟ كيف تأثر كل فرد من المؤرخين البارزين بالحركة العامة للكتابة التاريخية خلال هـذه الحقبة التاريخية ؟

هذه بعض الاسئلة المطروحة في هـذا الفصل وسوف نحاول الاجابة عنها جزئياً إن لم نتوقف فـي الاجابة عنها كلياً . إلا أن الهدف الحقيقي لهذا الفصل لا يكمن في معالجة الموضوع بكيفية نهائية بل نريد أساساً أن نثير اهتمام القراء به ونتعشه وأن نقترح المجـالات الممكن البحث فيها في إطار هذا الموضوع كما نرغب فـي تقديم أبرز جوانبه لمن يجهلها .

نريد قبل مناقشة طبيعة الكتابة التاريخية في الاندلس في القرن الخامس للهجرة أن نطرح السؤال التالي : ما هي العوامل التي مكنتها من تحقيق أهمية كبرى ؟ لقد ساهمت عوامل متعددة في تشجيع نمو هذه الظاهرة، إلا أن العوامل التالية تبرز أكثر من غيرها : الميراث الثقافي والفكري الاندلسي في القرن الهجري الخامس، والشخصيات الفكرية البارزة المعاصرة لتلك الحقبة التاريخية وحرية الفكر والتعبير ، ونزاهة العلماء المعاصرين لتلك الحقبة وطاقاتهم الابداعية وتطور التاريخ بصفته مجالا معرفيا متخصصاً .

## 1) الميراث الثقافي والفكري الاندلسي :

بلغ تطور مختلف فروع المعرفة في الاندلس بما فيها التاريخ أوجه في القرن الخامس الهجري بفضل التقليد الثقافي والفكري الاندلسي الموروث عن القرون الثلاثة السابقة ، وعن القرن الرابع للهجرة على وجه الخصوص، وإننا نتوفر على دراسات متعددة حول تلك الحصيلة الثقافية والفكرية الاندلسية خلال عهد دولة بني أمية (وكان الحكم الثاني وهو آخر خليفة أموي فعلي قد اشتهر بعلمه وبمكتبته الفريدة والزاهرة) (8) وتعود هذه الحصيلة الثقافية والفكرية في حد بعيد الى تأثير المشرق في جل المجالات المعرفية . ولقد

البارزين أمثال أبي الطيب المتنبي (5) لقد تأثر ابن حيان بالمؤرخين الاندلسيين الذين سبقوه تأثيراً عميقاً (6) لكن تاريخه للاندلس في عهد دول الطوائف وهو عصره والمعروف بكتاب «المتين» يعتبر عملا تاريخياً أصيلا (7) كما تأثرت شخصية الجغرافي أبي عبيد البكري بالرحالة القادمين من المشرق ولو أنه زار مختلف الامصار في الاندلس والمغرب ووصفها فإن وصفه الفريد للجزيرة العربية يبقى مبنياً على الروايات التي سمعها فى الاندلس (8) وإن حصوله على هذه المعلومات من المشرق بطريقة غير مباشرة لا تنقص من القيمة الثقافية التي تتميز بها كتابات هذا الجغرافي الاندلسي البارز. وبامكاننا أن نذكر المزيد من الأمثلة من هذا النوع في مجالات معرفية متنوعة (9) .

ومع هذا ، علينا ان نؤكد في هذا المجال - أن الميراث الاندلسي فى القرن الهجري الخامس أنتج حركة ثقافية وفكرية أندلسية خلال تلك الحقبة . ومن هنا يأتي انتماء المفكرين الاندلسيين العظام في القرن الخامس الى حركة شمولية كان وعيهم بها تاما (10) . ويعكس هذا مثلا فيما سماه بعض العلماء المشارقة بالتعصب الاندلسي، ولكن الافتخار بانتماء شخص الى تقليد ثقافي أمر مشروع . كان الاندلسيون في القرن الخامس للهجرة يفتخرون بتراثهم الثقافي والحضاري ولقد عبروا عنه بحرية مطلقة ويعكس هذا الافتخار والوعي الجماعي بوضوح في الرسائل حول محاسن أهل الاندلس ومن أبرزها رسالة الشقندي ورسالة ابن حزم (384 - 456 هـ . -

ركز الباحثون الذين درسوا هذا التأثير على أهمية هذه الظاهرة بشدة.

ولربما لم يصل تطور المعرفة فى الاندلس إلى قمته إلا في القرن الخامس للهجرة ويعود ذلك أساسا إلى كون المعرفة أصبحت تتميز بطابع أصيـل يرتبط بهـا ارتباطاً جذرياً .

وبعبـارة أخـري، أصبحـت المعرفـة في الانـدلـس فـي القرن الخامس للهجرة معرفة أندلسية بالدرجة الاولى وتتضح أهمية هذا التحول الجذري أو هذه الثورة الثقافية في شتى مجالات المعرفة وهذا لا يعني أن العلماء الاندلسيين انفصلوا عن جذورهم بانحرافهم عن اتجاه أسلافهم في الاندلس وفي المشرق. بل لقد أخصبوا هـذا التقليد الثقافي والفكري لينتجوا عطاء جديداً وأصيلا وأندلسياً بكل ما في الكلمة من دلالة. مثلا، يعتبر معجم تراجم طبقات علماء وفقهاء القرن الخامس الهجري الذي صنفه ابن بشكوال امتداداً لدراسة ابن الفرضي حول العلماء الاندلسيين إلى نهاية القرن الرابع للهجرة(4) وخلافاً لكتاب «العقد» لابن عبد ربه الذي يشكل جمعاً لمختارات شعرية مشرقية (باستثناء شعره)، جمع ابـن بسام في كتابه الضخم «الذخيرة فـي محاسن أهل الجزيرة» أشعار الاندلسيين المعاصرين للقرن الخامس الهجري ونشرهم في ثمانية أجزاء، وكان الهدف الاساسي من أنجازه هذا العمل أن يضع نهاية للموقف الذي كان سائداً قبل ذلك والقائل بتبعية الاندلس الثقافية للمشرق العربي خاصة في ميدان الشعر. ولقد عبر ابن بسام عن نيته هذه صراحة في مقدمته، إلا أنه قارن بين أبيات الاندلسيين وأبيات الشعراء العرب

البارزين أمثال أبي الطيب المتنبي (5) لقد تأثر ابن حيان بالمؤرخين الاندلسيين الذين سبقوه تأثيراً عميقاً (6) لكن تاريخه للاندلس في عهد دول الطوائف وهو عصره والمعروف بكتاب «المتين» يعتبر عملا تاريخياً أصيلا (7) كما تأثرت شخصية الجغرافي أبي عبيد البكري بالرحالة القادمين من المشرق ولو أنه زار مختلف الامصار في الاندلس والمغرب ووصفها فإن وصفه الفريد للجزيرة العربية يبقى مبنياً على الروايات التي سمعها في الاندلس (8) وإن حصوله على هذه المعلومات من المشرق بطريقة غير مباشرة لا تنقص من القيمة الثقافية التي تتميز بها كتابات هذا الجغرافي الاندلسي البارز. وبامكاننا أن نذكر المزيد من الأمثلة من هذا النوع في مجالات معرفية متنوعة (9) .

ومع هذا ، علينا ان نؤكد في هذا المجال - أن الميراث الاندلسي في القرن الهجري الخامس أنتج حركة ثقافية وفكرية أندلسية خلال تلك الحقبة . ومن هنا يأتي انتماء المفكرين الاندلسيين العظام في القرن الخامس الى حركة شمولية كان وعيهم بها تاما (10) . ويعكس هذا مثلا فيما سماه بعض العلماء المشارقة بالتعصب الاندلسي، ولكن الافتخار بانتماء شخص الى تقليد ثقافي أمر مشروع . كان الاندلسيون في القرن الخامس للهجرة يفتخرون بتراثهم الثقافي والحضاري ولقد عبروا عنه بحرية مطلقة ويعكس هذا الافتخار والوعي الجماعي بوضوح في الرسائل حول محاسن أهل الاندلس ومن أبرزها رسالة الشقندي ورسالة ابن حزم (384 - 456 هـ . -

البارزين أمثال أبي الطيب المتنبي (5) لقد تأثر ابن حيان بالمؤرخين الاندلسيين الذين سبقوه تأثيراً عميقاً (6) لكن تاريخه للاندلس في عهد دول الطوائف وهو عصره والمعروف بكتاب «المتين» يعتبر عملا تاريخياً أصيلا (7) كما تأثرت شخصية الجغرافي أبي عبيد البكري بالرحالة القادمين من المشرق ولو أنه زار مختلف الامصار في الاندلس والمغرب ووصفها فإن وصفه الفريد للجزيرة العربية يبقى مبنياً على الروايات التي سمعها في الاندلس (8) وإن حصوله على هذه المعلومات من المشرق بطريقة غير مباشرة لا تنقص من القيمة الثقافية التي تتميز بها كتابات هذا الجغرافي الاندلسي البارز. وبامكاننا أن نذكر المزيد من الأمثلة من هذا النوع في مجالات معرفية متنوعة (9).

ومع هذا، علينا ان نؤكد في هذا المجال - أن الميراث الاندلسي في القرن الهجري الخامس أنتج حركة ثقافية وفكرية أندلسية خلال تلك الحقبة. ومن هنا يأتي انتماء المفكرين الاندلسيين العظام في القرن الخامس الى حركة شمولية كان وعيهم بها تاما (10). ويعكس هذا مثلا فيما سماه بعض العلماء المشارقة بالتعصب الاندلسي، ولكن الافتخار بانتماء شخص الى تقليد ثقافي أمر مشروع. كان الاندلسيون في القرن الخامس للهجرة يفتخرون بتراثهم الثقافي والحضاري ولقد عبروا عنه بحرية مطلقة ويعكس هذا الافتخار والوعي الجماعي بوضوح في الرسائل حول محاسن أهل الاندلس ومن أبرزها رسالة الشقندي ورسالة ابن حزم (384 - 456 هـ . ـ

994 ـ 1064 م ، ) (11) . وهي تستحق تحليلا دقيقا ولكننا سوف نكتفي في إطار هذا الفصل بتقديم بعض الملاحظات .

كان وعي ابن حزم بهذه الحركة التي كان يشكل جزءا منها تاما . وكثيرا ما اعتبر وعي الاندلسيين بانتمائهم الثقافي نوعا من التعصب الأعمى والشعور ببغض الاجانب .

ومع ذلك ، فإننا لا نستغرب من افتخار الاندلسيين بانجازاتهم الثقافية والفكرية والحضارية ونرى في ذلك سلوكا عاديا ، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار تفوقهم على المشارقة في مجالات متعددة ثم تفوقهم المؤكد على المغاربة في جل فروع المعرفة السائدة خلال القرون الوسطى في المغرب والاندلس وباستثناء الثقافة الشعبية الشفوية ، لم توجد في المغرب حسب المقاييس الاندلسية ثقافة قبل القرن الهجري الخامس . وليس سهلا علي بصفتي مغربيا أن أصرح بهذه الحقيقة ولكن يمكن لنا أن نقدم نفس الملاحظة إذا قارنا بين الاندلس والممالك المسيحية في شمال إسبانيا خلال هذه الحقبة ولقد اعترف المؤرخون الاسبان حديثا بحقيقة هذا التفوق ومنهم رامون مننديث بيدال .

## 2) الشخصيات الثقافية البارزة في القرن الهجري الخامس :

ازدهرت الحركة الثقافية العامـة في القرن الخامس ازدهارا عظيما ويبدو ذلك واضحا في عدد من المجالات التي ظهرت (سواء الدينيـة أو العلمية منها ) مع أنها كانت كثيرة التداخل فـي الاندلس نظرا للشمولية التي تطبع الاسلام الذي يعرض للحياة فى أبعادها الروحية والدنيوية ويضم بالتالي العلم بجميع أبعاده مـن جهة كما يظهر ذلك في العدد الكبير من التآليف التي انتجت خلال تلـك الحقبة (12) . ولئن اشتهرت بعض المدن والمناطـق بطاقتها الانتاجية ، خصوصا قرطبة ، فقد شملت هذه الحركة جل أطراف الاندلس (13) . ونتيجة لتعميم التعليم وانتشار المعرفة في الاندلس في القرن الخامس للهجرة ، أصبحت هذه الحركة تتصف ببعد كمي ينعكس في الانتاج الثقافي والفكري الضخم الذي تميزت بـه هذه الحقبة وببعـد كيفي ينعكس في الشخصيات الثقافية البـارزة المعاصرة التي ارتفعت الى مستوى عالمي فـي ميادين متعددة بما فيها التاريخ (14) . فعلى سبيـل المثال ، إن أبـرز الشعراء والفقهـاء والمؤرخيـن وغيرهـم مـن المفكرين الاندلسيين ظهروا في القرن الخامس بالذات . وإن كان هؤلاء المثقفون البارزون من انتاج بيئتهم فإنهم اغنو بدورهم الحركة الثقافية العامة في الاندلس وساهموا في المزيد من تقدم المعرفة فـي الاندلس فيما بعد . كما كان لهم تأثير في انتشار المعرفة

والفكر خارج الاندلس، وفي المغرب، وفي أنحاء أخرى من العالم الاسلامي من جهة ، وفي أوربا من جهة أخرى .

وإن كان من الواضح أن للميراث الثقافي والحركة العامة في الاندلس دوراً هاماً في انتاج الشخصيات الثقافية البارزة في القرن الهجري الخامس، فإن أهمية مساهمة هذه الشخصيات العظيمة للحركة أمر بديهي . ومن الاهمية بمكان أن نطرح السؤال التالي: هل أبرزت الحركة الثقافية والفكرية العامة في الاندلس المفكرين الاندلسيين البارزين في القرن الهجري الخامس ، أم أنتج هؤلاء هذه الحركة ؟ لا يمكننا ان ننكر أن ابن حزم وابن بشكوال وابن زيدون وأبا الوليد الباجي وابن عبد البر والبكري وابن بسام وعشرات من الاسماء الاندلسية اللامعة من نتاج الحركة الثقافية والفكرية العامة في الاندلس خلال القرن الخامس للهجرة بحيث إنهم كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ منها ولا يمكننا أن نتصور احتمال إنجازاتهم الفكرية لولا وجود هذه الحركة .

ومن جهة أخرى ، يمكننا أن نتساءل ، لماذا لم يكن ابن عبد البر مؤرخا فى مستوى ابن حيان أو لماذا أنتج ابن حزم وليس ابن بشكوال أول كتاب في مقارنة الاديان من نوعه في التاريخ البشري ؟ بعبارة أخرى ، لا ينقص تأثير الحركة الشمولية والبيئة الاجتماعية من قيمة المساهمة الشخصية لعلماء القرن الخامس الهجري ومفكريه بحيث اعترف بعبقريتهم كل من اهتم بفكرهم وتعمق فى دراستهم وفي فهمهم (15) . وتجدر الاشارة الى أنه بالرغم من فهمنا

لمساهمة الاندلس في القرن الهجري الخامس على المستوى الثقافي، فإن المجال ما يزال مفتوحا في هذا المضمار. ومن أكثر الاسباب أهمية لحدود معرفتنا هذه الحقيقية التي تتجلى في كون المصادر الاولية لدراسة القرن الخامس للهجرة لم تستغل بفعالية لحد الآن، زيادة على ان المصادر التي وصلتنا لا تشكل إلا جزء ضئيلا مما أنجز فعلا. وسوف نكتفي بذكر بعض الامثلة لابراز هذه الحقائق. ففي مجال التاريخ، لم تصلنا إلا نصوص محدودة من كتاب «المتين» لابن حيان منقولة في مصادر أخرى (مثل «البيان المغرب...» لابن عذاري و «ذخيرة» ابن بسام) كما أن المؤرخين يشكون فيما إذا كان عمل «البطشة الكبرى» لابن حيان حول الصراعات والنزاعات التي نخرت عظم قرطبة في القرن الهجري الخامس الى حين احتلالها من طرف المعتمد بن عباد والذي ذكره بعض المؤرخين القدماء يشكل كتابا تاريخيا مستقلا أو كان يشكل جزءا من النسخة الاصلية الضائعة لكتاب «المتين» (16).

وفي إطار العلوم الدينية، لا نتوفر حاليا على عدد يذكر من الكتب التي أنجزها العلماء في القرن الخامس والتي ذكرها ابن بشكوال في «كتاب الصلة»، إلا أن الطاقة الانتاجية الضخمة لهذه الشريحة المجموعة شكلت موضوع دراسة انجزها الاستاذ أورفوا دومينك وتشير نتائج تحاليله الكيفية بوضوح الى عمق كبير من حيث الكم (17).

إن الامثلة التي يمكن ذكرهـا متعددة ولكننا سوف نكتفـي هنا بالاشارة الى أسباب النقص في تصورنا الحالي للحركة الثقافية العامة في الأندلس في القرن الهجري الخامس، فعلاوة على ما نعرفه عن الشخصـيات الثقافية الاندلسية البـارزة كانت هناك دون شـك شخصيات أخرى لا نعرف عنها إلا القليل أو لا نعرف عنها شيئاً (18) ومع ذلـك ، فبالرغم مـن إدراكنا بمـا نجهله عن هذه الحركة وشخصياتها البارزة ، فإن ما نعرفه فعلا عنها لا يستهان بـه كما أن ما يمكننا أن نعرفه من خلال المصادر الاولية المنشورة لا يقل أهمية.

كانت الحركة الثقافية والفكرية العامة في الاندلس خلال القرن الخامس الهجري تشكل الارضية والقوة المحركة والمنعشة لكـل شخصية ثقافية هامـة . وقد برزت هذه الحركة العامـة بخصائصها المختلفة التي أبرزها الملامح التالية :

أ ) تميزت بالشمولية بحيث كانت تضم مجالات مختلفـة من العلوم الدينية والاجتماعية والطبيعة والتجريبية تظهر فى تداخل المعرفة ضمن هذه الحركة بوضوح في الارتباط المباشر للفروع المعرفية المختلفة .

ب ) يظهر الطابع العام والشعبي لهذه الحركـة في تنـوع الانتماء الاجتماعي لاعضائها . مثلا ، تعود أصول أعضائها الاجتماعية الى شرائح مختلفة تنتمي إلى الاريـاف وإلى المناطق الحضريـة على السواء (بما في ذلك جل المدن الاندلسية وعدد كبير من

قراها) ويجب أن نضع هذه الظاهرة في إطار الحركية الاجتماعية التصاعدية والتنازلية ، وفي الحركية الاجتماعية العمودية التي كان يتميز بها المجتمع الاندلسي . فعلى سبيل المثال ، يظهر التوزيع الجغرافي للعلماء الاندلسيين في الاسماء التي كانوا يحملونها مثل القرطبي (من قرطبة ) والاشبيلي (من إشبيلية) والباجي (من باجة) والداني (من دانية ) .

ج ) برز تطور النقد الفكري والسياسي والتاريخي والجدال الديني والمذهبي داخل هذه الحركة بوضوح . ومن بين الامثلة التي يمكن ذكرها انتقادات ابن حزم الصارمة لغيره والانتقادات الموجهة ضده ( مثلا ، انتقاد ما ألفه في المنطق ) (19) ، والجدال بين الاديان (مثلا ، بين الاسلام واليهودية كما يعكس في جدال ابن حزم وابن النغرالة أو في المناظرة بينه وبين أبي الوليد الباجي التي تعكس الصراع بين المذهب الظاهري والمذهب المالكي في الاندلس) وينعكس النقد السياسي في المواقف المختلفة التي اتخذها ابن حزم نجاه ملوك الطوائف . واكتسى النقد التاريخي أهميته خلال هذه الحقبة ويعكس ذلك مثلا في الانتقادات العنيفة التي قدمها ابن حيان .

د ) يتجلى الطابع الشمولي أو « الدولي » في المساهمة العالمية لمفكريها . مثلا ، يمكن لنا أن نذكر أعمالا مثل «الفصل في الملل والنحل » لابن حزم و « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ضمن هذا الصنف .

هـ) يظهر دور هذه الحركة بصفتها إطارا عاما ومؤسسة قائمة في وعي المثقفين الجماعي بالانتماء إليها، وينعكس ذلك في كون الاندلسيين كانوا يخاطبون بعضهم في تآليفهم الامر الذي يشير إلى ارتباطهم واتصال بعضهم بالبعض الآخر، إلا أنهم كانوا يخاطبون العلماء المشارقة في نفس الوقت، الأمر الذي يشير الى اتصالاتهم « بالخارج ». ويبدوا هذا الوعي واضحا مثلا، في الرسائل في محاسن أهل الاندلس مثل تلك التي وضعها ابن حزم.

و) لقد أدى المستوى الثقافي لعدد من ملوك الطوائف في الاندلس ومكانة الثقافة في السياسة الى إنعاش هذه الحركة، لان ملوك الطوائف كثيرا ما كانوا يشجعون المثقفين الاندلسيين البارزين ماديا ومعنويا.

ويجب أن نضع ذلك في الاطار السياسي العام حيث كانت السياسة أحيانا تعتمد على الآداب والثقافة بصفتهما وسيلتين للدعاية والاشهار، مثلما كان الدين يستغل لاهداف سياسية.

ز) وأخيرا، من المهم أن نلاحظ أن الانشطة الثقافية والفكرية الرائعة في الاندلس في القرن الهجري الخامس تناقضت مع الوضعية السياسية والاقتصادية المأساوية التي ازدهرت فيها بل قد يشعر المرء بإغراء ليتساءل هل ساهمت التقلبات الاقتصادية والسياسة المثيرة التي تميز بها عصر دول الطوائف بوصفها قوة محركة ايجابية في إنعاش الحركة الثقافية والفكرية الاندلسية.

### 3) حرية التفكير والتعبير والانصاف الثقافي والابداع :

من الاسباب الاساسية التي تكمن وراء الانفتاح الثقافي الأصيل الذي ظهر في الاندلس في القرن الخامس للهجرة بالرغم من النمو الاقتصادي السلبي والاضطرابات السياسية التي تميز بها ذلك العصر، يمكن ذكر الدوافع التالية: حرية الفكر والتعبير، والاستقامة الثقافية والابداع. وكان التاريخ من بين العلوم الاجتماعية التي استفادت من هذا « الانفجار » الثقافي. ومن الغريب أن نلاحظ أنه وجد أوضاعا مناسبة بالرغم من بعض مواقف ملوك الطوائف. ورغم الحالة المزرية للاوضاع السياسية والاقتصادية خلال تلك الحقبة، بلغ الاتجاه الثقافي والفكري الذي تطور في عهد بني أمية الى أرقى مرحلة نضجه خلال عصر دول الطوائف حينما وصل عدد من المجالات المعرفية (بما فيها العلوم الدينية وغيرها) درجة فريدة من الاصالة والابداع في الاندلس.

إن وجود الابداع والاصالة غير ممكن دون حرية التعبير، فكيف يمكن لنا أن نتحدث عن حرية التعبير وعن حرية التفكير في إطار الدول الطائفية حيث كان سلوك معظم ملوك الطوائف يتصف بأبشع أشكال الطغيان ؟ دون أن نذكر أمثلة ملموسة مثل الاغتيالات المتعددة التي دبرها المعتضد بن عباد ومنها اغتياله لابيه إسماعيل ولبعض الشخصيات الثقافية البارزة مثل الفقيه الهوزني (20)، وسوف نكتفي بملاحظة انعدام الاستقرار عند ملوك الطوائف وقد

كانوا نتيجة لهذه الحالة مستعدين لتجاوز أقصى الحدود إذا أصبحت سلطتهم مهددة أو في حالة تقوية مواقفهم ونفوذهم باتخاذهم إجراءات معينة تهدف الى القضاء على المعارضة السياسية . ونظرا لكون سلطتهم كانت مهددة باستمرار ، فإنهم كانوا يعيشون في حالة نفسية جنونية كما كانت ردود فعلهم عنيفة لأدنى اثارة سريعة وتلقائية مثلا ، بالرغم من حساسيته الشعرية لم يتردد المعتمد بن عباد في ضرب أقرب الاصدقاء إليه وهو ابن عمار ضربة ذهبت بحياته وذلك بعد أن ثار ضد المعتمد بمورسية (21) .

هل كانت هناك حرية التعبير والتفكير في الاندلس في القرن الخامس للهجرة ؟ وأية حرية كانت ؟ إن حرية التفكير والتعبير تتطلب ثمنا . وقد كان هذا الاخير أحيانا مرتفعا جدا . وفي إطار أوضاع كان مصير الافراد يتقلب فيها بين عشية وضحاها ، وحيث كانت الجرائم السياسية منتشرة وحيث كان الدور السياسي للثقافة يكتسي أهمية بالغة ( مثلا ، يمكن ذكر الشعر ، خصوصا المدح ، كوسيلة للدعاية وتشجيع العلماء بهدف المحافظة على سمعة الحاكم لدى العامة . والهجاء بصفته سلاحا سياسياً قاتلا والانتقادات الموجهة الى الحكام والتطور العام في عصر دول الطوائف ) كان مصير المثقفين والعلماء مهدداً بتغيرات مثيرة نتيجة للتطورات السياسية . مثلا ، أحرقت كتب ابن حزم بإشبيلية . ليس لان المعتضد كان مهتما باهتمامات ابن حزم في مجالات مختلفة مثل الفقه والسياسة والفلسفة والدين أو الادب ولكن نظراً لخطورة النتائج السياسية التي

اتخذتها مواقف ابن حزم المتطرفة ضد الدول الطائفية عندما رفض شرعية أنظمتها السياسة. ولا شك أن بعض الانتقادات الشديدة التي وجهها ابن حيان الى بعض ملوك الطوائف أو إلى شخصيات معينة في كتابة « المتين » كان بامكانها أن تكلفه حياته الامر الذي يدفعنا الى طرح السؤال التالي : أكان بعيدا عن الدول الطائفية التي كان ينتقد أصحابها بشدة أم إنه احتفظ بكتبه خلال حياته لتعرف بعد وفاته . أم صحت الحالتان ؟

وبالرغم من هذه العراقيل المتعددة أصبحت حرية التعبير ممكنة ومما يؤكد ذلك كتابات المؤلفين المعاصرين في مجالات متعددة. ولعل ما يفسر ذلك تنوع النظم السياسية الذي كان يتصف به عصر دول الطوائف. فنظرا لوضعية ملوك الطوائف التي تميزت بالاصطدامات العسكرية والسياسة المستمرة بينهم استطاع المفكرون الاندلسيون أن يجدوا المأوى في بعض أنحاء الاندلس . وقد كان اضطهاد الشخص من طرف ملك طائفي معين يشكل أحسن توصية في أعين الملوك الآخرين الذين كان يحاربهم . ومن ثم كان ابن حزم مضطهداً في بعض الدول الطائفية مثل إشبيلية . ومكرماً في غيرها مثل ميورقة ، حيث شارك في مناظرته الشهيرة مع أبي الوليد الباجي (22) وأدى التنوع السياسي بالتالي الى تعدد الآراء والاتجاهات ويتضح هذا التنوع بصفة خاصة في مجال التاريخ ، خصوصا في مختلف أنواع الكتابات التاريخية التي وصلتنا من الاندلس في القرن الخامس للهجرة .

ومن جهة أخرى ، لم يتخذ جميع المثقفين الاندلسيين موقفا معارضا لملوك الطوائف قبل ظهور يوسف بن تاشفين على ساحة الاحداث ، كما لم يعان جميع العلماء من الاضطهاد على يد ملوك الطوائف . بل على العكس من ذلك ، كثيرا ما كانوا بحاجة سياسية ماسة إليهم مما دفعهم الى منافسة بعضهم لجلب أكثر عدد من العلماء والمثقفين الى بلاطاتهم . وتتجلى أهمية هذا الاتجاه فى كون بعض ملوك الطوائف البارزين كانوا من العلماء والشعراء المرموقين ومن بين هؤلاء يمكن ذكر المعتمد بن عباد الشاعر الاشبيلي وملكها وحاكم سرقسطة وحتى عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة الذي تشكل مذكراته تاريخا هاما لغرناطة فى عصر الطوائف.

ومن وجهة نظر العالم الاندلسي ، كان هذا الاخير في موقف يمكنه من اختيار الدولة الطائفية التي يستطيع أن يحصل فيها على أكثر درجة ممكنة من الحرية أو على أعلى دخل مالي ، وكان ذلك يختلف من عالم لآخر . ومع ذلك وجد بعض أنماط العلماء والمثقفين والادباء أنفسهم في مواقف متميزة بالمقارنة مع غيرهم . مثلا ، ربما كان الشعراء أكثر امتيازا في بلاطات ملوك الطوائف ، خصوصا أولئك الذين كانوا مولعين بالشعر مثل حكام إشبيلية وكذا أولئك الحكام الذين اعتمدوا الادب وسيلة لتحقيق أهداف سياسية .

ولا يجب أن نبالغ في دور ملوك الطوائف في إنعاش المعرفة . لقدجاء تطور معظم فكر العلماء خارج الدوائر الرسمية فى الدول الطائفية .

بعبارة أخرى ، عملوا بطريقة مستقلة . مثلا نلاحظ غياب الرسميين في بلاطات ملوك الطوائف وأن الكتابة التاريخية تطورت بكيفية مستقلة في الاندلس في القرن الخامس للهجرة . وربما كان أقرب نموذج للتاريخ الرسمي هو « كتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين حاكم غرناطة . إلا أن هذا الكتاب يتميز بدرجة معينة من التجرد والموضوعية نظرا لكونه كتب في المغرب عقب سقوط غرناطة في أيدي المرابطين . وعلاوة على ذلك ، لم يكتب بهدف تحقيق أغراض سياسية ملموسة فإن المؤلف أنجز عمله بعد إبعاده عن السلطة .

ومن جهة أخرى ، فإن وجود درجة كبيرة من النقد في الكتب التاريخية التي ألفها المعاصرون مثل ابن حيان وعبد الله ابن بلقين وابن حزم وغيرهم ، يعكس رغبة شديدة في التعبير عن الحقيقة كما رأوها . ويعكس كذلك الميل الى تكوين آراء مستقلة وكذا درجة عظيمة من الاستقامة الخلقية والثقافية التي كانت تميز العلماء والمؤرخين الاندلسيين البارزين في القرن الخامس للهجرة ، لربما استطاع عدد من المثقفين الاندلسيين أمثال ابن حيان وابن حزم والفقيه الهوزني أن يمارسوا حياة أفضل لولا تعبيرهم عن آرائهم وانتقادهم لغيرهم علانية (23) . إلا أن عدداً من العلماء الاندلسيين المعاصرين للقرن الخامس للهجرة اعتبروا راحتهم الشخصية أقل أهمية من حاجاتهم للتعبير عن شعورهم وآرائهم إزاء التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي عانت منه الاندلس

آنذاك ولاتخاذ موقف ضد الاتجاه العام الانتحاري الذي وقع فيه ملوك الطوائف لم يبق المثقفون الاندلسيون مكتوفي الايدي أمام الاخطار الوشيكة التي كانت تهدد الاندلس . ولقد شكلت هذه الاخيرة دفاعا هاما لرد فعلهم عندما حاولوا أن يفسروا الجوانب المختلفة للتغيرات والتقلبات العامة في عصرهم التي يصعب تفسيرها في أول وهلة . كما كانت ردود فعلهم شديدة أمام الفساد الذي عم جميع أنحاء الاندلس فعبروا عن آرائهم بحرية تامة حتى عندما هددت حياتهم لانتهاجهم الخلقي في ميدان الثقافة .

بعبارة أخرى ، كانوا ملتزمين بمبادئ صارمة إلتزاما تاما ورفضوا اتخاذ أي موقف يتنازلون من خلاله عن معتقداتهم . لهذا ، كانت الجهود الثقافية لعدد من المثقفين الاندلسيين ترمي إلى فهم ظواهر مختلفة وتحليلها بدلا من استغلال هذه الجهود لجمع الاموال وتكديسها مع أن هناك بعض الاستثناءات .

## 4 ) التاريخ بصفته مادة متخصصة :

لقد شكل التاريخ في الاندلس مادة تخصص ليس لأنه كان يشكل وسيلة للحصول على لقمة عيش ، ولكن لكون بعض العلماء الاندلسيين قضوا حياتهم في دراسة التاريخ وكتابته ليست وسيلة للتسلية بل بصفته فنا وعلما . إن السؤال الذي يطرح

بالحاح في هذا الصدد هو : عن أي نوع من التاريخ نتحدث وما هي المكانة التي حظي بها التاريخ في ذهن العالم أو المؤرخ الاندلسي في القرن الخامس للهجرة ؟ يجب على الباحث ألا يشوه نظرة المؤرخ الاندلسي المعاصر لعهد الطوائف إلى المشكل وإلا فما أدرك مكانة التاريخ في الاندلس خلال تلك الحقبة حق الادراك:
لقد كان أسمى هدف لدراسة التاريخ في الاندلس بكل وضوح دينيا بحيث كان يعتبر واجبا دينيا وجب القيام به في الدنيا مقابل أجر يجازى به المؤلف في الآخرة . وانفرد علماء القرن الخامس ومؤرخوه بإحدى الميزتين ، أولاهما تكوين ديني عميق (وهذه حالة العلماء والفقهاء إذ نجد أسماء بارزة مثل ابن حزم وابن بشكوال ) وثانيتهما تأثير ديني عميق ناتج عن البيئة الاجتماعية وعن طبيعة التعليم في الاندلس ( وينطبق مثلا على ابن بسام وهو ليس فقيها إنما نلمس أحيانا طابعا دينيا في أسلوبه من خلال المصطلحات اللغوية التي كان يلجأ إليها ) . وإن ملاحظتنا هذه لا تنفي وجود الاسباب المادية لاهتمام الاندلسيين بالتاريخ .

إذا كان الدافع الاعظم والاسمى للكتابة التاريخية فى الاندلس واجبا دينيا ومع ذلك لم تتحول الى مادة روحية ودينية . بل إن البعد الديني كان مكملا للتاريخ مع محافظته على طابعه الاساسي المادي . وعلينا أن نتذكر أن العلماء الاندلسيين المسلمين كانوا يعتبرون البعدين الروحي والمادي مكملين لبعضهما .

ومن جهة أخرى ، تجدر الاشارة إلى ملاحظة نعتبرها بالغة الاهمية والتي تكمن في كون الكتابة التاريخية التي ازدهرت في الاندلس في القرن الخامس للهجرة كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من المعرفة .

هناك علاقة معرفية بين التأريخ وبين مناهج العلوم الدينية والمادية خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنهما كانا يعتبران آنذاك جزءاً لا يتجزأ من المعرفة . ومن هنا تتبين خاصية تكامل المعرفة في إطار الدراسة العامة والخلفية الثقافية لدى العالم الاندلسي .

بعبارة أخرى ، كان اكتساب المعرفة مختلفا نظرا لكون العلماء كانوا يختارون مجالات معرفية مختلفة حسب ميولاتهم واهتماماتهم ، ولكنهم كانوا يعتبرون جميعا علماء . وهذا يعني أن تكامل المعرفة وتداخل فروعها قد مكن العلماء المهتمين بمجالات معينة من اغناء مستواهم الثقافي عن طريق تعرفهم على فروع معرفية تدخل ضمن تخصصهم . مثلا ، نلاحظ أن المؤرخ كان يستفيد استفادة كبيرة من تكوينه في النحو واللغة من جهة ومن مطالعته الواسعة في مجالات مختلفة من جهة أخرى . كما أن جميع المؤرخين الذين سوف نتطرق لمناهجهم التاريخية في هذا الفصل أبرزوا في الأدب علاوة على تخصصات أخرى .

لقد نوه كل من ابن الخطيب والغافقي بأسلوب عبد الله بن بلقين الادبي الذي يتميز بالبلاغة والوضوح (24) . وينفرد شعر ابن

حزم بالهجاء المقدع وبخصائص أدبية أخرى (25) ، وقد درس ابن حيان على يد أشهر النحويين في عصره بحيث انفرد بأسلوب أدبي متميز نال إعجاباً كبيراً في القرون الوسطى (26) ، وما يزال يجلب اهتمام المتخصصين العصريين في الادب العربي (27) . وقد تميزت ثقافة كل من ابن حزم وابن حيان بتضلعهما في العلوم الدينية كما حفظ عبد الله بن بلقين القرآن وعدداً من الاحاديث كما يظهر ذلك في الاقتباسات المتعددة في كتابه (28) . وكذلك شمل اهتمام المؤرخين الاندلسيين في عصر الطوائف مجالات لا تعتبر عادة ضمن المجالات التي لها ارتباط بالتاريخ ومن بينها الشعر والمنطق والتنجيم (29) .

إن تداخل المعرفة بفروعها المختلفة يدفعنا إلى طرح سؤال أساسي وهو : هل شكل تمازج الفروع المختلفة عرقلة أمام تطور التخصص في مجالات معينة ؟ هل تطور التاريخ بصفته مجالا مستقلا للتخصص أم كان من انتاج غير المتخصصين ؟ هل كان التأريخ من انتاج الدارسين عامة والمتخصصين في مجالات غير التاريخ أم كان من عمل مؤرخين متخصصين لماتزمين ؟ كيف ينعكس هذا في مناهجهم وفي تطوراتهم التاريخية ؟ توجد إرهاصات الجواب عن هذا السؤال ضمن الفرضية القائلية بأن وجود المتخصصين لا ينفي وجود (          ) لان كليهما مهتم بجوانب مختلفة لمعرفة واحدة . لهذا يمكننا أن نتحدث عن المؤرخين الاندلسيين المتخصصين وغير المتخصصين خلال القرن الخامس الهجري .

ومن ناحية أخرى، لا يعني وجود تداخل بين الفروع المعرفية المختلفة في الاندلس، أن التخصص لم يكن موجودا. إن مجرد استعمالنا لمصطلح فروع المعرفة يشير الى انقسام هذه الفروع الى مجالات مستقلة متخصصة. وعلى العكس من ذلك، تطور التخصص الى درجة كبيرة في الاندلس في عصر الطوائف وإن كان هذا واضحا بالنسبة للباحث العصري فإنه لم يكن أقل وضوحا بالنسبة للعلماء المعاصرين لتلك الحقبة والذين كانوا يعترفون بتخصص بعضهم في مجالات معينة دون استخدامهم لهذا المصطلح. ولم يعرقل ذلك تطور التاريخ بل ساهم طابع تداخل المعرفة في إغنائه بصفته مادة للتخصص كما أغنى مناهجه.

والان، فلنحاول أن نناقش مركز المؤرخين الاندلسيين المعاصرين لعهد الطوائف في إطار ثلاثة أصناف للكتابة التاريخية:

أ) إن المؤرخ الذي يدرس التاريخ بصفة شمولية، يعني في إطار شامل وعام بحيث لا يستطيع أن يقدم دراسة عميقة لانه يبقى سطحيا.

ب) المؤرخ المتخصص الذي يختار موضوعا محددا من حيث الزمان والمكان ثم يحاول أن يحلله على أساس منهج يتصف بتكامل المعرفة أو بتركيزه على مواضيع خاصة أو على الجوانب التي يعتبرها أكثر أهمية من غيرها.

ج) المؤرخ المتخصص الذي يحاول أن يتخذ منهاجا تركيبيا بحيث يختار موضوعا عاما وشموليا ثم يحاول أن يدرسه بعمق بالرغم

من تعقيده ومن اتصافه بالتكامل المعرفي وهو المهتم بموضوع يتطلب منه التخصص في مجالات متعددة في نفس الوقت .

أين نضع المؤرخين الاندلسيين المعاصرين للقرن الخامس للهجرة في إطار هذه التصنيفات ؟ يبدو أنهم ينتمون إلى الصنفين الثاني والثالث بسهولة ، ومن التآليف المتخصصة في مجالات معينة نذكر « المتين » لابن حيان بصفته دراسة تاريخية لعصر الطوائف إلى وفاة المؤلف سنة 469 هـ ـ 1076 م. وكتب السير والتراجم التي تعد نوعا من الكتب التاريخية التي لم تعط العناية الكافية بصفتها نوعا أندلسيا خاصاً (30) . أو الكتب الجغرافية التي يعد « المسالك والممالك » للبكري نموذجا لها (31) . وتجدر الاشارة مع ذلك الى أن هذين الصنفين لم يخصا التآليف التاريخية وحدها ، بل كانا يميزان فروعاً معرفية أخرى . إذاً ، ما هي خصائص التآليف التي ظهرت في القرن الخامس للهجرة ومميزاتها وما هي المقاييس التي يمكننا أن نتخذها قصد التمييز بين التآليف التي يجب اعتبارها تاريخية وبين تلك التي لا تنطبق عليها هذه الصفة .

يعتبر تصورنا للمؤلف التاريخي تصورا نسبيا، ذلك أن المؤرخين يختلفون في تطبيق مقاييس مختلفة في أحكامهم على التآليف التاريخية حسب الابعاد التي يقع اختيارهم على التركيز عليها . ثم هناك سؤال آخر يطرح في هذا المجال وهو أيجب علينا أن نخضع المؤرخين المعاصرين للقرون الوسطى للمقاييس والاحكام السائدة في وقتهم أم لمقاييسنا العصرية ؟ مثلا ، يبدو أن ابن حيان يعتبر

من المؤرخين القلائل الذين تنطبق عليهم المقاييس والمعايير المطلوبة من المؤرخين العصريين فيما يخص المناهج التاريخية . ومع ذلك فقد يسقط ابن حيان نفسه في الامتحان إن نحن قسونا عليه في امتحانه .

وهناك مسألة أخرى ذات أهمية بالغة وتخص نوعية الكتابة التي نعتبرها كتابة تاريخية وتلك التي يجب أن نخلع عنها تلك الصفة . إنه لمن الواضح والبديهي أن الكتابة التاريخية تعنى حتما بالماضي ، ولكن هل يجب علينا أن نقبل جميع الكتابات المرتبطة بالماضي أو كانت تشكل جزءا منه بصفتها كتابات تاريخية ؟ وقد يتضح هذا السؤال أكثر إن طرحنا سؤالا آخر : لمن يكتب المؤرخ؟ مثلا ، لا نواجه صعوبة في الجواب عن هذا السؤال بالنسبة لابن حيان لانه كتب تاريخ الاندلس لمعاصريه وللاجيال اللاحقة لعصره بهدف فهم ذلك التاريخ .

إلا أن هناك تآليف أخرى وضعت لاسباب مختلفة لا علاقة لها بالتاريخ بصفته مادة، بحيث قد نعتبرها كتابات تاريخية، وقد نرفض نعتها بذلك . مثلا ، تتميز التآليف الجغرافية بخصائص منفردة ، ولكن نظرا للعلاقة البارزة بين الجغرافية والتاريخ ، درس الاستاذ فرانثيسكو بونس بوجيس كلا من المؤرخين والجغرافيين الاندلسيين في كتاب واحد (32) .

وأخيرا ، يبدو أننا خرجنا من مناقشتنا لمكانة التأريخ في القرن الخامس للهجرة بتصور يتصف بالالتحام ليس بالنسبة للتاريخ

وحده بل وللعلوم الاخرى التي كانت توجد في الاندلس آنذاك . ومع هذا فإن كان هذا التطور فعلا ملتحما فذلك لا يعني غيابا تاما للنقاشات والصراعات . إن وجود عدد كبير من العناصر التي تناقض بعضها البعض يشير في حد ذاته الى حتمية الصراع الفكري والثقافي . وإن قمنا بدراسة للعلاقة الجدلية بين الاتجاهات المختلفة داخل مادة تخصص واحدة مثل التاريخ أو الفقه أو السياسة في الاندلس في القرن الخامس للهجرة فسوف نخرج بنتائج طريفة . ومع ذلك ، لم تصل درجة هذا الصراع قط الى مرحلة الانفجار التي تشل الابداع الثقافي . بل على العكس من ذلك إنه كان يطعمه . لا يمكن لاحد أن ينكر وجود الخلافات بين العلماء الاندلسيين أو بين هؤلاء . من جهة وبين المسيحيين واليهود في الاندلس من جهة ثانية . إلا أن التهديدات الخارجية وصلت الى درجة عظيمة من الخطورة فلم تتخذ الخلافات الداخلية صبغة الانفجار إلا قليلا أو نادرا . بدلا من ذلك ، كانت تحصرها وكان هدف عدد من الانشطة الثقافية الاندلسية مواجهة التيارات الفكرية الخارجية خصوصا تلك التي كانت تأتي من المشرق وذلك بهدف تكوين بديل أندلسي (33) . ويعتبر المستوى الرفيع الذي وصل إليه التأريخ الاندلسي إحدى الوسائل التي عبر بواسطتها الاندلسيون عن هويتهم وذاتيتهم وشخصيتهم .

هناك ارتباط وثيق بين السؤال الآتي: ما هو التأليف التاريخي؟ وبين سؤال آخر وهو ما هو التاريخ ؟ ليس هذا بالمكان المناسب

للجواب عن السؤال الاخير . أولا ، هناك عشرات من المفاهيم التي يمكن وضعها لتحديد طبيعة التاريخ وإذا قرر المرء الانطلاق من تحديد معين للتاريخ فقد يرفض اعتبار عدد من التآليف بصفتها تاريخية بالرغم من انطباق المفاهيم الاخرى لمصطلح التاريخ عليها لذلك تعتبر مسألة وضع تحديد معين للتاريخ نسبية، ليس لان المصطلح محدود (إلا إذا قرر المؤلف ذلك)، بل لانه شمولي ، وليس لانه يحتوي على عدة محدود من العناصر ، بل لان العناصر التي تشكل التاريخ متعددة ومتنوعة الى درجة كبيرة . قد نجانب تعقيد هذا السؤال إذا اعتبرنا جل المصادر التاريخية الاولية التي يعتمد عليها المؤرخون العصريون المتخصصون في القرون الوسطى تآليف تاريخية من نوع أو آخر. وفي حالة الاندلس ، نجد الحوليات التي تعد عادة ضمن التآليف التاريخية مع أن علماء الاجتماع والانتروبولوجيين وحتى الفلاسفة قد لا يعتبرونها أكثر من أوصاف لاحداث سياسية (34). ومع أننا نعتبر عادة كتب سير وطبقات العلماء والفقهاء ضمن المصادر الفقهية ، إلا أن قيمتها التاريخية ذات أهمية بالغة بحيث إنها تعكس مساهمة شريحة اجتماعية ثقافية ودينية خاصة . فمثلا ، رغم القيمة الفقهية والدينية لـ «كتاب الصلة» لابن بشكوال أو لـ «التكملة لكتاب الصلة» لابن الابار ، فإن هذين المصدرين يعتبران أساسيين لدراسة الدور الاجتماعي للفقهاء والعلماء الاندلسيين في القرن الخامس والسادس للهجرة (35). كما أن رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة تعتبر من أهم المصادر لتكوين تصور عن الحياة

الاجتماعيــة والاقتصادية بإشبيليــة (36) . واشتهر كتاب « طـوق الحمامة» ببعده الادبي والنفسي مع أن الحكايات التي رواها ابن حزم في هذا الكتاب كانت حقيقية فهـي تعكس أهـم جوانب الحيـاة الاجتماعية بقرطبة في القرن الخامس للهجرة بالتفصيل والتدقيق (37). كما يشتمل على الاشعار التي وصلتنا عبر كتب المجموعات الشعرية والادبية مثل « الذخيرة في محاسن أهـل الجزيرة » لابـن بسام و « مطمح الانفس » و « قلائد العقيان » لابن خاقان على أبيات شعرية يستطيع المؤرخون أن يقارنوا مضمونها بالمعلومات التاريخية الموجودة في مصادر أخرى وذلك قصـد تحديد مدى صحة الحقائـق التاريخية والمواقـف السياسية وسلوك الشخصيات والتطـورات التاريخية (38) . لقد وضع عبد الله بن بلقين في الاصل « كتاب التبيان» على شكل مذكراته إلا أنه يشكل وثيقة سياسية واجتماعية ونفسية فريدة لفهم الاندلس في القرن الخامس للهجرة (39) . لا نتوفر حاليا على تـآليـف يعود تاريخها الـى القرون الوسطـى في التاريـخ الاقتصـادي ، إلا أننا نتوفـر على مادة اقتصادية لا يستهان بها فـي المصادر الادبية والفقهية والسياسية التي وصلتنا من القرن الخامس للهجـرة . كما أنه بـا مكان المؤرخ العصري أن يحدد النتائـج والخلفيات الاقتصادية للتواريخ السياسية التي نتوفر عليها (40) بـل هناك من بين الباحثين العصرين من تخصص في التاريخ الاقتصادي للاندلس أو في تاريخ فروع معينة من العلوم مثل الرياضيـات (41) . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن مفهوم التاريخ في القرون الوسطى قد

ينطبق أولا ينطبق على الاندلس في القرن الخامس للهجرة فسوف تتضح نسبية هذا التاريخ بوضوح أكثر . هناك الاعتراض القائل بأن مصطلح القرون الوسطى لا ينطبق على العالم الاسلامي الذي كانت الاندلس تشكل جزءاً منه ثقافيا ولغويا وفكريا واجتماعيا إن لم نقل سياسيا واجتماعيا ، ثم هناك مسألة أخرى وهي أن ما كان يقبل بصفته معاصرا في القرن الخامس يعتبر اليوم تاريخيا . ونتيجة لذلك يمكن اعتبار جل ما ظهر في القرن الخامس كتبا ومصادر تاريخية ، لان المؤرخ المعاصر لن يستطيع أن يفهم التاريخ الاندلسي في القرن الخامس للهجرة ويدرسه بدون اعتماده على هذه المصادر.

إن طابع التنوع في الكتابة التاريخية في الاندلس في القرن الهجري الخامس يتطلب دراسة خاصة به لان السؤال: ما هي الكتابة التاريخية قد يصعب الجواب عنه . لقد حاولنا في الفصل الحالي التركيز على هذا التنوع . وسوف نحاول في القسم التالي أن ندرس مؤرخاً طرفياً وفريداً ونعرض لمنهجه التاريخي حتى نرى كيف استطاع - اعتمادا على منهاجه التاريخي - أن ينظر إلى الواقع التاريخي الاندلسي . أو بعبارة أدق ، كيف مكنه ذلك المنهج من النظر إليه على مستوى يختلف اختلافا تاما عن غيره، وذلك من خلال تركيزه على بعد مختلف للواقع التاريخي الذي كان يشكل جزءاً لا يتجزأ منه . قد يعترض القارئ على اعتبار عبد الله بن بلقين مؤرخا على أساس أن جل ما كتب كان متعلقا بعصره وليس تاريخيا وأنه لم يكن مستقلا عن المواضيع التي عالجها من حيث

الزمان . ولذلك فإنه لم يستفد من الحاجز الزمني الذي يفصل المؤرخ عن الحقبة التاريخية التي يتطرق لها عادة ، بعبارة أخرى، يمكن أن نطرح سؤالا هاما في هذا الصدد : ما هي الفترة الزمنية التي يجب أن تفصل المؤرخ عن الحقبة التي يدرسها ؟ هناك حجة مضادة يمكن تقديمها وهي القائلة بأن الشخصيات التاريخية المعاصرة تفهم عصورها بعمق ويعود ذلك بالذات إلى ارتباطها بها مباشرة ولكونها تشكل جزءا لا يتجزأ منها. وعلاوة على ذلك، يستطيع المؤرخ المعاصر في كثير من الاحيان أن يعبر عن نوع من الابتعاد والحياد على شرط أن يكون واعيا بانتمائه الى الواقع الذي يدرسه .

إننا لا نشك إطلاقا في كون عبد الله بن بلقين كان مؤرخا ، بل إنه كان علاوة على ذلك مؤرخا عظيما كما سنرى في القسم التالي :

## مثال عبد الله بن بلقين الزيري :

لقد عبر الباحثون العصريون عن إعجابهم بقيمة كتابة عبد الله ابن بلقين التاريخية من خلال كتابه الوحيد الذي يحمل عنوان « كتاب التبيان » . لقد وضع هذا الكتاب أصلا على شكل مذكرات ولكنه تحول الى تأليف تاريخي طريف . ومع أنه نال إعجاب بعض العلماء البارزين مثل لسان الدين بن الخطيب في القرن الثامن

الهجري إلا أننا نستطيع اليوم أن نقدر هذا التأليف التاريخي الفريد من نوعه ونتمعن فيه بفضل إفرست ليفي بروفنصال حين اكتشف المخطوط الوحيد الذي وصلنا من هذا الكتاب في مكتبة القرويين ثم حققه ونشره بالقاهرة سنة 1955م (42).

أنجز ليفي بروفنصال ترجمة ناقصة لهذا الكتاب بالفرنسية ما بين سنة 1935 و 1939 (43). ثم نقله الدكتور أمين توفيق الطيبي الى الانجليزية سنة 1971 (44). ثم تبعه الاستاذ غارسيا غومث الذي نقله الى الاسبانية بالاشتراك مع ليفي بروفنصال ونشره سنة 1980 (45). ولقد مكننا نشر هذا العمل التاريخي بالعربية وترجمته الى ثلاث لغات أوربية من اكتشافه كمصدر تاريخي بالدرجة الاولى ثم بصفته عملا تاريخيا يتميز بالدقة المنهجية. صحيح لقد تم استغلال هذا المصدر حديثا من طرف المؤرخين المهتمين بدولة غرناطة الطائفية التي حكمها بنو زيري ومنهم عبد الله بن بلقين مؤلف الكتاب الذي نناقش أهميته التاريخية (46). ولئن كان كل من الاساتذة أندرو هانلر ( Andreur Hanler ) والاستاذ إسماعيل العربي وأخرون مثل ليفي بروفنصال وغارسيا غومث وأمين توفيق الطيبي قد ركزوا على قيمته الوحيدة بصفته مصدراً تاريخيا لفهم عصر الطوائف، فإن منهجية عبد الله التاريخية لم تنل لحد الآن ما تستحقه من اهتمام الدارسين. وتعود أهمية هذا الكتاب بصفته مصدرا تاريخيا الى حد بعيد الى أصالة منهجية عبد الله التاريخية ونظرته الى تاريخ غرناطة. لقد تطرق بعض الباحثين الى بعض

جوانب هـذه المنهجية (47) . الا أن هناك جوانب أخرى مـا زالت تنتظر من يكشف عنها .

تعتبر منهجية عبد الله ثمرة لبعـض الاختيارات الاساسية التـي اتخذها والتي كان لها تأثير إيجابـي من ناحية . وسلبي من ناحية أخـرى .

لقد تعرض ابن بلقين في «كتاب التبيان» لتاريخ منطقة محددة تنحصر في حدود دولة غرناطة الطائفية وذلك خلال حقبة تاريخيـة محددة خلال حكم دولة معينة هي دولة بني زيري . يعني زاوي بن زيري (حكم من 403 ـ 410 هـ ـ 1013 ـ 1019 م) . وحبـوس بن ماكسان (حكم من 410 ـ 429 هـ ـ 1019 ـ 1038 م ) . وباديس بن حبوس (حكم من 429 ـ 465 هـ ـ 1038 ـ 1073 م ) . وعبد الله بن بلقين نفسه (حكم من 465 ـ 483 هـ ـ 1073 ـ 1090 م) (48) .

لقد استطاع المؤلـف بسبب اختياره الايجابي بحصر موضـوع دراسته في غرناطة خلال حقبة زمنية محددة أن يدرس مـادة كان يعرفها معرفة شخصية دقيقة وأن يسيطر عليها سيطرة تامة ويتعمـق فيها وذلك سواء عندما تطرق لأبعادها الشمولية أو لتفاصيلها الدقيقة.

إن التعمق الذي يتصف به هذا الكتاب يعود الي حد بعيد إلى كون تاريخ عبد اللـه لغرناطة يتطرق للأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إطار الاندلس العام . ونتيجة لذلك ، فقد تطرق عبد لعلاقاته ولاتصالاته مع الزعماء المعاصرين لتلك الحقبة ومنهم ألفونسو

السادس ملك ليون وقشتالة والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وأخيه تميم بن بلقين صاحب مالقة (49) . وقدم لنا عبد الله بن بلقين روايات عن الأحداث العامة مثل احتلال ألفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ . ـ 1085م . ومعركة الزلاقة في السنة التي تلتها والحصار الذي أقامه يوسف بن تاشفين والاندلسيون حول حصن لييط (Aledo) (50) .

ومع ذلك فإن اختيار عبد الله التركيز على تاريخ غرناطة كان له أثر سلبي بحيث إنه لم يعالج التاريخ الاندلسي عموما بالعمق الذي كان بإمكانه أن يفعل لو وسع موضوعه ليشمل تاريخ المناطق الاندلاسية الاخرى . وقد يأسف المؤرخ العصري لكون عبد الله لم يكتب تاريخ الاندلس كلها ، لاننا نلاحظ من خلال الطريقة التي كتب بها تاريخ غرناطة ومن خلال المادة الغنية والنفسية التي قدمها حول الاندلس عموما أنه كان بإمكان هذا المؤلف المؤهل أن يمتعنا بتاريخ فريد للاندلس . ونتيجة لذلك ، فإن أمين توفيق الطيبي انتقده لكونه تجاهل بعض الاحداث والتطورات العامة في التاريخ الاندلسي والمغربي مثل « . . . العداوة الضارية التي كانت سائدة بين برابر صنهاجة وزناتة . . . » (51) . و « . . . الغاء الخلافة الاموية في قرطبة (422 هـ . ـ 1031م . . . » (52) . و « . . . اغتيال إسماعيل بن عباد في المعركة مع باديس وحلفائه في Ecija في محرم 431 هـ . ـ سبتمبر ـ اكتوبر

1039 . . . » (53) و « . . . استيلاء المجوس على بربسترو وسقوط كومبرا في يد ؟ فرنادو الاول » (54) .

كما انتقد الدكتور الطيبي ابن بلقين على تزييفه لبعض الاحداث لتتلاءم مع مصالحه ومن هذه الانتقادات ما قدمه الطيبي في النص التالي :

« قيل إن هلالياً وهو أحد أبناء زاوي بقي في الوراء بعد اتجاه أبيه نحو إفريقية وذلك بهدف الاستيلاء على غرناطة والسيطرة عليها إلا أن مخططه فشل واستطاع حبوس أن يحتلها بمساندة أهل غرناطة . ومع ذلك فإن المؤلف (عبد الله) لا يقول شيئا عن ولد زاوي المذكور وذلك لسببين أولهما أنه لم يرد أن يثير شك القراء بشأن شريعة قرباء حبوس وخلفه المباشرين ومنهم عبد الله نفسه وثانيهما أنه لم يرغب في جلب الانظار إلى الخلافات بين أبناء زاوي وابن أخيه» (55) .

وهناك نقص آخر ذو أهمية كبرى في « كتاب التبيان » وهو الغياب التام للتواريخ . ومع ذلك إننا نستطيع أن نحدد تواريخ الاحداث الهامة مثل معركة الزلاقة اعتمادا على المصادر المعاصرة مع أن المصادر المتأخرة كثيرا ما تخطىء في تحديد التواريخ (56) .

وقد تطرق الطيبي لثغرة أخرى في « كتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين ونعني ميل المؤلف الى اتخاذ مواقف سلبية تجاه بعض

الناس عندما يخدم ذلك مصلحتـه الشخصية كما حصل عندما طـرد عبد الله مقاتل بن عطية البرزالي المعروف بالرويو (El Royo) مـن منصب العامل على ليوسنة بالرغم من الخدمات الجليلة التي قدمهـا له وبالرغم من مؤهلاته للقيام بواجبه في ذلك المنصب والتي اعترف بها ابن الخطيب (57).

ومن جهة أخرى. هناك أمثلـة متعددة تؤكد أن المعلومـات التي قدمها عبد الله كانت أحيانا صحيحة حيث أخطـأت المصادر المتأخرة. مثلا، تعتبر رواية عبد اللـه لمعركة الزلاقة أكثر دقـة وواقعية من عدد الروايات التي بالغ أصحابها فيها ويعود ذلك إلـى كون عبد الله بن بلقين كان من بين المشاركين في المعركة.

وأخيرا، نستطيع أن نضيف انتقادات أخرى الى تلـك التي ذكرنا آنفا وذلك من خلال ذكرنا لاهم التطورات التاريخية في الاندلس خلال القرن الخامس للهجرة التي لم يحدثنا عنها عبد الله، إلا أن أي انتقادات يمكننا أن نوجهها لعبد الله لا يمكنها أن تتصف بالموضوعية إلا إذا انتقدناه على ما قدمه فعلا وليس على مـا كان بودنا أن يقدمه لنـا.

وإذا قمنا بتمحيص متوازن لمـا أنتجه ولطريقته في الكتابـة التاريخية فسوف تكون النتيجة إيجابيـة. علاوة على ذلك، فـإن حصر اهتمام عبد الله بغرناطة يمنح المؤرخ العصري مصدراً لا غنـى عنه في إنجاز تاريخ شمولي للاندلس.

هناك من المؤرخين من تطرق للتاريخ الاندلسي بطريقة شمولية مثل ابن حيان . إلا أن عبد الله ليس الوحيد الذي ركـز مجهوده على منطقة محددة .

مثلا ، ركز ابن السيرفي (المتوفى في حوالي سنة 557 هـ . ـ 1162 م .) بعده على تاريخ غرناطة في إطار تاريخ الاندلس في عصر المرابطين (58) ويمكن ذكر مثال آخر لمؤرخ اختار التركيز على تاريخ منطقة محددة وهو أحمد بن عمر العذري ( المتوفى سنـة 478 هـ . ـ 1085 م . ) المعاصر للقرن الهجري الخامس الذي ألـف تاريخا للاندلس والمرية على وجه الخصوص (59) . لهذا فمن حسن حظنا أن عبد الله حصر مجهوده في منطقة جغرافية كان يعرفها حق المعرفة لانه درسها بطريقة تسلط الاضواء على غرناطة وسكانها من جهة وعلى الاندلس وسكانها بصفة عامة من جهة ثانية .

وتعود قيمة كتاب ابن بلقين بصفتـه «صدرا تاريخيا بالدرجـة الاولى إلى منهجه الذي يبرز أساسا لكونه يتميز بتكامل المعرفة فيه . بعبارة أخرى ، تعود القيمـة العظيمة للمعلومات التاريخيـة المرتبطة بهذا العصر التي قدمها لنا عبد الله الى تمكنه الخاص من من اختيار المعلومات التي يهتم بها المؤرخون العصريون ويعطونهـا الاولوية في إطار عام يضم مواد متعددة (مثل المادة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي نميز هذا الكتاب أكثر من غيرها) .

مثلا ، لقد ناقش الاسباب الاقتصادية لثورة ليوسنة المتمثلة فـي إثقال سكانها بالضرائب المفرطة (60) . وأعطانا فكرة واضحة عن

قيمة المال في الاندلس عندما ذكر المبالغ المالية التي فرضها ألفونسو السادس كجزية سنوية على ممالك الطوائف (61) ، والمبلغ المالي الـذي أداه القادر بن ذي النـون لالفونسو السادس مقابـل مساعدته لاسترجاع طليطلة (62) أو المبلغ المالي الذي أخذ منه بعد سقوط دولة غرناطة الطائفية في يـد الجيش المرابطي (63) . كما يبرز البعد السياسـي على مستويات مختلفـة مثلما حصل عندما قام بتحايل أطماع ألفونسو السادس التوسعية في الاندلس أو الاسبـاب التي دفعت بيوسف ابن تاشفين الى اتخاذ قرار احتلال دول الطوائف لصالحه (64) . ويعد هذا الكتاب أيضا تاريخا اجتماعيا غنيـا ، لان الشرائح الاجتماعية المختلفة في غرناطـة تبرز كمـا تبرز التقاليـد الاجتماعية التي كانت تختلف في شتى مناطق الاندلس وأنحائها (65). ولا يقل البعد الانساني والنفسي عن غيره، ليس فيما يخص الاندلسيين فحسب ، بل حتى المسيحيين في شمال إسبانيا والمغاربة في العدوة. ويبرز هذا البعد بشدة لانه قام بوصف سلوكهم في ظروف متعددة . كما قام بتقديم أسبـاب ذلك السلـوك وقد ركز على هـذا البعد بطريقة فريدة لانه ناقش سلوك الشرائح المختلفة من جهة وسلوك الافراد،من الملوك والوزراء والعمال الى العلماء والثوار من جهة أخـرى (66) .

ومما يثير إعجاب القارئ قدرة المؤلف على اختيار المادة العامة مع تركه للمعلومـات السطحية التي تطبع بعض الكتب التاريخية الضعيفة ، كما استطاع المؤلف أن يجانب التكرار وذلك

نظرا لميله الى الاختصار والدقة. مثلا، يحتوي «كتاب التبيان» على مادة وافرة حول غرناطة والاندلس في القرن الخامس الهجري لا نجدها في غيرها من المصادر. وعندما تختلف هذه المادة في محتواها مع تلك الموجودة في مصادر أخرى فيما يخص عصر الطوائف تكون الاولى هي الصحيحة في غالب الاحيان (67). يمكن لنا أن نذكر أمثلة متعددة لذلك، ولكننا سوف نكتفي بالاشارة إلى أن الدكتور الطيبي قد أرفق ترجمته «للتبيان» الى الانجليزية بجزء ثان يحتوي على هوامش وملاحظات دقيقة ومفصلة يشرح فيها مضمون الكتاب ويتوسع في تحليله ومناقشته (68).

ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ أن كتاب عبد الله هذا يكتسي أهمية كبرى خصوصا في القسم الذي تطرق فيه للحقبة التي حكم خلالها ليس فقط لكون هذا القسم يستغرق ثلثي الكتاب بينما يقتصر القسم الذي تطرق فيه لحكم كل من زاوي وحبوس ومكسان على الثلث الاول من الكتاب، بل إن القسم الذي عالج فيه فترة حكمه يتميز بشعوره بالالفة والمعرفة العميقة لما تطرق له وذلك لاسباب لا تحتاج الى الشرح ويعود تفوقه في هذا القسم أيضا الى أن التقنيات والمناهج التي اعتمدها عندما تعرض لعصره اكثر تطورا من تلك التي استعملها عند معالجته لتاريخ أجداده (69).

وأخيرا، أضاف أسلوب عبد الله بن بلقين والطريقة التي كتب بها تاريخه قيمة للمادة التي قدمها، لا لكونه لم يحصر مجهوده في إنجاز تاريخ وصفي يطغى عليه سرد الاحداث، بل لانه يحلل

المشاكل والاحوال المختلفة بحيث يطرح أحيانا أسئلة مشابهة لتلك التي يطرحها المؤرخون العصريون بل إنه يقترح أجوبة ممكنة ويحلل التطورات التاريخية في إطارها العام ، إما داخل الاطار الاجتماعي العام للمجتمع الاندلسي عندما يتعامل مع المشاكل الانسانية والاجتماعية ، وإما داخل إطار الاتجاهات الدولية العامة عندما يتعامل مع صراعات غرناطة الداخلية واصطداماتها مع دول طائفية أخرى مثل إشبيلية من جهة ، وعلاقات الدول الطائفية جملة مع الممالك المسيحية فى إسبانيا الشمالية والمغرب إثر ظهور المرابطين على «الساحة الدولية» من جهة أخرى. وبعبارة أخرى، كان موفقا أكثر عندما حلل الجزئيات بعمق دون أن يفصل هذه الاجزاء عن إطارها العام على المستوى الاجتماعي والسياسي والعسكري والاقتصادي .

وفي النهاية ، يبرز تاريخ عبد الله لكونه شكل تاريخا داخليا لغرناطة لانه درس موضوعا وحقبة تاريخية عايشها وساهم في صنعها، إلا أنه من المهم أيضا أن نؤكد أنه كتب عن هذه الحقبة بأسلوب « خارجي » ، بمعنى أنه كتب هذا التاريخ بعد أن أصبح جزءا من الماضي ، بعيدا عن غرناطة والاندلس بعد نفيه الى أغمات قرب مراكش . ونتيجة لذلك ، اذا كان عبد الله قد استطاع ان يستفيد من تجربته بصفته مشاركا مباشرا في التاريخ الذي كتب عنه . فإنه استطاع كذلك أن يكتب بدرجة معينة من التجرد اعتبارا لكونه تاريخ دولة غرناطة الطائفية وتاريخ الدول الطائفية الاخرى

كان قد وصل إلى قمة تطورها ونظرا لكونه استطاع أن يستفيد من التجرد بالرغم من اقترابه الزمني من الفترة التي كتب عنها في الوقت الذي ألف فيه تاريخه بحيث كانت الحقبة التاريخية التي كتب عنها تشكل حاضره في ماض قريب له .

لقد وضع الاستاذ غارسيا غوميث عنوانا جديدا لترجمته الاسبانية «كتاب التبيان» وهو «القرن الحادي عشر في ضمير المتكلم . . » ويعكس العنوان الذي وقع اختيار الاستاذ غوميث عليه بكل وضوح الروح التلقائية العميقة التي تميز هذا الكتاب . يبرز البعد الشخصي بل الذاتي لهذا الكتاب على مستويات متعددة .

يتجلى المستوى الاول في سرد المؤلف للاحداث وفي وصفه للتطورات التي كان حاضرا فيها أو عايشها والتي يعد بعضها من أهم الاحداث في التاريخ الاندلسي ومنها معركة الزلاقة واحتلال يوسف بن تاشفين لغرناطة وبعض الدول الطائفية الاخرى مثل إشبيلية وألمرية وبطليوس (70) .

وينعكس المستوى الثاني للبعد الشخصي في كتابة عبد الله التاريخية بوضوح في الاقتباسات المباشرة التي نقلها في كتابه . لم يكتف المؤلف بنقل اقتباساته الشخصية عندما كتب : « فقلت : (لمبعوث ألفونسو) . . . » (71) و « فقلت له : ( لتميم بن بلقين حاكم مالقة ) . . . » (72) .

بل نقل اقتباسات غيره عندما قال مثلا: «وقال لي رسوله . . » (73) أو « وقال لي ابن القليعي : . . . » (74) ، كما أن عبد الله بن

بلقين كان أحيانا ينقل اقتباسات مباشرة وغير مباشرة في شكل حوار كما هو الحال في قوله : « فقال له ابن أرقم : (. . ) فقال له اليهودي : ( . . . ) فقال ابن أرقم . . . » (75) . وعندما تطرق عبد الله بن بلقين للمفاوضات التي أجراها مع مبعوث ألفونسو السادس، قدم لنا النقاش الذي دار بينهما كما لو كان كاتبا عصريا يسجل ما يجري في اجتماع رسمي ، بحيث نقل اقتباساً مباشراً داخل اقتباس مباشر آخر عندما قال :

« وقال لي عند ذلك رسوله : (إن كنت تريد تخلط مع هذا المعاقدة استعانة به على شيء من بلادك التي عند ابن عباد ، فهو يجد لك فيها في وجهته هذه ) فأجبته : . . . » (76) .

وهناك مستوى نفسي ثالث يميزه البعد الشخصي والذاتي أكثر من غيره في سرد عبد الله وهو الذي يعكس في مناقشته وعرضه لنواياه ولنوايا غيره . مثلا ، يعكس هذا المستوى في قوله : « فقلت في نفسي . . . » (77) . وعندما وصف نية ألفونسو السادس لإجراء مفاوضات مع كل من عبد الله ومع ابن عمار وزير المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية على مستوى شخصي . كل على انفراد بهدف تشجيع عداوتهما واضعافهما (78)، أو عندما وصف نية يوسف بن تاشفين لاحتلال إشبيلية عندما أمر المعتمد بأن يأتي إليه قائلا، «نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله» ، وهو يعرف مسبقا أن الجواب سوف يكون بالنفي ليستعمل ذلك حجة لاحتلال إشبيلية (79) .

أمـا المستوى الرابع الذي اعتمده عبد اللـه ليعكس الواقـع الاجتماعي والسياسي بوضوح تام فيتجلى في اتخاذه وغيره مثل يوسف ابن تاشفين قرارات سياسية مختلفة في ضوء المعلومات والنصائح التي قدمها لهم مخبروهم ومستشاروهم . مثلا وصف لنا عبد الله كيف اتخذ يوسف بن تاشفين بعض القرارات المتعلقة بسياسته تجاه ملوك الطوائف بعـد أن قدم لـه العلماء وغيرهم آراءهـم ونصائحهم بينمـا حصل ألفونسو السادس هو الآخر على قرارات مفصلة للاوضاع داخل دول الطوائف من المبعوثين الذين كان يكلفهم بمهام إلى ملوك الطوائـف مثل بيـدرو أنسوريث (Pedro Ansurez) وسسندو دافيديث (Sismondo Davidiz) ثم يعودون إليه بالنصائح بشأن السياسـة الملائمة التي يجب اتخاذها . وبالرغم من أن النصائح والمعلومات التي قدمها مخبرو عبد الله إليه لم تكن صائبة على الدوام ، إلا أنـه كان دائما يتخذ قراراتـه بعد مناقشتها مـع مخبريه وقد عبر عن ذلـك بوضوح في عدة مناسبات: « وأخبرني رسول ابن صمادح بن أرقم . . . » (80). و « أخبرني أبو بكر بن المسكن . . . (81) . كما كان عبد الله يستشير مع علماء غرناطـة (أهل الرأي والمشورة) مثلما فعل عندمـا بعث ألفونسو السادس جيشه قصد تخريب دولة غرناطة الطائفية إن رفض عبد الله أداء أموال الجزية السنوية له بحيث إن عبد الله يخبر قراءه بما نصحه العلماء في هذا الموقف الحرج (82) .

لقد تمكنا من رصد بعض نقط الضعـف عند عبد الله في هـذا القسم ، كما أننا تطرقنـا للجوانب الايجابيـة في تاريخه لغرناطـة

وللمناهج التاريخية والتقنيات التي اعتمدها . ومع ذلك ، يجب أن نضع هذا التاريخ في إطار الحركة التاريخية العامة في الاندلس في القرن الخامس للهجرة لانه وإن حافظ على خصائص مميزة له ، فقد اتصف بخصائص أخرى كانت تطبع التأريخ الاندلسي عامة في المرحلة التي وصل خلالها إلى عصره الذهبي ، مثلا ، تتميز الكتابة التاريخية المعاصرة لعصر الطوائف التي وصلتنا بالتنوع نظرا لاتصافها بالتكامل المعرفي، وبمنهجيتها الصارمة والدقيقة، وبالارتباط المباشر للمؤرخين وبالتاريخ الذي حاولوا كتابته وباتخاذهم مواقف فكرية محايدة . وبالتحليل التاريخي العميق الذي يطبع عددا من التآليف المعاصرة والذي ينعكس في نوعية الاسئلة التي طرحوها وأجابوا عنها وأخيرا بأصالتها لكونها كانت أكثر نضجا وإبداعا من الكتابات التاريخية التي ظهرت في الاندلس أو حتى في العالم الاسلامي الى ذلك الوقت وكثير من هذه المزايا تنعكس بوضوح تام في كتابة عبد الله التاريخية وغيره من المؤرخين المعاصرين له. مثلا، تأثر عبد الله كثيرا شأنه في ذلك شأن المؤرخين الاندلسيين المعاصرين له ، بالتعليم الاسلامي من جهة وبالثقافة العربية من جهة أخرى ، نظرا لاطلاعهم الواسع على أهم ما انتجه المفكرون المشارقة. وينعكس هذا التأثير في تآليفهم وفي اهتماماتهم وهمومهم الثقافية فكان كل من عبد الله بن بلقين ومعاصريه الاندلسيين يعرفون الشخصيات التاريخية في إسبانيا المسيحية في القرن الخامس للهجرة كما أن كتابة عبد الله التاريخية وكتابات معاصريه الاندلسيين

كانت تفوق كل ما ظهر في الممالك المسيحية وفي أوربا عموما في مجال التأريخ . لقد قام الدكتور طوم دروري بانجاز دراسة حول صورة ألفونسو السادس وإسبانيا في عصره عند المؤرخين العرب (83) ، فخرج بتصور واقعي لملك ليون وقشتالة ، ولكن إذا حاولنا أن ندرس صورة ملوك الطوائف عند «المؤرخين» المسيحيين فسوف نخرج دون شك بصورة مشوهة للواقع التاريخي لانه لا يمكن بأي حال من الاحوال أن نقارن بين الحوليات المسيحية التي ظهرت في شمال إسبانيا وبين الكتابة التاريخية الاندلسية في القرن الخامس للهجرة : « يمكن القول منذ البداية أن التأريخ المسيحي خلال هذه الفترة (القرن الحادي عشر للميلاد موافق الخامس للهجرة) لم يقترب من تأريخ المسلمين ( في الاندلس ) من حيث العدد والجودة (84) .

ونريد أن نركز على نقطة في النهاية . فمن جهة ، ربما لا تجوز دراسة عبد الله بن بلقين بصفته مؤرخا بدلا من غيره من المؤرخين والمفكرين الاندلسيين العظام الذين وصلت شهرتهم الى مستوى عالمي . فلم ينل عبد الله اعتراف معاصريه من المؤرخين والمؤرخين المتأخرين عنه به عالما عظيما . وخلافا لابن حيان وابن حزم ، لم ينقل المؤرخون المتأخرون كثيرا عن عبد الله كما أن هذا الاخير لم يساهم في توجيه الاتجاهات الفكرية ولم يؤثر فيها كما كان الامر بالنسبة لبعض الاندلسيين المعاصرين له . إننا لا نجد اسمه في كتب السير والطبقات التي كانت تخصص لدراسة

أبرز العلماء الاندلسيين في القرن الخامس للهجرة بينما نجد ذكر كل من ابن حزم وابن حيان في مثل هذه الكتب. وخلافا للتاريخ الضخم الذي قام ابن حيان بانجازه وخلافا لكتب ابن حزم الرائدة في ميادين متعددة، لم يصلنا عن عبد الله بن بلقين إلا مذكراته بعنوان «كتاب التبيان» وهو تأليف بقي مجهولا خلال مدة قرون ولم ينل تقدير المهتمين بالتأريخ الاندلسي فى القرن الخامس للهجرة إلا نادرا وتتناقض شخصية عبد الله بن بلقين مع شخصية كل من ابن حزم وابن حيان، لانه كان يخالف ابن حيان الذي لم يتردد في انتقاد عدد من معاصريه بأشنع الاساليب وأكثرها عنفا، كما كان يخالف ابن حزم الذي كانت المجادلة تعتبر جزءا من طبيعته، بحيث إن عبد الله كان أحيانا يتخذ مواقف الاستسلام التام أمام التحديات التي واجهته فالقارئ كثيرا ما يتأسف عليه كما هو الشأن عندما قدم لنا وصفا عن الحالة التي فقد فيها سيطرته التامة على تطور الظروف السياسية والعسكرية بسرعة مذهلة في غرناطة بحيث استولى عليها جيش المرابطين فحرره من ثقل كان يفوق كل طاقته. إن مقدرة عبد الله الفكرية ورصيده الثقافي كانا محترمين كما أن بلاغة أسلوبه نالت إعجاب شخصيات أدبية ولغوية بارزة، إلا أن مقارنة معرفته وثقافته بمعرفة كل من ابن حزم وابن حيان يعتبر ضربا من العبث وضياع الوقت. ومع هذا، فإن عنصر الاختلاف في «كتاب التبيان» لعبد الله بن بلقين هو

بالذات الذي يعكس بوضوح مدى التنوع في التأريخ الاندلسي في القرن الخامس للهجرة.

إن هذا الكتاب فريد من نوعه الى درجة أننا لا نجد ما يماثله في العالم الاسلامي بل وفي أوربا خلال الحقبة التي ظهر فيها، بالرغم من وجود بعض العناصر التي كان يتميز بها.

لقد شكل هذا الكتاب محاولة رائدة لإنجاز نوع جديد من الكتابة التاريخية بحيث لم تظهر في التاريخ الاوربي إلا بعد تلك الحقبة بقرون. وخلافا لغيره من المؤرخين، كان عبد بن بلقين ملكا طائفيا في الوقت ذاته وقد مكنته هذه الخاصية من وضع تأليف طبعه البعد الشخصي بكيفية فريدة وأعطاه تلقائية وطراوة خاصة، نتيجة معرفته العميقة بأحداث القرن الخامس للهجرة وتطوراته التي لم يتوفر عليها عدد من المؤرخين المعاصربن له، علاوة على ما تمتع به من فهم عميق وقدرة متميزة على تحليل الاوضاع لم يتمكن من تحقيقهما إلا بفضل معرفته لها بواسطة ممارسته للحكم على غرناطة، فإن ما نجده من ثغرات فى مؤلف عبد الله ابن بلقين وما ينفرد به من مميزات كان ذلك لا يخلو منها التأريخ الاندلسي في القرن الخامس الهجري عامة ما دام «كتاب التبيان» نموذجا من هذا التأريخ.

# الهوامش

1) لقد اثارت منهجية ابن حيان التاريخية اهتمام عدد من المثقفين العرب والغربيين . وفيما يلي بعض الدراسات التي عالجت هذا الموضوع :

«ابن حيان وتاريخه لاسبانيا الاسلامية» لملشور أنطونيا :

Melchor M. Antuna , Ibn Hayyán y su historia de la Espana musulmana , Cuadernos de Historia de Espana, IV (1945) , pp. 5 - 71 .

وراجع أيضا المقدمة المطولة الممتازة التي وضعها الدكتور محمود علي مكي للقسم الذي قام بتحقيقه من «المقتبس ..» لابن حيان :

خلف بن حيان ، «المقتبس من انباء اهل الأندلس» ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، بيروت ، 1973 ، ص . 7 - 159 .

2) إننا لا ننكر أهمية التأثير الثقافي والفكري المشرقي في الاندلس والمغرب ، إلا أن الاتجاه المعاكس كان هو الآخر ذا اهمية لا يستهان بها ،

مع أنه لـم ينل ما يستحقه من اهتمام المؤرخين المتخصصين في تاريخ الثقافـة الاندلسية .

لقد عبر الدكتور خوان برنيت عن هذه الفكرة بوضوح قائلا : «لم يتجه تأثير الفكر الاسباني نحو الغرب فقط ، بـل كان له أثر واضح في إفريقيـة الشماليـة والمشرق ـ مع أن هذا التأثير نال اهتمام الدارسين اقل من الـإتجاه المعاكس ـ سواء من الناحية الادبية او من الناحية العلمية . سوف نكتفي بذكر بعض الامثلة :

نشأ الزجل في سرقسطة وتبلـور في قرطبة ثم صدر إلـى العراق . . . »
قمنا بتعريب هذا النص الوارد بالاسبانية في كتاب «الثقافة الاسبانية ـ العربية في الشرق والغرب» لخوان برنيت :

Juan Vernet, La cultura hispano árabe en Oriente y Occidente, Barcelona 1978, p. 8.

3) حول مكتبة الحكم الثاني راجع مثلا الاستاذ عنان الذي نقل عن ابن حزم وابـن حيان وغيرهما (محمد عبد الله عنان ، «دولـة الاسلام فـي الاندلس» ، ج . 2 ، القاهرة ، 1960 ، ص . 455 ـ 457) .

4) يعتبر تأليف الفرضـي ذا اهمية كبرى ، ولكن نظرا لكونه اتخـذ اسلوبا مركزا جدا ، لم يقم إلا باختيار اهم المعلومات المرتبطة بتراجم العلماء الذين وقع اختيـاره على دراستهم . (ابو الوليد عبد اللـه الفرضي ، «تاريـخ علماء الاندلس» ، القاهرة ، 1966 ، ص . 1 ) .

وراجع ايضا ابن بشكوال ، «كتاب الصلة . . . » فى جزءين ، تحقيـق عزت العطار الحسني ، القاهرة ، 1955 ) .

5) راجع مثلا ابو الحسن علي بن بسام ، «الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة» ، القسم الثاني ، ج . 1 ، تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيا ـ تونس ، 1975 ، ص . 11 ـ 12 .

6) لقد اعتمد ابن حيان على مصادر معاصرة ومباشرة فـي كتابه «المتين» . وحول المصادر التي اعتمدها في كتابه «المقتبس» راجع القسم الذي يحمل عنوان «مصادر معلومات ابن حيان» في مقاله «ابن حيان وتاريخه لاسبانيا الاسلامية» لانطونيـا :

Melchor M. Antuna. Ibn Hayyán y su historia de la Espana musulmana Op. Cit., PP 34-63.

7) فيما يخص بعض الاحكام التي عبر عنها المستشرقون حول التأريخ عند ابن حيان راجع الفصل الاول من هـذا الكتاب ، ص . 49 والهامش رقم 62 في الفصل نفسه ، ص . 80 .

8) «المؤرخون والجغرافيون الاندلسيون ، 800 ـ 1450 م» فرانثيسكـو بونس بويخيس .

Francisco Pons Boigues, Los historiadores y geografos arabigo - espanoles, 800 - 1450 A.D., repr., Amsterdam, 1972, pp. 160 - 164.

9) حول التاريخ الثقافي في الاندلس في القرن الخامس الهجري راجع مثلا اطروحة لنيل شهادة الدراسات العليا عنوانها «الحياة الثقافية باسبانيا الاسلامية في عصر ملوك الطوائف (القرن 11 م .)» لمحمد بن عبد السلام :

Mohammad Ben Abdeslam, La vie intellectuelle dans l'Espagne musulmane sous les muluk at - Tawaif (XIe siecle), thése inédite de D. E. S, Université de Paris III, 1971.

10) لقد كان وعـي العلماء الاندلسيين بانتمائهم إلـى حركة ثقافية شمولية واضحاً كـ نلاحظ وجود علاقات فيما بينهم بلغت احياناً درجة الصداقة القوية . مثلا ، يعتبر ابن حيان من اصدقاء ابن حزم كما كان للاثنين علاقـة بالشاعر ابـن شهيد والجغرافي البكري . ومـن جهة اخرى ، انتمش الجميع بالانتاج الثقافي الذي ميـز ذلك العصر وكانت ردود فعلهـم إزاء التطورات المختلفة تظهر في مواقفهم الخاصة تجاهها . ويظهر ذلك بوضوح تام في جدوال ابن حزم للفقهاء المالكيين واليهود الاندلسيين . وساهم هذا الاتجاه كثيراً فـي

تشجيع تطور المواقف النقدية في عدة مجالات معرفية . مثلا ، حول تيار النقد الادبي خلال تلك الفترة راجع الدكتور مصطفى عليان عبد الرحمان ، «تيارات النقد الادبي في الاندلس في القرن الخامس الهجري»، بيروت، 1984.

11) نقل المقري نصوصاً عن ابرز العلماء الاندلسيين الذين كانوا يدافعون عن القيم الثقافية والحضارية الاندلسية كما تطرق للهجومات المضادة لهذا التيار من المغرب والمشرق . ومن بين الاندلسيين الذين دافعوا عن ثقافتهم نذكر ابن بسام والحميدي وابن سعيد وابن حزم والشقندي (احمد المقري ، «نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»، ج. 3، تحقيق د إحسان عباس ، بيروت ، 1967، ص 150 ـ 222). وتستحق هذه الرسائل في محاسن اهل الاندلس المزيد من الدراسة والتحليل .

12) يتميز الانتاج الثقافي الاندلسي لهؤلاء العلماء والمفكرين خلال تلك الحقبة التاريخية بمستواه الرفيع وبكثرة المؤلفات في ميادين مختلفة تتراوح بين التاريخ والجغرافية والفقه والادب .

13) يتمثل تفوق العلماء القرطبيين خلال القرن الهجري الخامس في اسماء لامعة مثل ابن حزم وابن حيان وابن زيدون . وقد استطاعت قرطبة بالرغم من التخريب الذي اصابها خلال تلك الفترة وبالرغم من الازدهار الذي تمتعت به بعض المدن الاندلسية الاخرى، خصوصا إشبيلية، ان تحافظ على تفوقها الثقافي على سائر المدن الاندلسية. حول هذه المدينة بصفة عامة راجع د. عبد العزيز سالم ، «قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس »، في جزءين ، بيروت ، 1972 وخصوصا «بنو جهور بقرطبة» للدكتور خالد الصوفي :

Khaled Soufi, <u>Los Banú Yahwar en Cordoba, 1031 - 1070</u>, Cordoba, 1968.

كما هناك دراسة حول تاريخ قرطبة الاقتصادي في القرن الخامس للهجرة الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف :

« قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر ـ الخامس الهجري ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية »، تونس ، 1984 .

14) حول التعليم في الاندلس راجع الدكتور عبد الحميد عيسى ، «تاريخ التعليم في الاندلس» ، القاهرة ، 1972 ( راجع ص. 167 ـ 172 حول التعليم في عصر ملوك الطوائف ) . شكلت هذه الدراسة في الاصل أطروحة لنيل درجة الدكتوراه قدمها صاحبها في جامعة مدريد ( Autonoma ) سنة 1970.

15) مثلا ، تعكس بعض الاقسام في اعمال مثل «طوق الحمامة» لابن حزم و «كتاب التبيان» لعبد الله بن بلقين البيئة التي عاش فيها مؤلفي الكتابين المذكورين بوضوح تام .

16) بعد مقارنة الدكتور محمود علي مكي للآراء المختلفة حول هذه القضية وصل الى استنتاج وهو ان «البطشة الكبرى» لابن حيان كان يشكل كتابا مستقلا في اصله (خلف ابن حيان ، «المقتبس . . . » ، تحقيق د. محمود علي مكي ، بيروت ، 1973 ، ص . 70 ـ 72) .

17) لقد ضاع عدد من المؤلفات التي انتجها الاندلسيون خلال القرن الخامس للهجرة والبعض الاخر لم يصلنا منه سوى جزء قليل ويبدو ذلك واضحا مثلا في كتاب «المؤرخون والجغرافيون» لفرانثيسكو بونس بويخيس :

Francisco Pons Boigues , Los historiadores y géografos arábigo - espanoles 800 - 1450 A. D. . . , repr. , Amsterdam , 1972 .

18) مثلا ، لقد ضاعت مؤلفات المؤرخ البلنسي ابن علقمة إلا اننا نتوفر على نصوص رائعة منها حول احتلال السيد لبلنسية والمقاومة الاندلسية الطويلة التي قادها الفقيه ابن جحاف وذلك من خلال الاقتباسات التي نقلها ابن الكردبوس في «كتاب الاكتفاء» (أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس ، «كتاب الاكتفاء . . . » . المنشور في كتاب «تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط» ، تحقيق د . احمد مختار العبادي ، مدريد ، 1971. ص: 37 ـ 38 و 103 ـ 104 . وحول ابن علقمة راجع كتاب «السيد» شخصية تاريخية وادبية» لميكيل دي إبالثا :

Mikel de Epalza et Suzanne Guellouz , La Cid , Personnage historique et littéraire , Paris , 1983 , pp. 36 - 38.

19) ابو الحسن علي بن بسام ، «الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة» ، القسم الاول ، ج . 1 ، تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيا ـ تونس ، ص . 167 .

20) ابو الحسن علي بن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الثالث ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص 137 و «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص . 83 .

21) عبد الواحد المراكشي ، «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ، تحقيق محمد العربي العلمي ، القاهرة ، 1949 ، ص . 125 ـ 126 ولسان الدين بن الخطيب ، «اعمال الاعلام . . . » ، تحقيق إفارست ليفي بروفنصال ، الرباط ، 1934 ، ص 187 .

22) حول المساهمة الثقافية والحضارية للعلماء الاندلسيين خلال القرن الخامس للهجرة راجع القسم الاول من الفصل الثالث من هذا الكتاب .

23) مثلا ، أنظر الرسائل التي بعثها الفقيه الهوزني الى المعتضد بن عباد (ابن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص . 84 ـ 89) .

24) د . أمين توفيق الطيبي ، «دراسة حول الامير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري في غرناطة» ، «مجلة كلية التربية» ، (جامعة الفاتح) ، رقم 7 ، (1976 ـ 1977) ، ص . 114 وعبد الله بن بلقين ، «كتاب التبيان» ، تحقيق إ، ليفي بروفنصال ، القاهرة ، 1955 ، ص . 208 ـ 210 .

25) لقد درس ابن بسام ابن حزم بصفته شاعرا في إطار مجموعة الشعراء المعاصرين للقرن الهجري الخامس الذي تطرق لهم («الذخيرة»، القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص . 167 ـ 180) .

26) مثلا ، لم يتتلمذ ابن حيان للمؤرخين ولكننا نجد فقهاء ونحويين من بين اساتذته ومنهم الفقيه عمر بن حسين الاموي القرطبي واللغوي والنحوي ابي عمر احمد بن عبد العزيز بن ابي الحبيب القرطبي والشاعر والنحوي

المشهور سعيد بن الحسن الربعي البغدادي (أبو مروان حيان بن حيان، «المقتبس...»، تحقيق د. محمود علي مكي، مدريد، 1973، ص. 21 ـ 23.

27) مثلا، لقد ركزت جل البحوث التي قدمت لمؤتمر ابن حيان الذي انعقد في الرباط سنة 1980 على البعد الادبي عند ابن حيان بدلا من بعده التاريخي. (نذكر على سبيل المثال «ابو مروان ابن حيان اديبا وكاتبا» للدكتور حازم عبد الله خضر و «منهجية ابن حيان في تأريخ الادب ونقده» للدكتور محمد مفتاح («المناهل»، رقم 29 (1984). ص. 188 ـ 236).

28) ذكر الدكتور الطيبي ما نقله عبد الله بن بلقين من آيات قرآنية واحاديث ليؤكد معرفته الواسعة (د. امين توفيق الطيبي، «دراسة حول الامير عبد الله بن بلقين...»، المرجع السابق، ص. 115).

29) مثلا، اهتم عبد الله بن بلقين بالتنجيم (عبد الله بن بلقين، «كتاب التبيان»، المصدر السابق، ص. 170 ـ 171). اما ابن حزم فقد وضع تصنيفا للعلوم قام الدكتور يفوت بدراسته (سالم يفوت، «تصنيف العلوم لدى ابن حزم»، «مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية»، الرباط، (1982)، رقم 9، ص. 53 ـ 91.

30) يعتبر «كتاب الصلة» لابن بشكوال بالاجماع اهم مؤلف حول العلماء الاندلسيين في القرن الخامس للهجرة، ولكن يجب وضع هذا الكتاب في إطار التقليد الاندلسي في إنجاز كتب الطبقات التي ما زالت بحاجة إلى الدراسة والتنقيب.

31) حول البكري وكتابه «المسالك والممالك» راجع المقدمة التي وضعها الدكتور عبد الرحمن علي الحجي. (ابو عبيد البكري، «جغرافية اوربا من كتاب المسالك والممالك»، تحقيق الدكتور عبد الرحمان علي الحجي، بغداد، 1968).

32) لقد اكد الاستاذ بيلاط على اهمية هذا الكتاب قائلا: «... بالرغم من المدة التي مرت على نشره، ما يزال مفيدا جدا وما يزال يعتبر نقطة الانطلاقة للبحث في التأريخ الاندلسي»:

« ... the Ensayo bio - bibliografico of Pons Boigues, which despite its age is extremely useful and remains the stering point of research into Andalusian historiography» . ( Charles Pellat, The Origin and Development of Historiography in Muslim Spain, in Historians of the Middle East, ed. by Bernard Lewis and P. M. Holt, London, 1962, p. 118 ).

33) اتخذ الاندلسيون نفس الموقف بشأن هذه القضية بحيث تخلوا عن الخلافات التي كانت تفرقهم . ومع ذلك ، فقد تهجم ابن حزم على الاندلسيين المعارضين له واتهمهم بفشلهم في تقدير فكره خلافا للمشارقة وذلك في ابيات شعرية (ابن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص . 173 .

34) ومع ذلك لا يمكن اعتبار التاريخ السياسي سطحيا إلا إذا كانت معالجته سطحية .

35) ابو القاسم خلف بن بشكوال ، «كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس . . . » ، في جزءين ، تحقيق عزت العطار الحسني ، القاهرة ، 1955 وابو عبيد الله محمد بن الابار ، «التكملة لكتاب الصلة» ، تحقيق فرانثيسكو كودرا ، مدريد ، 1868 .

36) ابو محمد عبد المجيد بن عبدون ، «رسالة في القضاء والحسبة» المنشورة في كتاب :

Trois traités hispaniques de hisba : Documents arabes sur la vie sociale et économique en Occident musulman au Moyen Age, ed. par. E. Lévi - Provencal, le Caire, 1955, pp. 3 - 65

37) ابـو محمد علي بن حـزم ، «طوق الحمامة في الالفة والالاف» ، تحقيق فروق سعيد ، بيروت ، 1972 .

38) مثلا راجع مقالة الدكتور الطيبـي حول سيرة المعتمد من خلال شعره (الدكتور امين توفيق الطيبـي ، «المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (سيرته وشخصيته من خلال شعره» ، في مجلة كلية التربية ، (جامعة الفاتح) رقم 3 ، (1977 ـ 1978) ، ص : 69 ـ 76 .

39) لعل احسن دراسة لـ «كتاب التبيان» هي تلك التي انجزها الدكتور امين توفيق الطيبي بعنوان «دراسة حول الامير عبد الله . . .» ، المرجع السابق .

40) إن عدد الدراسات الاقتصادية حول الاندلس محدود . راجع مثلا «جوانب اقتصادية لاستسلام ملوك الطوائف» للدكتور خوسي ماريا لا كارا :

Jose Maria Lacarra, Aspectos económicos de la soumision de los reinos de Taifas (1010 - 1102), in Homenaje a Jaime Vicens Vives, tome 1, Barcelona, 1965, pp 255 - 277.

وراجع الفصل الثاني من هذا الكتاب حول الاتجاهات الاقتصادية في الاندلس في عصر ملوك الطوائف . وهناك درسة اقتصادية طريفة حول قرطبة في القرن الهجري الخامس تتميز باستغلال صاحبها النوازل الفقهية ( الدكتور محمد عبد الوهاب خلاق، «قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر. . .»، تونس، 1984.

41) راجع مقالة الدكتور احمد جبار حول رياضيين اندلسيين :

Ahmed Djebbar, Deux mathematiciens peu connus de l'Espagne du XIe siecle: Al-Mu'taman et Ibn Sayyid, dact., communication presentée au Colloque International de Marseille-Luminy sur les mathématiques autour de la Méditerranée jusqu'au XVII siécle, 16 - 24 avril 1984, 21 pages.

42) عبد الله بن بلقين ، «كتاب التبيان» ، المصدر السابق .

43) Abd-Alláh b. Buluggin, Les (Memoires) de Abd-Allah b. Buluggin, dernier roi ziride de Grenade, trad. au francais par E. Lévi-Provencal, Al-Andalus N° 3 (1935), pp. 238-344 et No. 4 (1935-39), pp. 29-145.

44) in Tawfiq Tibi, The Tibyán of Abd-Alláh b. Buluggin Last Zirid Amir of Granada, 2 vols. Ph. D. thesis, 1971 (published in the Netherlands, Brill, 1986).

45) E. Lévi-Provencal, et E. Garcia Gmez, El siglo onze en primara Persona, las memorias de Abd-Allah, ultimo rey ziri de Granada.., Madrid 1980;

46) Andrew Handler, The Zirids of Granada, Coral Gables, 1974.

47) مثلا راجع مقالة الدكتور الطيبي حول «كتاب التبيان»:

A. T. Tibi, The Tibyan of Abd - Alláh b. Buluggin. . ., vol.1, Op Cit., pp. x - xiii.

48) لقد قدم الدكتور الطيبي تحليلا نقديا لكل حاكم من حكام بني زيري بغرناطة.

(Ibid., pp. XXii - XXiii).

49) عبد الله بن بلقين، «كتاب التبيان»، المصدر السابق، ص. 69 و 93.

50) نفس المصدر، ص: 76، 104 ـ 113.

51) A. T. Tibi, The Tibyán of 'Abd - Alláh b. Buluggin. . ., vol. I, Op. Cit., p. XXi v.

52) نفس المرجع، ص. XXXii.

53) نفس المرجع، ص. XXXi.

54) نفس المرجع، ص. XXXiii.

55) نفس المرجع، ص. XXVii.

56) حول تحديد التاريخ الصحيح لمعركة الزلاقة راجع المقالة التالية:

Angus Mackay and M'hammad Benaboud, Yet Again Alfonso VI, Emperor, Lord of the Two Faiths . . ., in Bulletin of Hispanic Studies, No. LXI (1984), p. 175.

57) A. T. Tibi, The Tibyán of 'Abd - Alláh b. Buluggin . . ., vol. I., Op. Cit., p. Xlii.

58) انجز كتابا عنوانه «الانوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية» إلا أنه ضاع.

(A. Tibi, The Tibyan of 'Abd -A llah b. Buluggin ...., vol. I, Op. Cit., p. vii).

59) نفس المرجع ، ص . vi .

60) عبد الله بن بلقين ، «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص . 130 ـ 132 .

61) نفس المصدر ، ص . 69 و 75 .

62) نفس المصدر ، ص . 77 .

63) نفس المصدر . ص . 161 .

64) نفس المصدر ، ص . 164 ـ 167 .

65) نفس المصدر ، ص . 150 ـ 151 .

66) نفس المصدر ، ص . 139 (حول نعمان الثائر) وص . 122 ـ 126 (حول مفاوضاته مع مبعوث ألفونسو السادس) .

67) نفس المصدر ، ص . 109 (حول مسألة حصار حصن لييط) .

68) صدر هذا الكتاب بهولندا عند الناشر بريل سنة 1986.

69) عبد الله بن بلقين ، «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص. 69 ـ 177 ـ (حول عبد الله بن بلقين) و ص. 1 ـ 68 ( حول باقي حكام بني زيري بغرناطة ) .

70) نفس المصدر . ص . 104 ـ 106 و 149 ـ 171 .

71) نفس المصدر ، ص . 126 .

72) نفس المصدر ، ص . 107 .

73) نفس المصدر . ص . 126 .

74) نفس المصدر ، ص . 116 .

75) نفس المصدر ، ص . 51 .

76) نفس المصدر ، ص . 125 ـ 126 .

77) نفس المصدر ، ص . 123 .

78) نفس المصدر ، ص . 75 ـ 76 .

79) نفس المصدر ، ص . 169 .

80) نفس المصدر ، ص . 51 .

81) نفس المصدر ، ص . 118 .

82) نفس المصدر ، ص . 149 حيث أرسل بعثة تضم العلماء إلى يوسف قبل احتلال غرناطة سنة 483 هـ .

83) «صورة ألفونسو السادس وإسبانيا في عصره عند المؤرخين العرب» لطوم دروري :

Tom Drury, The Image of Alfonso VI and his Spain in Arabic Historians, unpublished Ph. D. thesis, Princeton, 1973

84) نفس المرجع ، ص 48 .

# الفهرس

# فهرس الخطأ والصواب

| ص | س | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| 4 | 8 | الطريقة | الطريقة |
| 5 | 2 | موقفا | موقفنا |
| 6 | 1 | الخامس | الرابع |
| 7 | 15 | العستوى | المستوى |
| 11 | 11 | liner | linear |
| 17 | 4 | mos - tribal societies | neo - tribal societies |
| 17 | 12 | فالبرغم | فبالرغم |
| 17 | 15 | كأن | كان |
| 18 | 7 | كمنطلة | كمقطقة |
| 24 | 12 | ألقى | ألقي |
| 28 | 2 | 422 هـ - 31 - 1090 م | 422 هـ - 1030 م |
| 31 | 6 | عاي | على |
| 32 | 3 | الويزاوت | القوط |
| 32 | 5 | الويزاوت | القوط |
| 34 | 21 | عمرديغو | رودريغو |
| 36 | 15 | المايد | البلد |
| 40 | 16 | من من | من |
| 43 | 13 | عامة قرطبة | عامة غرناطة |
| 44 | 4 | المسيحيون | المسلمين |
| 45 | 5 | متحركة | محركة |
| 48 | 15 | العصبة | العصبية |
| 50 | 5 | بان حيان | بابن حيان |
| 50 | 6 | تقل | تقل عنه |
| 51 | 14 | الثية في بوضوح | النية بوضوح |
| 64 | 11 | العربية - البربرية | العربي - البربري |
| 58 | 14 | تميت | تميم |
| 59 | 13 | يعشر | يعشر |
| 66 | 4 | recongulsta | reconquista |
| 65 | 7 | Ingulsition | inquisition |
| 68 | 8 | إلا في رأينا | إلا في اشتراك رأينا |
| 68 | 23 | Dary | Dozy |
| 69 | 10 | l'épagne | l'époque |
| 49 | 19 | remerguable | remarquable |
| 68 | 20 | éthnigues | éthniques |
| 68 | 26 | agnatigue | agnatique |
| 70 | 9 | en | ou |
| 70 | 11 | chrétianne | chrétienne |
| 70 | 11 | Colaglu | Celoqiu |
| 70 | 22 | classigne | classique |
| 71 | 22 | تدريخية | تدريجية |
| 71 | 26 | فالديانيا | والديانانو |
| 78 | 14 | religlos | religion |
| 78 | 15 | fix | fin |
| 78 | 23 | Edinburjh | Edinburgh |
| 78 | 21 | | Consideraciones |
| 79 | 26 | داقيث | داقديث |
| 80 | 9 | ele | esta |
| 80 | 17 | Asir | Asin |

| ص | س | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| 80 | 18 | arlfica | critica |
| 80 | 22 | empruné | emprunté |
| 80 | 22 | l'espéer | l'esprit |
| 82 | 17 | decument | document |
| 82 | 21 | epegne | époque |
| 82 | 31 | Recanguéte | Reconquete |
| 82 | 23 | nouvean | nouveau |
| 82 | 25 | épogne | époque |
| 82 | 26 | confure | confuse |
| 86 | 12 | مرت | معا |
| 89 | 7 | اللاستقرار | الاستقرار |
| 90 | 7 | Beangeur | Berenguer |
| 90 | 17 | موقعة | معركة |
| 93 | 19 | بصفتها | بصفتها |
| 94 | 18 | إلا | إلى |
| 98 | 11 | Mendesa | Mendoza |
| 49 | 9 | في في | في |
| 100 | 19 | بينهما | بينها |
| 101 | 2 | وسائل | رسائل |
| 102 | 12 | من من | من |
| 10 | 12 | إلى | إلا |
| 112 | 4 | Alarad | Storad |
| 118 | 2 | الثورة | الثروة |
| 119 | 11 | عنه | عن |
| 119 | 12 | vacaguista | reconquista |
| 119 | 13 | مبني | مبني على |
| 120 | 1 | وهذا | وهو |
| 120 | 14 | infengon | Infancon |
| 121 | 6 | وبالا | وبا" |
| 121 | 9 | لبسيط | ابوط |
| 123 | 19 | الوثيقة | الموثوقة |

| ص | س | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| 123 | 21 | تشيط | تخطيط |
| 127 | 7 | كجماعة | جماعة |
| 128 | 2 | ولكن ولكن | ولكن |
| 130 | 4 | مرر | ميرر |
| 131 | 8 | جدسه | حسه |
| 133 | 2 | Glich | Glick |
| 134 | 2 | léndits | inédits |
| 134 | 7 | Comerative | Comperative |
| 134 | 13 | Menendat | Menendez |
| 135 | 2 | frenlere | premlére |
| 135 | 2 | grendeur | grandeur |
| 136 | 11 | musulimanes | musulmanes |
| 136 | 12 | Ispanoles | espanoles |
| 135 | 5 | l'inlluerce | l'influence |
| 135 | 5 | l'zslour | l'Islam |
| 135 | 6 | Eurof | Europe |
| 135 | 6 | l'aglols | l'anglais |
| 135 | 6 | Humberv | Humbert |
| 144 | 10 | الماخوذة | المادية |
| 145 | 4 | docteine | doctrine |
| 145 | 6 | المناقدات | المناقسات |
| 146 | 8 | الجمود الجمود | الجمود |
| 147 | 16 | Pa aclos | Palacios |
| 148 | 1 | الابري | اليسوري |
| 150 | 20 | المتخصصين | المختصين |
| 151 | 7 | خطوست | حظيت |
| 151 | 13 | خطوت | حظيت |
| 153 | 1 | اتد خلفها | كدا خلفها |
| 154 | 4 | فرع فرع | فرع |
| 155 | 2 | هذين | هاتين |
| 158 | 11 | مفموجية | مدمجية |

| ص | س | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| 160 | 4 | ظاهرات | ظاهرة |
| 160 | 20 | يقـرئون | يقرؤون |
| 165 | 8 | الملاة | الملاح |
| 166 | 9 | يتمتمرن | يتمتمون |
| 160 | 20 | دو | دور |
| 168 | 5 | عثمت | أكدت |
| 171 | 1 | التقليدة | التقليدية |
| 173 | 1 | في في | في |
| 175 | 14 | المعتمـد | المعتضد |
| 177 | 16 | الذي إلى | الذي صعد |
| 180 | 7 | للمعتمـد | للمعتضد |
| 181 | 15 | الدين | الذين |
| 184 | 4 | قتلـوا قتلـوا | قتلـوا |
| 184 | 11 | يستخطب | يستقطب |
| 186 | 3 | ابن بسام | ابن حزم |
| 196 | 12 | الاديان الاديان | الاديان |
| 168 | 14 | عن عن | عن |
| 187 | 20 | عـا | عبا |
| 188 | 6 | Recongvista | Reconquista |
| 192 | 2 | تبـدوا | تبدو |
| 192 | 9 | موجوين | موجودين |
| 193 | 19 | الصف | الصنف |
| 198 | 16 | بصفته | ظاهريا كان |
| 200 | 20 | Polémipues | Polémiques |
| 200 | 26 | الايبري | اليبري |
| 201 | 7 | Alfapui | Alfaqui |
| 201 | 14 | العلما | العلماء |
| 201 | 1 | El Vira | Elvira |
| 201 | 6 | Fim | Fin |
| 201 | 16 | Siécles | siécles |
| 202 | 17 | E'Fegner | E. Fagnan |
| 203 | 22 | زعزي زيزي | زيزي |
| 204 | 5 | علال | علا |
| 206 | 4 | أـو | أبـو |
| 206 | 15 | تصنوف | تصنيف |
| 208 | 7 | Vrvoy | Urvoy |
| 207 | 22 | للتقليد | التقليد |
| 213 | 3 | إلى | إلا |
| 21x | 8 | ستغلال | استغلال |
| 225 | 14 | الطبيعة | الطبيعية |
| 226 | 6 | ويبدوا | ويبدو |
| 226 | 17 | لابيه | لابنه |
| 229 | 5 | الأدنى | الأدنى |
| 229 | 16 | قالا | قائلا |
| 236 | 16 | لملتزمين | وملتزمين |
| 236 | 19 | (      ) | غير المتخصصين |
| 237 | 13 | أ ) إن المؤرخ | أ ) المؤرخ |
| 245 | 15 | Andreur | Andrew |
| 245 | 15 | Hanler | Handler |
| 246 | 13 | يحصر | لحصر |
| 246 | 19 | عبد | عبد الله |
| 247 | 13 | النفسية | النفيسة |
| 248 | 11 | شريعة | شرعية |
| 249 | 9 | عدد | عدد من |
| 250 | 16 | الخاص من | الخاص |
| 258 | 17 | بـه | به بصفته |
| 268 | 2 | staring | starting |
| 280 | 28 | Naiherlands | Nederlands |

# هـذا الكتاب

يتطرق هـذا الكتاب الى جوانب مختلفة من التاريـخ الاجتماعي والاقتصادي في الاندلس خلال عهد دول الطوائف (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي).

تطرق المؤلف في الفصل الاول للعصبية والعلاقات الاجتماعية فحاول أن يثبت أن المجتمع الاندلسي لم يتميز بالعصبية في القرن الخامس للهجرة وأن هناك قوى اجتماعية واقتصادية أخرى كانت بارزة سواء في البنية الاجتماعية أو في إطـار العلاقات بين دول الطوائف كما لاحظ غيـاب العصبية في إطار مواقف أبرز المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة التاريخية.

وقام المؤرخ بدراسة الاتجاهات الاقتصادية في الاندلس في الفصل الثاني ويتطرق لطبيعة العلاقات الاقتصادية بين دول الطوائف وبين الممالك المسيحية في شمال إسبانيا مركزاً علـى دور الجزية المالية التي كان يفرضها المسيحيون وعلى رأسهم الفونسو السادس ملك قشتالة وليون على ممالك الطوائف. وأدت سياسة الفونسو فعلا الى إضعاف ممالك الطوائف سياسيا وعسكريا والى افلاسهم الاقتصادي، كما تطرق للعواقب الاقتصادية لهذه الاتجاهات على المستوى الداخلي في دول الطوائف

أما الفصل الثالث فيتجلى الجديد فيه أساساً في كون المؤلف حاول أن يحدد الموقف السياسي للعلماء الاندلسيين من ملوك الطوائف وتحوله من مواقف فردية متنوعة ومتعددة الى موقف موحد معادي لهم بعد أن أصبح الفونسو السادس يهدد ملوك الطوائف بإدماج ممالكهم في مملكته وبعد ظهور يوسف بن تاشفين بصفته عنصراً قـادراً على قيادة الاندلسيين ضد المسيحيين وقادراً على توحيد صفوفهم في إطار شرعي.

وأخيراً، يظهر الجديد في الفصل الرابع حول التاريخ في الاندلس في تحليل المؤلف لابراز عناصر الظروف التاريخية التي مكنت التاريخ الاندلسي في القرن الخامس الهجري الـذي كان يتسم أساساً بالتنوع والابداع من اتخاذه اتجاهاً جديداً قاده إلى أوجه، وتطرق المؤلف لمثال عبد الله بن بلقين مؤرخاً ليبرز أهم العناصر التي ميزت كتابته التاريخية مثل البعد الذاتي والشخصي في منهجيته التاريخية.

رقم الايداع القانوني : 1987/361

الثمـن : 70 درهمـا

طبـع غلاف هذا الكتاب بمطابع الشويخ «ديسبريس» ـ تطوان

**إصلاح وترتيب خادم المتعلمين أبو وردان العلوي**